

مائدة المصرفة

للدراسات والبحوث الإسلامية



ISSN: 2651-5407

مجلة علمية محكمة تصدر عن هيئة علماء فلسطين

السنة الرابعة مجلد 6 العدد السادس 1442هـ/2021م

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور عبد الجبار سعيد

رئيس قسم القرآن والسنة كلية الشريعة - جامعة قطر

مدير التحرير

الدكتور مجدي فويدر

أعضاء هيئة التحرير

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي - أستاذ التفسير وعلوم القرآن للمساعد في كلية الشريعة جامعة العلوم الإسلامية سابقا
الأستاذ الدكتور أيمن صالح - أستاذ الفقه وأصوله - كلية الشريعة - جامعة قطر.
الأستاذ الدكتور عبد المعز حريز - أستاذ أصول الفقه - كلية الشريعة الجامعة الأردنية
الدكتور محمد الشيب أستاذ الفقه وأصوله للمساعد - كلية الشريعة جامعة قطر.
الدكتور محمد همام ملحوم - أستاذ الفقه وأصوله للمشاركة - كلية الشريعة - أكاديمية باشاك شهير - تركيا
الدكتور منذر زيتون - أستاذ الفقه وأصوله للمساعد - كلية الشريعة جامعة العلوم التطبيقية سابقاً - الأردن

مستشارو هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور أحمد الريسوني - المغرب
الأستاذ الدكتور علي القرة داغي - قطر
الأستاذ الدكتور عبد الحكيم السعدي - قطر
الأستاذ الدكتور محمد عثمان شبير - الأردن
الأستاذ الدكتور أحمد أغراتشي - تركيا
الأستاذ الدكتور حمدي أرسلان - تركيا
الأستاذ الدكتور صالح الرقب - فلسطين

مجلة المراقبة للدراسات والبحوث الإسلامية

يوسف سيهان

يونيو ٢٠٢١

27580

Nida Yayıncılık Dağıtım Pazarlama

İç ve Dış Ticaret Ltd. Şti.

Balaban Ağa Mahallesi Büyük Reşit Paşa Caddesi

Yümni İş Merkezi No: 16/11 34080 Fatih/İstanbul

Tel: 0212 527 93 86 Faks: 0212 635 03 58

nida@nidayayincilik.com.tr - nidayayincilik.com.tr

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti.

Göztepe Mahallesi Bosna Caddesi No: 11

Bağcılar/İstanbul - Tel: 0212 446 88 46

اسم المجلة

الغلاف

الطبعة

رقم الإيداع

دار النشر

دار الطباعة

المراسلات

البريد الإلكتروني

almirqatmagazine@gmail.com

Başakşehir Mah, Hürriyet Bulvarı, No:121F, Kent neriva Sit, B blok121f/İstanbul

ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة أو هيئة علماء فلسطين

تعليمات النشر في مجلة «المراقبة» للدراسات والبحوث الإسلامية

- ١- ألا يكون البحث قد سبق نشره، أو قدّم لأية جهة أخرى من أجل النشر. وعلى الباحث أن يقدم تعهداً خطياً بذلك يقرّ فيه بأن بحثه عمل أصيل له، وأنه ليس مستلاً من رسالة للدكتوراه أو الماجستير أو كتاب منشور له.
- ٢- أن تكون البحوث متممة بالعمق والأصالة وحسن الأسلوب ووضوحه، والسلامة من الأخطاء اللغوية والنحوية، وأن يضيف نشرها جديداً إلى المعرفة.
- ٣- أن تكون البحوث موثقة من الناحية العلمية بالمراجع والمصادر والوثائق، وتوضع الهوامش في أسفل كل صفحة، وتثبت قائمة منسقة بالمصادر والمراجع في آخر البحث.
- ٤- هيئة التحرير الحق في تحديد أولويات نشر البحوث، وتعطى الأولوية للموضوعات المتعلقة بالقضية الفلسطينية.
- ٥- لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيئة التحرير إلا لأسباب تقتنع بها هيئة التحرير، ويتحمل الباحث نفقات التحكيم وغيرها من النفقات التي تحملتها المجلة في حال طلبه سحب البحث قبل نشره.
- ٦- في حال قبول البحث للنشر، تؤول كافة حقوق الملكية الفكرية للمجلة ويوقع الباحث على ذلك، ولا يجوز للمؤلف نشره في أي منفذ نشر آخر ورقياً أو إلكترونياً، إلا بموافقة المجلة.
- ٧- الآراء الواردة في البحوث المنشورة تعبر عن وجهة نظر الباحثين ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- ٨- لا تدفع المجلة مكافآت ولا تتقاضى أية مبالغ مقابل البحوث المنشورة أو مراجعات الكتب أو أي أعمال فكرية ما لم تكن بتكليف. ولا تعاد أصول البحوث المقدمة للنشر في المجلة إلى أصحابها.
- ٩- يقدم الباحث سيرة ذاتية موجزة مع البحث بالإضافة إلى ملخصين باللغة العربية والإنجليزية على ألا يزيد كل منهما عن مائتي كلمة.
- ١٠- ألا يزيد البحث عن ٨٠٠٠ كلمة أي بحدود ٣٠ صفحة بما في ذلك الأشكال والرسوم والجداول والمراجع، وتسلم نسختان إلكترونيتان من البحث عبر

موقع المجلة أو البريد الإلكتروني (almirqatmagazine@gmail.com)، باستخدام برنامج (Microsoft Word) نسخة بصيغة doc أو docx وأخرى بصيغة pdf. ويستخدم خط (Traditional Arabic) للغة العربية بحجم (١٦)، وبحجم (١٣) للحاشية. ويستخدم خط (Times New Roman) للغة الإنجليزية بحجم (١١)، وبحجم (٩) للحاشية والمستخلص. أما العناوين فتكون بخط أسود بارز (BOLD).

١١ - نظام التوثيق في الهوامش:

* عزو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة، ورقم الآية، وبينهما نقطتان، [مثل البقرة: ٢].

* عزو الحديث بذكر المخرج، والمدون الحديثي، والكتاب، والباب، ورقم الحديث.

* يحال على المصادر والمراجع كما يلي:

* عند أول إحالة على المصدر أو المرجع: يذكر اسم المؤلف، ثم اسم الكتاب كاملاً، ثم اسم المحقق (إن وجد)، ثم مكان النشر، ثم الناشر، ثم رقم الطبعة، ثم تاريخها، ثم رقم الجزء والصفحة، مثاله: ياسين، عبد السلام- تنوير المؤمنات، بيروت، دار لبنان، ط ١، ٢٠٠٣ م، ٨ / ١.

* وفي الإحالات الموالية لنفس المصدر يكتفى بذكر اسم المؤلف والكتاب مختصراً، ورقم الجزء والصفحة، مثاله ياسين، عبد السلام- تنوير المؤمنات ٨ / ١.

محتويات العدد

- ٧..... كلمة الافتتاحية.....
رئيس هيئة التحرير الأستاذ الدكتور عبد الجبار سعيد
- ١١..... السنن الإلهية في سورة الأحزاب «دراسة موضوعية»
الدكتور بكار الحاج جاسم
- تحليل شبه الجملة المتقدمة في القرآن الكريم،
وبيان أثرها على المعنى التفسيري «دراسة تطبيقية على سورة النبأ».... ٤٣
الدكتور بسام رضوان عليان
- ٧٩... مقدمة تحقيق شرح العلل للدكتور همام سعيد في ميزان علم الابتكار...
أ. د علي إبراهيم عجّين
- الشرح المفيد في بيان أمنية الشهيد
١٠٧... (دراسة تحليلية لحديث تمّني الشهيد الرجوع إلى الدنيا في سنن النسائي)
د. إبراهيم محمد محمود عبده
- معالم النظر المقاصدي في آي الكتاب
عند الإمام عبد السلام ياسين منهجا وموضوعا..... ١٤٧
أ.د محمد رفيع
- أثر مكملات مقاصد الشريعة في معاملات المصارف
١٦٩..... دراسة تأصيلية تطبيقية.....
رزق «محمد غازي» الغرابلي د. حسن بن إبراهيم هندواوي
- التعريف بِنُسْخَةِ حَطِيبَةٍ مِنْ صَحِيحِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ قُرِئَتْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ
أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا تَوَالِيًا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ عَامِ
٢٠٩..... (٨٩٩ هـ - ٩١٣ هـ)
د. محمد خالد كلاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد ﷺ وآله وصحبه والتابعين وبعد

فإن هذا العدد سيصدر وقد وضعت حرب سيف القدس أوزارها، وقد كانت حرباً نوعية بكل معنى الكلمة، ما بعدها ليس كما قبلها، هذه الحرب التي خاضتها المقاومة الفلسطينية؛ جهاداً ودفاعاً عن القدس، واستجابة لصرخات الأحرار والحرائر حول المسجد الأقصى، فهذه الحرب هي الأولى التي بدأتها المقاومة وبقرارها، وهي التي أذقت عدونا المحتل، كل أصناف الذل، ولله الفضل والمنة.

فقد دكت صواريخ المقاومة أركان العدو، وليس مبانيه ومصانعه فقط، وقد مزقت أصوات الانفجارات في شوارع تل الربيع هيبة المحتل وسلطانة، وليس جدرانها وجنوده ومستوطنيه فحسب، نعم أصبحت القدس خطأً أحمر، وحي الشيخ جراح خطأً أحمر، والمسجد الأقصى أكثرها وهجاً واحمراراً، فما عاد يستفرد الاحتلال بأهلنا في القدس أو الضفة، ولا حتى بأهلنا في الداخل المحتل عام ٤٨، ولا باتت يده مطلقة يصنع ما شاء، وسيحسب ألف حساب قبل أن ينتهك حرمة المسجد، أو يهجر أهلنا في حي الشيخ جراح، أو غيرهم من أهلنا في القدس.

ولعل المفاجأة الأكبر لهذا العدو المجرم، كانت دخول أهلنا في فلسطين المحتلة عام ٤٨ على خط المواجهة، هذه الكتلة البشرية المقيمة في أحشاء المحتل من الداخل، ويتجاوز عددها المليونين، أصبحت جزءاً من مشروع المقاومة والمواجهة، وهي قريبة منه بشكل يخنق أنفاسه، ويقطع وتينه بإذن الله، وليست مجرد كتلة بشرية، كان يظن المحتل أنه غسل دماغها، وأنها نسيت فلسطين والأقصى، وقد خاب فأله بحول الله .

لقد هدمت هذه الحرب جدران الكيان المحتل، ومزقت قلبه، وأطاحت بعروش المطبوعين وإعلامهم، هذه الجدران التي بذلوا جهودهم ووقتهم وأموالهم؛ للترويج لها والإيهام بأن قطار التطبيع انطلق بقوة ولن يتوقف، وسيتجاوز الفلسطينيين وقضيتهم، وستسعد (إسرائيل) بثمرات التطبيع، وتقطف نتائجه دون إزعاج حتى من الفلسطينيين. ولكن خاب فآلمهم بفضل الله تبارك وتعالى، وأربكت المقاومة حساباتهم، وأعدت القضية الفلسطينية إلى رأس الأولويات، وأصبحوا هم وتطبيعهم محلاً للتندر والاستهزاء بل والشتم والاستقذار.

ومما يجدر التنبيه له من خلال مجلتنا هنا، أننا نعتقد أن دور العلماء والمفكرين والباحثين أيضاً، ينبغي أن يكون بعد معركة سيف القدس مختلفاً عما قبلها، وهذا شأن العالم الحي، والمفكر اليقظ، والباحث النبيه، الذي يتعامل مع واقع أمته، ويسعى للنهضة بها، ويرتقي لمستوى الحدث. ومعركة كمعركة سيف القدس وضعتنا على طريق التحرير، وقربت لنا مسافة النصر، لا يصح أن نفوت فرصها، فما أحرانا أن نرتقي ببحوثنا ودراساتنا الشرعية والتربوية والقانونية والنفسية والعسكرية، لنكون بمستوى النصر والتحرير.

ويسرنا عبر كلمتنا هذه أن ندعو العلماء والباحثين، إلى مراجعة الأفكار والأهداف والاستراتيجيات، باتجاه التفعيل ومضاعفة الأداء. وميدان البحث العلمي، من أخطر ميادين المواجهة والمقاومة، والمدافعة. فلنكتف ببحوثنا ودراساتنا ونسعى لتميزها كمّاً ونوعاً، بما يتناسب مع نتائج المعركة.

على أنه لا يقتصر دورنا المأمول على البحث والكتابة والتفكير، بل يتعداه إلى أشكال الجهاد والمقاومة والنصرة كافة، ونحن نؤكد هنا. أننا لا نتحدث عن دور أمتنا باعتباره دوراً إسنادياً، ولا ثانوياً، ولكننا نعد أمتنا شريكة في التحرير، وتقف معنا جنباً إلى جنب في خندق المقاومة، وقد أمرنا ربنا تبارك وتعالى بالنفير جميعاً فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة ٣٨] وهذا النفير الذي دعانا الله

إليه أبوابه واسعة كما لا يخفى عليكم، بدءاً من النية الصادقة كم قال نبينا ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» رواه مسلم.

إلى بذل المال والنفس وفق ما أمرنا الله به بقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة ٤١]. وغير ذلك من أبواب الجهاد ومن أهمها الإعلام والنصرة الإعلامية خاصة باللغات الأجنبية، ومنها البحث والدراسات بجوانبها المتعددة، إذا وظفت في نصرة فلسطين والأقصى، وفي مواجهة العدو الصهيوني.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نؤكد على أننا نعطي الدراسات المتعلقة بالقضية الفلسطينية أولوية على غيرها، كما أننا نؤكد لكم سعينا الدائم لتطوير مجلتكم المرقاة، وحرصنا على تمثل أفضل المعايير، للحصول على فرصة النشر على أفضل المنصات البحثية (سكوبس وغيرها)، ونحن في حالة مراجعة دائمة لأدائنا، بما يحقق الأفضل لمجلتنا وباحثينا.

ونحن بصدد تحديث وتطوير الموقع الإلكتروني للمجلة؛ لنفعل النشر الإلكتروني، ولتلاءم مع ما نصبوا إليه من كفاءة المجلة وتميزها، ويسرنا دائماً وأبداً أن نتلقى اقتراحاتكم لغايات تطوير الأداء لهيئة التحرير ومجلكم، بل وهيئة علماء فلسطين التي تنتسب إليها هذه المجلة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رئيس هيئة التحرير

د. عبد الجبار سعيد

السنن الإلهية في سورة الأحزاب

«دراسة موضوعية»

الدكتور بكار الحاج جاسم*



ملخص:

يتناول هذا البحث موضوع السنن الإلهية في سورة الأحزاب، وتبرز أهميته من جهتين: الأولى: من حيث أهمية معرفة السنن الإلهية في حياة الإنسان؛ لأنها قوانين ثابتة لا تتغير، والثانية: أن موضوعات سورة الأحزاب ذات صلة مباشرة بواقع المسلمين المعاصر، فالأحزاب ما زالت تجتمع على عداوة المسلمين، فتقدم سورة الأحزاب سنناً إلهية ثابتة تُعدُّ خطأً مُحْكَمَةً في تحمل الأمانة التي حَمَلَهَا اللهُ تعالى للإنسان من خلال الأسوة الحسنة بأخلاق النبوة، والصدق في الإيمان واليقين بوعد الله ووعدِهِ، وكذلك أشارت هذه السورة إلى مكانة أهل بيت النبوة، حيث أراد الله تعالى لهم التخلية من مساوئ الأخلاق والتخلية بحاسنها، فبالتخلية والتخلية تكون الترقية، والتشريف على قدر التكليف، فالقرآن وأهل البيت العترة لا يفترقان إلى يوم القيامة كما أخبر النبي ﷺ، لأجل هذا أراد الله تعالى أن يطهرهم، وسناقش هذه المسألة بالتفصيل.

الكلمات المفاتيح: السنن الإلهية، الأحزاب، المؤمنون، المنافقون، أهل البيت.

Abstract:

This research discusses the Divine Ways in Surat Al-Ahzab. Highlighting this in two main aspects. First, the importance of understanding how the Divine Ways work in a person's life. Because these ways are laws that do not change their course or can be changed by humans. Second, is how the topics of Surat Al-Ahzab are directly related to the reality of modern day Muslims. Parties still unite over the animosity of Muslims. And Surat Al-Ahzab presents the never-changing Divine Ways that gives us a strong plan to bear the responsibility that God entrusted to humans, through the good example of the Prophet's (PBUH) way of life, truthfulness in faith, and complete belief in God's fair rewards and punishments. This Surah also refers to the high status of The Family of The House (the Prophet's House). As God wanted them to forsake evil manners and raise themselves with beautiful honorable ones. Because with great status comes great responsibility. As the Prophet (PBUH) said, life and practices of The Family of The House never separate from the teachings of Quran till Judgement Day. For that, God wanted to purify them. And more of that will be discussed next in details.

Keywords: Sunan, Surat Al-Ahzab, the believers, the people of the house.

* أستاذ علوم القرآن والسنة المشارك، جامعة بالوا- كلية العلوم الإسلامية، تركيا تاريخ استلام البحث ٢٠٢٠/٩/٥م،
وتاريخ قبوله للنشر ٢٠٢١/١/١١م. Bakkar71@hotmail.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه، أما بعد فإنَّ أصدق الكتب وأحسنها القرآن العظيم، ذلك أنه من لدن حكيم خبير، فعلموه وعجائبه لا تنتهي، ولكل مجتهد في تدبره نصيب، فمن أصاب له أجران، ومن أخطأ له أجر واحد! ومن علموه وحقائقه الثابتة السنن الإلهية، قال تعالى فيها: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: ٤٣]. هذه السنن ماثورة في القرآن، وخاصة ما يتعلق بالنفس الإنسانية والاجتماع البشري، فأما السنن المتعلقة بالكونيات فقد أشار إليها القرآن على جهة الإجمال وساقها للاستدلال على حقائق مسائل الألوهية والنبوات.

أولاً: سبب اختيار الموضوع:

أردتُ بهذا الموضوع إبراز السنن الإلهية وتذكير أنفسنا بها، عسى أن تكون برنامجاً عملياً في حياتنا؛ لأجل التغيير والنهضة في مجتمعاتنا وأمتنا.

ثانياً: أهمية الموضوع:

بدأ اهتمامي بالسنن الإلهية في القرآن منذ إعداد رسالة الماجستير التي بحثت موضوع السنن الإلهية تأصيلاً؛ لهذا أقدم بحثاً في السنن الإلهية، واخترت سورة من سور القرآن لأبحث السنن الواردة فيها، وقد جرت العادة أن يُختار موضوع من الموضوعات فتُدْرَس سننه الإلهية، فعدلت عن ذلك بغرض كشف المناسبة والعلاقة بين سنن السورة الواحدة، واخترت سورة الأحزاب؛ لأنها متوسطة الطول، وفيها سنن إلهية ذات أهمية كبيرة في حياة المسلمين، وخاصة في هذا العصر الذي تجتمع فيه أحزاب العالم على عداوة المسلمين كما اجتمع الأحزاب على عداوة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولكن خابث ظنوهم وأهزمت فلوهم، ولن تتبدل هذه السنة الإلهية ما دام هناك مؤمنون صدقوا ما عاهدوا الله عليه!

ثالثاً: الدراسات السابقة:

الدراسات المتعلقة بسورة الأحزاب كثيرة، من يبحث في (جوجل) يجدها، وكما ذكرتُ أن لكل مجتهد نصيباً، فالمادة العلمية واحدة، ولكن الغرض

والطريقة والكتابة تختلف، فهي أنفاس والله القابض الباسط والجامع المانع، نسأله السداد والصلاح، كما قال في هذه السورة: ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١].
رابعًا: منهج البحث:

المنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، حيث استقرأت جميع آيات السورة فاخترت منها ما يرتبط بالسنن، ومسألة الفصل بين آيات القرآن من جهة الموضوعات دقيقة قد يتعذر في كثير منها؛ لأنَّ للقرآن طريقة فريدة في سرد الموضوعات، فتجد في الآية الواحدة عدة موضوعات في الألوهية والنبوة والكونيات والإنسانيات وغير ذلك! فنبحث ونفرز الآيات من باب سدودا وقاربوا، وتبقى طريقة القرآن هي الطريقة المثلى المعجزة للبشر!

خامسًا: خطة البحث:

جاءت خطة البحث في مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر:

المقدمة تضمنت سبب اختيار الموضوع، وأهميته، والدراسات السابقة، والمنهج، وخطة البحث.

التمهيد: يشتمل على تعريف السنن الإلهية، وفيه ثلاثة مطالب.

المبحث الأول: السنن الإلهية المرتبطة بالنبي ﷺ، وفيه ستة مطالب.

المبحث الثاني: السنن الإلهية في أهل بيت النبوة، وفيه أربعة مطالب.

المبحث الثالث: السنن الإلهية في المنافقين، وفيه أربعة مطالب.

المبحث الرابع: السنن الإلهية في المؤمنين، وفيه أربعة مطالب.

المبحث الخامس: سنة الأمانة التي حملها الله تعالى الخلق، وفيه ثلاثة مطالب.

الخاتمة والتوصيات: تناولت نتائج البحث وتوصياته.

التمهيد: التعريف بالسنن الإلهية

المطلب الأول: التعريف اللغوي:

السُّنَّة هي: الطريقة والسيره والعاده، وسنة النبي ﷺ: طريقته التي كان يتحرها، وسُنَّة الله: تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته^(١). جاء في لسان العرب: «وسُنَّة الله: أحكامه، وأمره، ونهيه، وسنَّها الله للناس: بيَّنَّها، وسنَّ الله سُنَّةً، أي: بيَّنَّ طريقًا قويمًا، قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [سورة الأحزاب: ٦٢]. نصب سُنَّة الله على إرادة الفعل، أي: سنَّ الله ذلك في الذين نافقوا الأنبياء، وأرجفوا بهم أن يُقتلوا أنى ثقفوا»^(٢).

المطلب الثاني: التعريف الاصطلاحي:

تطلق السُّنَّة - في الاصطلاح - على عدة وجوه:

أولاً: يراد بها عند الأصوليين المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، فعُرِّفت عندهم بأنها: «ما صدر عن الرسول ﷺ من الأدلة الشرعية، مما ليس بمتلو، ولا هو معجز، ولا داخل في المعجز»^(٣).

ثانياً: ويراد بها عند أهل الحديث: «أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وتقديراته، وصفاته الخلقية والخلقية، وزاد بعضهم: وأقوال الصحابة والتابعين، وأفعالهم»^(٤).

ثالثاً: ويراد بها عند الفقهاء: «ما طلب الشرع فعله من المكلف طلباً غير لازم»^(٥).

(١) انظر: الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق ببيروت، ط ١٤١٢/١هـ. ٢٤٥، والفيروزآبادي (محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ)، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للسنن الإسلامية ولجنة إحياء التراث الإسلامي بالقاهرة، ٢٦٧/٣.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ)، دار صادر ببيروت، ط ١٤١٤/٣هـ، ١٣/٢٢٥.

(٣) الأمدى، سيف الدين علي بن أبي علي (ت: ٦٣١هـ)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي ببيروت، ١٥٦/١.

(٤) الدكتور محمد أبو شهبه، الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، عالم المعرفة بجدة، ١٦٠٣/١٩٨٣م، ١٦.

(٥) الدكتور وهبه الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر بدمشق: ط ٤، ١/٥٢.

المطلب الثالث: التعريف بالمركب الإضافي السُّنَّة الإلهية:

السُّنَّة الإلهية مركب إضافي، وتقدم في التعريف اللغوي قول ابن منظور: وسُنَّةُ اللَّهِ: أحكامه وأمره ونهيهِ. وقد وردت إضافتها في القرآن إلى الله تعالى، كقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦٢]. وجاءت مضافة إلى الأولين، كقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٨]. وجاءت مجردة عن الإضافة، كقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧]. وبعد استقراء كلمة السُّنَّة في القرآن تبين أنها وردت ست عشرة مرة، في إحدى عشرة آية، جاءت مرة مجموعة، ومرة أخرى مفردة، وجاءت مرة مضافة، ومرة أخرى مجردة عن الإضافة، وقد تبين من خلال ذلك أنها جاءت بمعنيين اثنين في القرآن: الأول: وقائع الهلاك بالمكذبين للرسول. والثاني: المناهج والشرائع في الأمم السالفة، وبناءً على ذلك يمكن تعريف السنة الإلهية كمركب إضافي بأنها: «حكم الله المطَّرد في المكُونات». وقد توصلت إلى هذا التعريف بعد بحث السنن الإلهية في رسالة الماجستير^(١).

المبحث الأول: السنن الإلهية المرتبطة بالني

المطلب الأول: مخاطبة النبي بصفة النبوة وترقيه في الكمالات الربانية:

خاطب الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، وخاطب النبي الخاتم بصفاته؛ إظهاراً لشرفه وعلو درجته، فتصدرت سورة الأحزاب بمخاطبة النبي بصفة النبوة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَكُمْ

(١) بكار الحاج جاسم، سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم «دراسة تأصيلية تطبيقية»، دار النوادر بدمشق، ط ١/٢٠١٢م، ١٩.

قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿[سورة الأحزاب: ٤، ١].
وأشار الأمر بالتقوى إلى أَنَّ الترقى في الكمالات لا يتناهي، وقد قال تعالى
لنبيه ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤]. فالعلم لا يتناهي، وكذا
الفيوضات الربانية على نبيه ﷺ لا تتناهي؛ إذ إِنَّ الله وملائكته يصلون على
النبي، وقد أمر المؤمنين أَنْ يصلوا عليه ﷺ، قال تعالى في هذه السورة: ﴿إِنَّ
اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا
﴿[سورة الأحزاب: ٥٦]. ومن كرامة النبي ﷺ على ربه أَنْ جعله وسيلة من
وسائل القرب والترقى، فأمر المؤمنين بالصلاة عليه؛ ليرفع ذكرهم به، قال
رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيَّ عَشْرًا»^(١). وقد جاء في
فضل هذه السنة الربانية آثار كثيرة، أُفردت في كتب خاصة.

فأشارت هذه الآيات إلى المنهج القويم والصراط المستقيم الذي يحفظ المؤمنين
من الانزلاقات، ويرقيهم في درجات الكمالات، وهو اتباع الوحي والتزام التقوى،
وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، الذين ما يودون أَنْ ينزل على المؤمنين من خير
من ربهم؛ بل هم أهل أثرة وعداوة، وقد فصل القرآن سننهم في ذلك، ومَنْ
يتق الله ويتوكل عليه فهو حسبه، قال تعالى هنا: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكَيْلًا». وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ
قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٣، ٢]. ومَنْ كانت وجهته الإيمان بالله واليوم الآخر فلا
يلتفت؛ لأنَّ الملتفت لا يصل! ومن السنن الإلهية أَنَّ القلب لا يتجه وجهتين
في الوقت نفسه، قال تعالى هنا: «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ». فلا
يوجد قلبان في الإنسان أحدهما للإيمان وآخر للكفر، أو أحدهما للصالحات
وآخر للسيئات، أو أحدهما للخير وآخر للشر... إلخ. وهكذا لا تجتمع في القلب
الضرائر! حتى المنافق لا يستطيع أَنْ يجمع بين الإيمان والكفر في قلبه، فالنفاق
هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر؛ ولهذا لا يفلح المنافقون في سلوكهم.

(١) أخرجه مسلم بن الحجاج (ت ٢١٦هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي
بيروت، د/ط، د/ت، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم الحديث ٤٠٨.

المطلب الثاني: صفات النبي ﷺ:

ذكر القرآن للنبي ﷺ خمسة أوصاف في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥ - ٤٨]. هذه أوصاف خمسة جامعة لأصول الرسالة الخاتمة، فقد أرسل الله تعالى النبي ﷺ شاهداً بالحق على الحق للحق، وما تزال شهادة النبي ﷺ حاضرة في أمته، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]. فالوسطية تقتضي الشهود المستمر على الناس؛ لإقامة الحجة عليهم، وقد ربطت الآية بين شهادة الأمة على الناس وشهادة الرسول ﷺ على هذه الأمة نفسها؛ وذلك لتبقى الأمة حريصة على أداء شهادتها كما يريد الله تعالى ورسوله ﷺ، وشهادة الرسول ﷺ على شهادة الأمة تتمثل في سنته الشريفة التي تستقي منها الأمة منهجاً قوياً في شهادتها وحياتها، وبناء على هذا عُصمت الأمة من الضلالة، فلا يجتمع جميع أفرادها على خطأ، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى ضَلَالَةٍ وَيَدُّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَدَّ شَدَّ إِلَى النَّارِ»^(١). وإذا كانت الوسطية تعني الخيرية، فقد أكد الله تعالى هذه الخيرية في الأمة، فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]. دلَّت الآية على خيريتها فيما مضى، ولم تدل على انقطاع طراً^(٢). وقد نُقل عن عمر ﷺ أنه قرأ هذه الآية ثم قال: «يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله

(١) أخرجه الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، مصطفى الباي الحلبي بالقاهرة، ط ١٩٧٥/٢م، أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في لزوم الجماعة. وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ». رقم الحديث ٢١٦٧.

(٢) البضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت ٦٩١هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البضاوي، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، د/ط/

منها»^(١). وشرط الله كما ذكرته الآية هو الإيمان بالله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقدّم وصف البشارة على الندارة فقال تعالى: «وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا»؛ لأن رسالته رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]. ودعوته ليست دعوة رجل إصلاحى ثورى، إنما رسالة نبوية بإذن الله تعالى؛ لهذا قيّد ذكر الدعوة بإذن الله، فقال تعالى: «وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ». ثم قال: «وَسِرَاجًا مُنِيرًا». ف «لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُّبَيِّنَةٌ... كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَبْتِكُ بِالْخَيْرِ»^(٢). فالنبي ﷺ سراج منير خُلِقًا وَخُلُقًا وَكِتَابًا وَحِكْمَةً وَأَصْحَابًا وَمَنْهَجًا، إنه سراج منير لا ينطفئ نوره أبدًا. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرَثٍ»^(٣). وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ كَأَنَّ عَرَقَهُ اللَّوْلُؤُ إِذَا مَشَى تَكْفَأُ، وَلَا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً وَلَا حَرِيرَةً أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلَا عَنَبْرَةً أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٤).

المطلب الثالث: ولاية النبي ﷺ العامة:

بعد إبطال التبني. كما ذُكر في أول سورة الأحزاب. لم يعد النبي ﷺ أبًا لزيد بن حارثة ﷺ، ولا لأحدٍ من الرجال حقيقةً، قال تعالى في هذه السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠]. لأن أولاده الذكور ماتوا صغارًا؛ ولم يكن

(١) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر

بيروت، ١٩٨٤م، ١٠٢/٧.

(٢) قاله عبد الله بن رواحة ﷺ، انظر: القسطلاني أحمد بن محمد شهاب الدين (ت: ٩٢٣ هـ)،

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المكتبة التوفيقية بالقاهرة، ٥٧٩/٢.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب. وقال: «هَذَا حَدِيثٌ

عَرِيْبٌ». رقم الحديث ٣٦٤٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي ﷺ، ولين مسه والتبرك

بمسحه، رقم الحديث ٢٣٣٠.

له أحفاد إلا من طرف السيدة فاطمة رضي الله عنها، وكأنَّ انقطاع نسبه من الذكور يشير إلى انقطاع النبوة من بعده، فهو خاتم النبيين كما صرَّح القرآن هنا، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْتُمُونَ قَوْلًا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: فُؤَا بَيْعَةَ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ أَعْطَوْهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»^(١). ولكن الله تعالى قد أكرم نبيه ﷺ بالولاية العامة على المؤمنين، فقال تعالى: ﴿الِنَّبِيِّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٦]. فولاية النبي ﷺ عامة في الدين والدنيا، فمن اتخذه ولياً فقد أفلح وسعد في الدارين، ذلك أنَّ النبي هو النور المبين والرحمة المهداة للعالمين، والكلام في هذا الباب واسع، أشير إلى بضعة أحاديث: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿الِنَّبِيِّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فَإِنَّمَا مُؤْمِنٌ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مِنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيْعًا فَلْيَاتِنِي فَإِنَّا مَوْلَاهُ»^(٢). وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ نَبِيٍّ سَأَلَ سُؤلاً أَوْ قَالَ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتَجِيبَ فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ببيروت، ط/١٩٨٧م، كتاب أحاديث الأنبياء صلوات الله عليهم، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم الحديث ٣٤٥٥. وقوله فوا: «بِالضَّمِّ أمر الجماعة من: وفي يفي، وَالْأمر منه: ف، فيا، فوا، وَأصله: أوفوا، وَأصله أوفوا، نقلت حركة الياء إلى ما قبلها، فالتقى ساكنان فحذفت الياء فَصَارَ أوفوا، ثم حذفت الواو اتباعاً لحذوها في المضارع لوقوعها بين الياء والكسرة، فَصَارَ: أفا، ثم حذفت الهمزة للاستغناء عنها، فَصَارَ: فوا، على وزن: عوا». العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بدر الدين (ت: ٨٥٥هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ٤٣/١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير سورة الأحزاب، باب النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، رقم الحديث ٢٣٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة. رقم الحديث

المطلب الرابع: شرف مقام النبي ﷺ في النبيين عليهم السلام:

أشارت سورة الأحزاب إلى ذلك المقام المنيف من بين النبيين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧، ٨]. فالميثاق الأول هو النبوة والتبليغ، والميثاق الغليظ هو الإيمان بالنبي الخاتم ونصرته، وقد فسّره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٨١].

وفي سؤال الصادق عن صدقه إشارة إلى أمرين: الأول: تنبيهه إلى التزام التقوى ومراقبة النفس ومحاسبتها. والثاني: تبكيت وتوبيخ للمكذبين، فإذا كان الصادق يُسأل عن صدقه فمن باب أولى يُسأل الكاذب عن كذبه. فالجميع يُسألون، قال تعالى: ﴿فَلْتَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْتَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٦]. سؤال الرسل فسّره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سورة المائدة: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الحجر: ٩٢، ٩٣]. قال رسول الله ﷺ: «لَا تُزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْتَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»^(١).

المطلب الخامس: النبي ﷺ هو الأسوة الحسنة:

الأسوة الحسنة مطلب تربوي عام، نلاحظ أهميتها من خلال المؤسسات الأسرية والتربوية، فالأسوة الحسنة لجميع الأفراد والمؤسسات في جميع المستويات

(١) أخرجه الترمذي في سننه: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب في القيامة، رقم الحديث ٢٤١٧. وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الْحُسَيْنِ بْنِ قَيْسٍ، وَحُسَيْنُ بْنُ قَيْسٍ يُضَعَّفُ فِي الْحَدِيثِ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ».

هو النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]. ذكر الأسوة الحسنة في هذه السورة بين موقف المنافقين وموقف المؤمنين ليشير إلى ما يجب أن يكون عليه كلا الفريقين؛ فهلاً حركت مكارم النبوة والأخلاق. أي: الأسوة الحسنة. في نفوس المنافقين نوازع الفطرة الإنسانية نحو تلك الكمالات الإنسانية؟ لو لم يكن سيدنا محمد ﷺ نبياً لكانت أخلاقه الإنسانية جاذبة للنفوس الكريمة! فأى شيء فيه لا يرضى عنه الناس؟ إنه الإنسان الكامل، والنبي الخاتم، والرحمة المهداة، والنور المبين، والصادق الأمين! وليس بعد ثناء ربه عليه ثناء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤]. وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^(١). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]. فرسالته اقتضت على الرحمة فلا تتجاوزها، ورحمته عمّت العوالم كلها علويها وسفليها! لهذا كان هو الأسوة الحسنة لِمَن أراد سعادة الدارين، فهو أسوة حسنة ليس غير، لأنه لا يكون منه إلا الحسنة، فالسيئة ليست من أخلاقه، فوجهته وطريقه الصراط المستقيم الذي منه وبه يبدأ، وإلى الجنة ينتهي، لكن الهوى يصم ويعمي، وقد أردت الأهواء المنافقين والكافرين في المهالك، ونجا وأفلح مَنْ عرف قَدْرَ النبي ﷺ فتأسى به في جميع أعماله. وقد رأى الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ يتقدمهم في المعارك فتقدموا، ورأوه صابراً ثابتاً فصبروا وثبتوا، ورأوه كيف كان يعصب بطنه من الجوع يوم الأحزاب فأسرع بعضهم بصنع الطعام كما فعل جابر ﷺ^(٢). عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَقَلُّ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّىٰ أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوْ عَبَّرَ بَطْنَهُ، يَتَوَلَّى:»

(١) أخرجه أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١/١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، المسند: مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، رقم الحديث ٢٤٦٠١. قال الشيخ شعيب الأرنؤوط محقق الكتاب ومخرج أحاديثه: «حديث صحيح، وهذا إسناد فيه انقطاع، الحسن - وهو البصري - إنما سمعه من سعد بن هشام عن عائشة...، وبقيته رجاله ثقات رجال الشيخين».

(٢) حديث طعام جابر أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق، رقم الحديث ٤١٠١.

وَاللَّهُ لَوَلَاَ اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا، وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَاقِيْنَا، إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا، وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: أَيْنَا أَيْنَا»^(١). هذا هو القائد الأسوة الذي يُفْتَدَى بالأرواح!

المطلب السادس: إيذاء النبي ﷺ وأتباعه من المؤمنين:

لقد توعد القرآن الذين يؤذون الله ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [سورة الأحزاب: ٥٧، ٥٨]. فَمَنْ آذَى اللَّهَ تَعَالَى بِالْكَفْرِ وَالشَّرْكِ وَأَذَى رَسُولَهُ بِالْإِنْتِقَاصِ مِنْ نُبُوتهِ وَقَدْرِهِ فَجَزَاؤُهُ اللَّعْنُ، أَي: الطرد عن رحمة الله في الدنيا والآخرة، والعذاب المهين في جهنم. فأما مَنْ آذَى مُؤْمِنًا بِالْقِيلِ وَالْقَالِ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ فَقَدْ بَهَتَهُ وَأَثَمَ إِثْمًا عَظِيمًا. قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْعِيبَةُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذِكْرُكَ أَحَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَحِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(٢). والبُهْتَانُ هُوَ الْكُذِبُ الَّذِي يَبْهَتُ سَامِعَهُ، أَي: يدهشه لفظاعته^(٣). وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(٤). والمراد بولي الله: العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته، عاداه من أجل ولايته وليس على الإطلاق، فيستثنى منه ما إذا كانت الحال تقتضي نزاعًا بين اثنين في محاصمة أو محاكمة ترجع إلى استخراج حق أو كشف غامض، ولما كان ولي الله مَنْ تولى الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق، رقم الحديث ٤١٠٤.
 (٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم الحديث ٢٥٨٩.
 (٣) انظر: بدر الدين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١/١٥٤.
 (٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم الحديث ٦٥٠٢.

بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصرة، وقد أجرى الله العادة بأن عدو العدو صديق، وصديق العدو عدو، فعُدو ولي الله عدو الله، فمن عاداه كان كمن حاربه، ومن حاربه فكأنما حارب الله^(١).

وينبغي على المؤمن أن يتعد عن مواطن الشبهة، وألا يهون من شأن دينه؛ حتى لا يهان ويؤذى، وعندئذ يكله الله تعالى إلى نفسه فلا يدافع عنه؛ لهذا عقب القرآن بعد الكلام عن خطورة أذى المؤمنين بما يجب عليهم من الالتزام بدينهم؛ ليكون الله تعالى وليهم ونصيرهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَ أَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ وَمِنَ اللَّهِ نَسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٥٩]. فإذا عرف الإنسان بالاستقامة فالله يتولى الدفاع عنه، فيبعد أذى الناس عنه، وإن ظهر من أحد أذى بارزه الله بالحرب؛ لأنه عادى وآذى ولياً من أوليائه، وقد قضت سنته بالدفاع عنهم كما سبق بيانه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [سورة الحج: ٣٨]. «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ وَالنَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْجَبُ وَيَنْبَسُّ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ يَشْتُمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقُمْتَ، قَالَ: إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَتَعَدَّ مَعَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثَ كُلُّهُنَّ حَقٌّ: مَا مِنْ عَبْدٍ ظَلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُعْضِي عَنْهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا نَصْرَهُ، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ يُرِيدُ بِهَا صِلَةً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا كَثْرَةً، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيدُ بِهَا كَثْرَةً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا قَلَّةً»^(٢).

(١) انظر: ابن حجر، أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١٤١٠/١هـ/١٩٨٩م، ٣٤٢/١١.
 (٢) أخرجه أحمد في المسند: مسند أبي هريرة، رقم الحديث ٩٦٢٤. وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره، وقد خولف ابن عجلان في إسناد هذا الحديث، فقد رواه الليث بن سعد، عن سعيد المقبري، عن بشير بن الحر، عن سعيد بن المسيب، مرسلًا، ورجحها البخاري في «التاريخ» ١٠٢/٢، والدارقطني في «العلل» ١٥٣/٨، فإن الليث أصح الناس روايةً عن المقبري، وأما ابن عجلان فيقع له في أحاديثه عن سعيد المقبري بعض الأوهام، لكن للحديث متابعات وشواهد تنهض به إلى التحسين».

المبحث الثاني: السنن الإلهية في أهل بيت النبوة

المطلب الأول: معنى كلمة أهل البيت في القرآن:

وردت كلمة أهل البيت في القرآن في سياق الكلام عن زوجات الأنبياء عليهم السلام، فسياق آيات الأحزاب تدلُّ على أنَّ المراد بأهل البيت نساء النبي ﷺ، وقال تعالى في إبراهيم ﷺ وأهله: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [سورة هود: ٧٣]. وقال تعالى في لوط ﷺ وأهله: ﴿إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٣٣]. وقال تعالى في موسى ﷺ وأهله: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [سورة طه: ١٠]. فهذه الآيات تؤكد أنَّ زوجة الرجل من أهل بيته، واللغة والعرف العام يؤكدان ذلك. فأما آية الأحزاب فأذكرها مع السباق واللاحق؛ ليتجلى المعنى للناظر، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [سور الأحزاب: ٣٣، ٣٤].

المطلب الثاني: معنى أهل البيت في آية الأحزاب:

الظاهر من خلال سياق الآيات أنَّ المقصود بأهل البيت في آية الأحزاب هو نساء النبي ﷺ، فإن قيل: لو كان المراد بأهل البيت في هذه الآية نساء النبي ﷺ كما هو ظاهر من السياق، فلماذا لم يرجع الضمير إلى النساء فيقول: ليذهب عنكن الرجس، كما رجع إليهن ضمير النسوة أكثر من عشرين مرة في سياق الآيات؟^(١) ولماذا كانت نسبة البيوت إليهن ما قبل كلمة أهل البيت وما بعدها، فقال تعالى: بيوتكن، وعند ذكر الأهل قال: البيت بالمفرد أي: بيت واحد وليس بيوتاً؟ يقال في الجواب: إنَّ المسألة بسيطة وواضحة يعلمها

(١) لم أذكر جميع الآيات هنا، راجع هذه المسألة في سورة الأحزاب الآيات من ٢٨ إلى ٣٤.

الأعجمي قبل العربي، فقد عدل عن ضمير النسوة إلى ضمير جمع المذكر حتى يشمل النساء والرجال، فيدخل أبنائه وأحفاده كما تدخل نساؤه وبناته في أهل البيت، كما خاطبت الملائكة امرأة إبراهيم ﷺ ثم قالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [سورة هود: ٧٣]. لقد عدلوا عن مخاطبتها بالمفرد المؤنث إلى مخاطبة الجمع المذكر، فقالوا: عليكم أهل البيت ولم يقل: عليك، حتى يشمل الرجل والمرأة أي: الزوج والزوجة، وكذلك فيه إشارة لولدتهما الذي بُشِّرَتْ به وأحفادهما أي: إسحاق ويعقوب وأبنائه من بعد. فأما القول: لماذا أفرد كلمة البيت وفي السباق والحقا ذُكِرَ بالجمع مضافاً إلى نون النسوة، فقال: بيوتكن؟ فيقال: أل التعريف في كلمة البيت للعهد، فالبيت المعهود هو بيت النبوة، وقد كان للنبي ﷺ بيوت على عدد زوجاته، سماها القرآن: الحجرات، فشملت كلمة البيت بيوته كلها.

المطلب الثالث: الحديث الوارد في أهل البيت في السنة:

فإن قيل: لقد وردت روايات كثيرة تفيد أن أهل البيت هم فاطمة وعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم، والسنة مبيّنة للقرآن، إذن فالمراد بأهل البيت هم هؤلاء المذكورون بنص السنة، يقال في الجواب: ما ثبت في السنة لا يعارض القرآن، بل أكدت السنة وبيّنت أن القرآن عدل عن مخاطبة المؤنث إلى مخاطبة المذكر حتى يشتمل المعنى على أبناء النبي ﷺ وأحفاده وصهره علي رضي الله عنهم، فأكدت أن المراد بالبيت هو بيت النبوة، والنبي ﷺ يُدْخَلُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ، فهو صاحب البيت، كما قال ﷺ: «سَلَمَانٌ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ»^(١). وَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَهْلِ الْكِسَاءِ

(١) أخرجه الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت: ٤٠٥هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق مصطفی عبد القادر عطا، دار الکتب العلمیة بیروت، ط ١/١٤١١هـ / ١٩٩٠م، کتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر سلمان الفارسي ﷺ. رقم الحديث ٦٥٣٩. وقال الهيثمي: «رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَفِيهِ كَثِيرٌ بِنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُرْتَبِيِّ، وَقَدْ ضَعَّفَهُ الْجُمهُورُ، وَحَسَّنَ الرَّؤْمِذِيُّ حَدِيثَهُ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ». الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي بالقاهرة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ٦/١٣٠.

وإدخال سلمان رضي الله عنه لا يدل على الحصر. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «خَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرْحَلٌ مِنْ شَعْرِ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌُّّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»^(١). وَقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «وَوَشَّهْتُ وَلِيمَةَ زَيْنَبَ فَأَشْبَعَ النَّاسَ حُبْرًا وَحَمًّا، وَكَانَ يَبْعَثُنِي فَأَدْعُو النَّاسَ، فَلَمَّا فَرَغَ قَامَ وَتَبِعْتُهُ، فَتَخَلَّفَ رَجُلَانِ اسْتَأْنَسَ بِهِمَا الْحَدِيثُ لَمْ يَخْرُجَا، فَجَعَلَ يَمُرُّ عَلَى نِسَائِهِ فَيُسَلِّمُ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَيْفَ أَنتُمْ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَيَقُولُونَ: بِخَيْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟ فَيَقُولُ: بِخَيْرٍ»^(٢).
 إذن فنساء النبي صلى الله عليه وآله من أهل البيت بالمصاهرة، وقد ثبت بنص القرآن، وأهل الكساء من أهل البيت بالنسب، وسلمان الفارسي من أهل البيت بالولاء، وقد ثبتا بنص السنة، وقد وسَّع الفقهاء مصطلح أهل البيت حتى شمل قرابته من بني هاشم.

المطلب الرابع: معنى التطهير لأهل البيت:

ينبغي فهم معنى الآية من خلال سياق الآيات وما فيها من أحكام تكليفية وتوجيهات ربانية، فأراد الله تعالى بهذه الأحكام أن يحفظ شرف أهل البيت ومكانتهم بالتخلية عن المساوئ والتحلية بالمحاسن، كمثل قول ناصح لأخيه، ينهاه عن الرذائل ويحثه على الفضائل، ويحثهم نصيحته بقوله: إنما أريد لك الخير والسمعة الحسنة والطُّهر... إلخ. فالتكليف على قدر التشريف، وقد علل القرآن ذلك فقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْنَ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٢]. فأمرهن بما أمر لِيُذْهِبَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الرِّجْسَ أَي: الخبائث والرذائل التي لا تليق بالأشراف والسادة، ويطهرهم تطهيراً، أي: يزيهم بالفضائل ومحاسن الأخلاق بما يليق بشرف الانتساب إلى بيت النبوة،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب اللباس والزينة، باب التواضع في اللباس، رقم الحديث

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها، رقم الحديث

فأهل البيت ليس كغيرهم إن اتقوا! وكذلك إن أخطأوا فخطأهم ليس كخطأ غيرهم، فأراد الله تعالى لهم بهذه الأوامر والتوجيهات أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً يليق بأن يكونوا أسوة حسنة للناس، فليُروا الله من أنفسهم خيراً، وليكونوا أهلاً لحمل الأمانة، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك التكليف والتشريف فقال: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِشْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَاَنْظُرُوا كَيْفَ تَحُلُّفُونِي فِيهِمَا»^(١).

إذن فلاجل هذا التلازم بين القرآن وأهل البيت أراد الله تعالى أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً، فَمَنْ اتقى وأدى الأمانة نال مرتبة الشرف الأولى، وَمَنْ ضَيَّع الأمانة فأمره إلى الله إن شاء ألحقه بأهله وإن شاء عدَّبه، ذلك أن شرف الانتساب إلى بيت النبوة لا يغني عن شرف القرب من الله ورسوله بالأعمال الصالحة، ولهذا قال تعالى بعد آية التطهير: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥]. عدد أنواعاً من الأعمال الصالحة، وقرن النساء بالرجال؛ ليتنبه المسلمون إلى أن خصوصية أهل البيت هي تشريف وتكليف، فإن قصرُوا في التكليف فاتهم التشريف، وذلك الشرف قد يناله المسلمون بالأعمال الصالحة التي عددها هنا، وأشار بإظهار النساء في السياق إلى أنه لا فرق بين الرجل والمرأة في الإيمان والعمل الصالح، وقد تسبق المرأة الرجل بأعمالها، فكذلك لا فرق في الإيمان والعمل الصالح بين المسلمين عموماً وأهل البيت، وقد يُسبَق المسلم من أهل البيت بذلك، فالزبية التي أكرم الله تعالى بها أهل البيت لا تُثَقِّص من المزايا الكثيرة للمسلمين عموماً، فالفضل من الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

(١) أخرجه الترمذي في سننه: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب مناقب أهل بيت النبي، رقم الحديث ٣٧٨٨. وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

المبحث الثالث السنن الإلهية في المنافقين

المطلب الأول: التشكيك وإشاعة الأكاذيب والفرار من المواجهة:

بيّن القرآن في هذه السورة موقف المنافقين من تجمع الأحزاب كما بيّن موقف المؤمنين، ومثل تلك المواقف تتكرر في كل ابتلاء يصيب المؤمنين على مدار العصور؛ لهذا يجب الاهتمام بمثل هذه المواقف التي تعد سنناً كونية ثابتة، وقد بدأ بموقف المنافقين وفصّل فيه؛ لخطورته على المؤمنين عمومًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [سورة الأحزاب: ١٢-١٥]. فأول خطوة خاطئة يتخذها المنافقون هي التشكيك في الثوابت والمحكمات من الدين، فأروا أن وعد الله ورسوله لهم بالغلبة والنصر وغير ذلك كان باطلاً وزوراً! والخطوة الخاطئة الثانية هي إشاعة الأراجيف والأكاذيب، ودسُّ السُّمِّ في العسل من خلال إثارة مصطلحات رجعية عصبية طائفية إلى غير ذلك من الأغراض الخبيثة، كما تفعل وسائل الإعلام المعاصرة المكتوبة والمسموعة والمرئية في وقتنا المعاصر! قال تعالى هنا: «وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا». فتنبّه كيف وجّهوا الخطاب لأهل يثرب فقط، إنه خطاب يشير إلى غرض المنافقين في العودة إلى ما قبل دخول النبي ﷺ المدينة المنورة، أي: يريدون أن يرجعوا إلى العصبية والجاهلية لتبقى لهم السيادة! ويشير قولهم: «لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا». إلى ترك المهاجرين يواجهون تلك الحشود! والخطوة الثالثة التي تعقب تلك الدعوات والأراجيف هي الفرار من المعركة بأسلوب الاستئذان والاعتذار الكاذب، يقولون: «إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا». فقد فروا، «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا». فقد جمعوا بين خسيستين: النفاق والغدر، وليس ذلك من مكارم الأخلاق عند الرجال! ومن شناعات أخلاقهم

أَنَّ إثارة الفتنة بين الناس مقدّمة عندهم على عورة البيوت التي اعتذروا لأجلها اعتذاراً كاذباً، لقد فضح القرآن شأنهم هذا، فقال تعالى: «وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا». أي: لو دخلت تلك الجموع بيوتهم من كل جانب ثم طُلب منهم الفتنة لتركوا بيوتهم واستجابوا دون تأخير! لقد نكّسوا سلّم الأولويات والضرورات!

ولن ينفعهم الفرار، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ١٦، ١٧]. إن كان فرار المنافقين خوفاً من القتل فإنّ هذا الفرار لا يغنيهم من الموت أو القتل المقدّر عليهم، ولن يتمتعوا بالحياة وقتاً طويلاً، ذلك أنّ الموت الذي يفرون منه فإنه ملاقيهم، وليس لديهم عصمة تمنع نزول قدر الله فيهم، فلا يدفع السوء ولا يأتي بالرحمة إلا الله تعالى، وليس لأحدٍ من دونه من ولي ولا نصير في دفع مفسدة أو جلب مصلحة.

المطلب الثاني: التعويق والشح والخوف وسلاطة اللسان:

من سنن المنافقين الواردة هنا: التعويق والشح والخوف وسلاطة اللسان، قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَسِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٠، ١٨]. لقد كشف الوحي أساليب المنافقين في التعويق، أي: وضع العوائق، وفي التحزب؛ لأجل تثبيط المؤمنين، وزعزعة إيمانهم وثباتهم، وبذلك تنقلب تلك الأساليب حسرة عليهم، ويزداد المؤمنون إيماناً مع إيمانهم! والمنافقون لا يشاركون في حرب إلا قليلاً، وإن شاركوا فلاجل غرضين رئيسين:

الأول: تحقيق منفعة خاصة. والثاني: إثارة الفتنة، وإفساد ذات البين، قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٧]. والخبال: الفساد والشر والاضطراب، ولأوضعو خلالكم، أي: سعوا بينكم بالنمائم والتضريب بين ذات البين^(١). ومن سنن المنافقين المذكورة هنا: الشح، ومعناه: بخل مع حرص، فالشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شح وبخل بإخراجه، فالشح يأمر بالبخل؛ كما قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخَلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَقَجَرُوا»^(٢). فالبخيل: من أجاب داعي الشح، والمؤثر من أجاب داعي الجود والسخاء^(٣). فالمنافقون «أَشْحَهَّ عَلَيْكُمْ» أيها المؤمنون خاصة، وهم «أَشْحَهَّ عَلَى الْخَيْرِ» عامة. ومن سننهم: سلاطة اللسان، «فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ حِدَادٍ». فالمنافقون إذا خاصموا فجروا، وذلك إذا انتهت الحرب وذهب خوفهم آذوا المؤمنين بألسنتهم السليطة الفاجرة!

المطلب الثالث: الخوف والرعب والجبن:

ومن سننهم: الخوف والرعب والجبن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [سورة الأحزاب: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٠]. أي: يرغبون في الخروج إلى البوادي بعيداً عن الأحزاب؛ لأنهم إن بقوا إما أن يجاربوا وهم شاكون

(١) انظر: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٢٨ هـ)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق محمد عبد السلام شاهين: دار الكتب العلمية بيروت: ط ١: ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، ٢/ ٢٧٦.

(٢) أخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥ هـ)، سنن أبي داود، تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، د/ ط، د/ ت، كتاب الزكاة، باب في الشح، رقم الحديث ١٦٩٨. وأخرجه الحاكم في المستدرک وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ إِسْنَادًا، وَلَمْ يَخْرُجْهُ».

المستدرک على الصحيحين، كتاب الزكاة، باب إياكم والشح، رقم الحديث ١٥١٦.

(٣) انظر: الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٣/ ٣٠٠.

بالنصر، وإما ألا يجاربوا فتظهر عداوتهم للمؤمنين، فيريدون أن يبقوا في حالة التذبذب والنفاق؛ لذلك يرغبون بالابتعاد، ومن بعيد يسألون عن الأنباء! وينبغي ألا يعبا المؤمنون ببعدهم عن القتال؛ لأنَّ في مشاركتهم خبالاً ومفسدة بين ذات البين.

المطلب الرابع: سنة الله في المنافقين:

النفاق داء عضال يفتك بالأمة، وخطورته على المنافق نفسه أعظم، حيث يحبط عمله ويكون في الدرك الأسفل من النار، إن كان نفاق اعتقاد لا نفاق عمل، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُوْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [سورة محمد: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء ١٤٥، ١٤٦]. وقد بيَّن القرآن في هذه السورة سنة الله فيهم، قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا سَنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب ٦٠ - ٦٢]. فأكثر الأذى الذي يصيب المؤمنين يأتي من جهة المنافقين؛ وذلك لقربحهم ومخالطتهم، وقد توعدهم الله تعالى بالوعيد الشديد في الدنيا والآخرة إن لم ينتهوا عن الأذى بأن يطردهم عن رحمته، ويسلط عليهم مَنْ يسومهم العذاب، ويبغضهم إلى الناس، فلا يجالسونهم ولا يتعاملون معهم، وتكون نهاياتهم وخيمة، تلك سنة الله فيهم، ولا يمكن لأحد أن يبدل سنة الله أو غيرها. والمراد بقوله تعالى: «الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ». أوصاف ثلاثة لموصوف واحد، كقوله تعالى: (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات...) إتح الآية [سورة الأحزاب: ٣٥]. حيث ذكر أصنافاً عشرة، وكلهم يوجد في واحد، فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار^(١).

(١) انظر: الرازي، محمد بن عمر أبو عبد الله (ت ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، دار الفكر بيروت،

المبحث الرابع: السنن الإلهية في المؤمنين

المطلب الأول: الابتلاء:

السنن المتعلقة بالمؤمنين في القرآن كثيرة، المذكور منها في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٩ - ١١]. تلك واقعة من وقائع ابتلاءات المؤمنين، وذلك يوم الأحزاب أو الخندق، فقد زاغت الأبصار، أي: مالت عن حد الاعتدال في الرؤية، بسبب الحيرة والدهشة عندما رأوا جموع الكافرين وتكالبهم، وقد بلغت القلوب الحلقوم من الفزع والخوف، وتعددت الحسابات والتكهنات والتحليلات السياسية والعسكرية في نتائج تلك المعركة التي زلزلت المؤمنين زلزالاً شديداً، فكشفت حقائق الإيمان والصبر والثبات والتوكل، حقاً كان الابتلاء عظيماً مَيَّزَ الخبيث من الطيب، وأظهر معادن الرجال! عَنِ إِبْرَاهِيمَ النَّيْمِيِّ عَنِ أَبِيهِ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ حُدَيْقَةَ فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُدَيْقَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذْتَنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَّنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَّنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَّنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: قُمْ يَا حُدَيْقَةُ، فَأَتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: أَذْهَبَ فَأَتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ، فَلَمَّا وَلَيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَيْدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبِرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَعْتُ فُرُزْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ

اللَّهُ ﷻ مِنْ فَضْلِ عَبَاةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: قُمْ يَا تَوْمَانُ»^(١).

المطلب الثاني: اليقين بوعد الله، والصدق في المواقف من سنن المؤمنين:

لا يشك المؤمنون بوعد الله في النصر وغيره؛ ولهذا تراهم صادقين في المواقف وفيما عاهدوا الله عليه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٢-٢٤]. لقد صدق رجال من المؤمنين ما عاهدوا عليه الله، ليس يوم الأحزاب فحسب؛ بل صدقوا في الإيمان والاتباع، وفي المهمات والمدهمات! فأما يوم الأحزاب فقد عبروا عن موقفهم بقولهم: «هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا». فالزلازل الشديدة الذي أصابهم يوم الأحزاب زادهم إيمانًا وتسليمًا؛ لأنهم علموا مثل الذين من قبلهم حين زلزلوا فثبتوا فنصرهم الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤]. وكذلك ثبت المؤمنون يوم الأحزاب. عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «كَانَتِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ الْخُنْدِ تَقُولُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا حِينِنَا أَبَدًا فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَأَكْرَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ»^(٢).

المطلب الثالث: المؤمنون لا ينازعون الله ورسوله في حكم:

من سنن المؤمنين في رسوخ الإيمان والثبات أنهم لا ينازعون الله ورسوله فيما قضى وأمر، خلافًا للمنافقين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب غزاة الأحزاب، رقم الحديث ١٧٨٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب مناقب الأنصار، باب دعاء النبي ﷺ: أصلح الأنصار والمهاجرة، رقم الحديث ٣٧٩٦.

قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿[سورة الأحزاب: ٣٦]. المؤمن الحق وَقَّاف عند الحق، لا يدهن ولا ينافق، اختياره ما اختار الله ورسوله؛ لأنه يعلم أن الله يحكم ما يريد، وأنَّ حكم الله عدل ورحمة وإحسان، ويعلم أنَّ النبي ﷺ هو أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم، كما تقدم بيانه، ويعلم أنَّ في معصية الله ورسوله ضلالًا بعيدًا، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم مضرب المثل في سرعة الاستجابة لله ورسوله، وفي الثبات على الحق! جاء في الصحيح من حديث طويل: «فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمَلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالتَّجَاشِيَّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَحَّمْ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَفْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمْ حَفْضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحْدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ»^(١). ولهذا نالوا أعلى شهادة تزكية ورضوان في تاريخ الإنسانية، لقد زكاهم ربُّهم فَأَنْعَمَ وَأَكْرَمَ! قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: ١٠٠]. إذن فالإيمان والثبات على الحق له ثمن كبير عند الله تعالى، لا يفقهه غير المؤمن الذي ذاق طعم الإيمان ورسخ في قلبه.

المطلب الرابع: سنة الله في المؤمنين:

عندما صدق المؤمنون في التأسى برسول الله ﷺ، وصدقوا في اليقين، وصدقوا في الثبات، كفاهم الله القتال، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل

تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [سورة الأحزاب: ٢٥ - ٢٧]. وقد
 مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَنَصَرَهُمْ بِرِيحٍ وَبِجُنُودٍ لَمْ يَرَوْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا
 أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
 رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ [سورة الأحزاب: ٩].
 ورد الله تعالى بذلك الذين كفروا بغیظهم أي: بحقدهم وغضبهم؛ لفشلهم فيما
 أرادوا. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: قُلْنَا يَوْمَ الْخُنْدَقِ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ مِنْ
 شَيْءٍ نَقُولُهُ فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، قَالَ: تَعَمَّ اللَّهُمَّ اسْتَرَّ عَوْرَاتِنَا وَآمَنَ
 رُوعَاتِنَا. قَالَ: فَضْرَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 بِالرِّيحِ»^(١). وكان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ،
 سَرِيعِ الْحِسَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِمْهُمْ»^(٢). هذا ما يتعلق
 بالأحزاب الذين جاءوا من خارج المدينة، فأما الذين من داخل المدينة فهم
 يهود بني قريظة الذين نقضوا عهدهم وانضموا إلى المشركين، «فَلَمَّا رَجَعَ
 رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْخُنْدَقِ وَضَعَ السِّلَاحَ وَاعْتَسَلَ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
 وَهُوَ يَنْقُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْعُبَارِ، فَقَالَ: قَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ وَاللَّهُ مَا وَضَعْتَهُ، اخْرُجْ
 إِلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: فَأَيْنَ؟ فَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، فَتَرَلُّوا
 عَلَى حُكْمِهِ، فَزَدَّ الْحُكْمَ إِلَى سَعْدِ، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ،
 وَأَنْ تُسَبَى النِّسَاءُ وَالذُّرِّيَّةُ، وَأَنْ تُقَسَمَ أَمْوَالُهُمْ»^(٣). هكذا نالوا جزاء غدرهم بعد
 أن قذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، وأنزلهم من صياصبيهم، أي: حصونهم!
 ومن سنن الله في المؤمنين أيضًا أنه يصلي عليهم وملائكته، ويخرجهم
 من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا
 كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
 الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤١﴾ [سورة الأحزاب: ٤١ - ٤٣].

(١) أخرجه أحمد في المسند: مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رقم الحديث ١٠٩٩٦. وقال الشيخ

شعيب الأرنؤوط: «إسناده ضعيف».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق، رقم الحديث ٤١١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي: باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب، رقم

الحديث ٤١٢٢.

ذَكَرَ اللَّهُ نِعْمَةً لَيْسَ فَوْقَهَا نِعْمَةٌ، عرفها مَنْ عرف وأنكرها مَنْ أنكر! وبهذه النعمة يخرج الله من الظلمات إلى النور، وهكذا تتوالى الرحمة وتتعاظم المثوبة! فصلاة الله على المؤمن هي الرحمة، وصلاة الملائكة هي الاستغفار، والمؤمن دائماً يذكر الله تعالى في قلبه وعمله وحاله، وكأنَّ المراد بالذكر هنا أن تكون للمؤمن سُبْحَةٌ، أي: وردُّ يواظب عليه في الأوقات التي أشار إليها القرآن في الصباح والمساء وأطراف النهار وآناء الليل. قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(١).

وكذلك يصلح لهم أعمالهم بشرط القول السديد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١]. القول السديد أي: الصواب غير المائل عن الحق، يقال: سدّد السهم نحو الرمية: إذا لم يعدل به عن الهدف، والقول السديد يدخل في معنى التقوى، خصّه بالذكر؛ لأهميته وخطورته في حياة الإنسان، فالكلمة مفتاح الأعمال، بما تكون صالحة أو فاسدة؛ لهذا قال تعالى: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾. فصالح الأعمال وفسادها متعلق باللسان، ابتداءً من النطق بالشهادتين: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وقد ضرب الله تعالى مثلاً للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٦]. قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا»^(٢). وقال رسول

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم من

قيام الليل وغيره، رقم الحديث ٧٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم الحديث ٢٤٠٧. وقال: «هَذَا حَدِيثٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَقَدْ رَوَاهُ عُبَيْرٌ وَاحِدٌ عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَمَنْ يَرْفَعُوهُ».

الله ﷻ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(١).

المبحث الخامس: الأمانة سنة الله التي حمَّلها الخلق المطلب الأول: الأمانة السنة الإلهية المكلف بها الإنسان:

خُتِمَتْ سورة الأحزاب بآية الأمانة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب ٧٢، ٧٣]. أشارت هذه الآية إلى فلسفة عميقة لا يمكن إدراكها بالعقل، ظاهرها أن الإنسان هو الكائن الذي حمّل باختباره الأمانة التي بُئِي عليها التكليف الذي بُئِي عليه المسؤولية والجزاء، ولم يقدر ويفكر الإنسان حين التحمل بالأداء والوفاء، فالتحمل ليس كالأداء؛ ولهذا ضيَّع كثير من الناس الأمانة فظلموا أنفسهم وجعلوا عواقب الأمور، وقد أوفى بعضهم بما فأدأها على وجهها، وأولهم المرسلون والأنبياء والربانيون ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المطلب الثاني: الكون يسبح بحمد ربه:

بَيَّنَتْ آية الأمانة أن السموات والأرض والجبال اخترن الطاعة والتسبيح على الاختيار والتكليف، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١]. وهذه المسألة لا يفقهها الإنسان، فالإيمان بها من جهة الوحي، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٤]. وقد ذُكِرَتْ قصة النملة والهدهد في القرآن، ووردت الآثار بشأن كلام الجماد والحيوان للنبي ﷺ، فالمسألة ليست غريبة على المؤمنين؛ لإمكانها العقلي، ووقوعها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم الحديث ٦٤٧٨.

السمعي. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بِقَرَّةٍ تَكَلَّمُ، فَقَالَ: فَإِنِّي أَوْمِئُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا تَمَّ، وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي عَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذَّنْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ فَطَلَبَ حَتَّى كَانَهُ اسْتَقْدَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذَّنْبُ هَذَا: اسْتَقْدْتَهَا مِنِّي فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبْعِ يَوْمَ لَهَا غَيْرِي، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ذَنْبٌ يَتَكَلَّمُ قَالَ: فَإِنِّي أَوْمِئُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا تَمَّ»^(١).

المطلب الثالث: نتيجة حفظ الأمانة وإضاعتهما:

بيّن القرآن بعد الكلام عن الأمانة النتيجة المترتبة على حفظها أو إضاعتهما، قال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٣]. هذه اللام تسمى لام العاقبة، أي: حمل الإنسان الأمانة؛ لتكون عاقبته العذاب بإضاعتهما، أو التقصير فيتوب الله عليه ويغفر له. وخصّ النساء بالذكر من المنافقات والمشركات والمؤمنات؛ للتأكيد على أنّ النساء كالرجال في حمل الأمانة والمسؤولية عنها^(٢). ولما قال تعالى عن الإنسان: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا». قابل هاتين الصفتين بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا». فكل ذنب ما دون الشرك فمعلق بمشيئة الله تعالى، فأما الشرك فقد نصّ على عدم مغفرته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٤٧، ٤٨]. وهذه أرجى آية في القرآن. وهكذا حُتِمَت سورة الأحزاب بوعيد المنافقين والمشركين، كما بدأت بالأمر بعدم طاعتهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء صلوات الله عليهم، باب، رقم

الحديث ٣٤٧١.

(٢) وعلل ابن عاشور ذلك بأنه كان للنساء شأن في حوادث غزوة الخندق من إعانة لرجلهن على كيد المسلمين، وبالعكس ذلك حال نساء المسلمين. انظر: محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر بتونس، د/ط، د/ت. ١٣٢/٢٢.

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة تتبين أهمية الدراسة في البحث عن السنن الإلهية في القرآن، ذلك أنَّها قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل كما ذكر القرآن، ولم نجد ما يعارضها في الواقع على مدى العصور، ولن يكون؛ لأنَّ المخبر عنها وحي لا ينطق عن الهوى، فتميّزت بالصدق والثبات والاحتجاج! وفي هذه الخاتمة أثبت أبرز السنن الإلهية الواردة في البحث بحسب الترتيب المتقدم:

أولاً: التزقي في الكمالات لا يتناهى، وشهود النبي ﷺ بسنته وسيرته على أمته لا ينقطع، ولم يكن النبي ﷺ أباً لأحد، إنما كان ولياً على المؤمنين جميعاً، وهو الأسوة الحسنة لأئمة؛ بل للناس أجمعين، على جميع المستويات الفردية والاجتماعية والمؤسسية، ومن آذى الله ورسوله والمؤمنين فقد آذن الله تعالى بالحرب، ولا شك أنَّه مهزوم مطرود.

ثانياً: مصطلح أهل البيت يعني الرجل ونساؤه وذريته، فنساء النبي ﷺ من أهل البيت بالمصاهرة، وقد ثبت بنص القرآن، وأهل الكساء من أهل البيت بالنسب، وسلمان الفارسي من أهل البيت بالولاء، وقد ثبتا بنص السنة، وقد وسَّع الفقهاء مصطلح أهل البيت حتى شمل قرابته من بني هاشم، وأهل بيت النبوة ليس كغيرهم إن اتقوا! وكذلك إن أخطأوا فخطؤهم ليس كخطأ غيرهم، وقد أراد الله تعالى لهم بما كلَّفهم أن يذهب عنهم الرجس ويبطهرهم تطهيراً يليق بأن يكونوا أسوة حسنة للناس، فالتشريف على قدر التكليف، وقد أخبر النبي ﷺ بالتلازم بين القرآن وأهل بيته عترته، ولأجل ذلك أراد الله تعالى أن يذهب عنهم الرجس ويبطهرهم تطهيراً، فمن اتقى منهم وأدى الأمانة نال مرتبة الشرف الأولى، ومن ضيَّع الأمانة فأمره إلى الله إن شاء أحقه بأهله وإن شاء عدَّبه، ذلك أنَّ شرف الانتساب إلى بيت النبوة لا يغني عن شرف القرب من الله ورسوله بالأعمال الصالحة.

ثالثاً: سنن المنافقين كثيرة، المذكور منها في سورة الأحزاب: التشكيك في الثواب والمحكمات من الدين، وإشاعة الأراجيف والأكاذيب وإثارة الفتن بين المؤمنين، والفرار من مواجهة المخاطر الذي تصيب المؤمنين، ومن سننهم

أيضاً: التعويق والشح والخوف وسلاطة اللسان. فالنفاق داء عضال يفتك بالأمة، وخطورته على المنافق نفسه أعظم، حيث يحبط عمله ويكون في الدرك الأسفل من النار، إن كان نفاق اعتقاد لا نفاق عمل، وسنة الله في المنافقين فيما ذكرته سورة الأحزاب، إن لم ينتهوا عن الأذى؛ الطرد من رحمة الله، وأن يسلط عليهم مَنْ يسومهم العذاب، ويبغضهم إلى الناس، فلا يجالسوهم ولا يتعاملون معهم، وتكون نهاياتهم وخيمة، تلك سنة الله فيهم، ولا يمكن لأحد أن يبدل سنة الله أو يغيرها كما عقب القرآن بعد الكلام عن سننهم وسنة الله فيهم.

رابعاً: من سنن الله في المؤمنين الابتلاءات؛ ليمحص الخبيث من الطيب، وإصلاح أعمالهم وتسديد أقوالهم، وصلاة الله عليهم بالرحمة والمغفرة، وصلاة الملائكة بالاستغفار. فإن صدقوا في إيمانهم واتباعهم في التأسى بالنبي ﷺ وثباتهم على الحق نصرهم نصرًا عظيمًا.

خامساً: الأمانة سنة الله في التكليف التي حمّلها الخلق أجمعين، فمن أداها أفلح، ومن ضيّعها خسر.

التوصيات:

أولاً: الاهتمام بدراسة السنن الإلهية في القرآن دراسة عميقة، وربطها بالواقع الذي نعيشه، حتى تتحول تلك السنن إلى برنامج عملي تطبيقي في حياتنا.

ثانياً: أوصي الباحثين الذين جمعوا بين التخصص العلمي الدقيق وعلوم القرآن أن يبحثوا السنن الإلهية المتعلقة بالكونيات على وجه الخصوص، فذلك يقدم أدلة علمية على أن القرآن وحي من عند الله تعالى، وليس إبداعاً بشرياً.

مصادر البحث^(١)

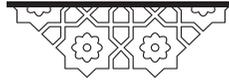
- القرآن الكريم
- الأمدي (سيف الدين علي بن أبي علي ت: ٦٣١هـ)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي بيروت.
- البخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير بيروت، ط/١٩٨٧م.
- بكار الحاج جاسم، سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم «دراسة تأصيلية تطبيقية»، دار النوادر بدمشق، ط ١/٢٠١٢م
- البيضاوي (ناصر الدين عبد الله بن عمر ت ٦٩١هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، د/ط/ د/ت.
- الترمذي (محمد بن عيسى أبو عيسى ت ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، مصطفى الباوي الحلبي بالقاهرة، ط ٢/١٩٧٥م
- الحاكم (أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله ت: ٤٠٥هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق مصطفی عبد القادر عطا، دار الکتب العلمیة بیروت، ط ١/١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- ابن حجر (أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الکتب العلمیة بیروت: ط ١: ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ابن حنبل (أحمد بن حنبل: ت ٢٤١ هـ)، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون: إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي: مؤسسة الرسالة: ط ١/١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- أبو داود (سليمان بن الأشعث: ت ٢٧٥ هـ)، سنن أبي داود، تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، د/ط، د/ت.
- الرازي (محمد بن عمر أبو عبد الله ت ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، دار الفكر بيروت، د/ط، د/ت.

(١) ترتيب المصادر أجمدي، بغض النظر عن آل التعريف، وابن، وأبو.

- (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٢٨ هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق محمد عبد السلام شاهين: دار الكتب العلمية بيروت: ط ١: ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.
- مسلم بن الحجاج (ت ٢١٦ هـ)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، د/ط، د/ت.
- الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق بيروت، ط ١/١٤١٢ هـ.
- الطبري (محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر بيروت، ١٩٨٤ م.
- العيني أبو محمد محمود بن أحمد بدر الدين (ت: ٨٥٥ هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- الفيروزآبادي (محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧ هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ولجنة إحياء التراث الإسلامي بالقاهرة.
- القسطلاني (أحمد بن محمد شهاب الدين (ت: ٩٢٣ هـ)، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المكتبة التوفيقية بالقاهرة.
- محمد أبو شهبه، الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، عالم المعرفة بجدة، ١٤١٣ هـ / ١٩٨٣ م.
- محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر بتونس، د/ط، د/ت.
- ابن منظور (محمد بن مكرم ت: ٧١١ هـ)، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط ٣/١٤١٤ هـ.
- الهيثمي (أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي بالقاهرة، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.
- وهبه الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر بدمشق: ط ٤.

تحليل شبه الجملة المتقدمة في القرآن الكريم، وبيان أثرها على المعنى التفسيري «دراسة تطبيقية على سورة النبأ»

الدكتور بسام رضوان عليان*



ملخص البحث.

هذا البحث بعنوان: «تحليل شبه الجملة المتقدمة في القرآن الكريم، وبيان أثرها على المعنى التفسيري دراسة تطبيقية على سورة النبأ»، حيث يهدف هذا البحث إلى تحليل شبه الجملة المتقدمة في سورة النبأ، وبيان أثره على المعنى التفسيري، وذلك من خلال تعريف التقديم لغة واصطلاحاً وبيان معناه البلاغي، وتعريف شبه الجملة المتقدمة وأنواعها، ثم الدراسة التطبيقية على ذلك متمثلة بسورة النبأ. يهدف هذا البحث إلى:

١- بيان أهمية علم الإعراب والبلاغة في تفسير كتاب الله تعالى، والعلاقة الوثيقة بينها.

٢- بيان أثر تحديد شبه الجملة المتقدمة في سورة النبأ وتحليلها على المعنى التفسيري.

وترجع أهمية البحث إلى أن هذا الموضوع جدير بالدراسة؛ لما له من أثر عظيم في فهم كتاب الله. وقد اعتمد الباحث في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على البحث والتدبر والتحليل في آيات سورة النبأ.

الكلمات المفتاحية: (تحليل - شبه الجملة - المتقدمة - القرآن - المعنى التفسيري).

Abstract

This research is titled: "Analysis of the semi-sentence developed in the Noble Qur'an and its effect on the interpretive meaning An applied study on Surat al-Naba". Its rhetorical meaning, the definition of the advanced semi-sentence and its types, then the applied study on that represented by Surat Al-Naba. <

This research aims to:

1-Explain the importance of the science of expression and rhetoric in the interpretation of the Book of God Almighty, and the close relationship between them.

2-Explain the effect of defining the semi-sentence mentioned in Surat Al-Naba 'and analyzing it on the interpretive meaning.

The importance of the research is due to: This topic is worthy of study because it has a great impact on understanding the Book of God.

In this research the researcher relied on the inductive analytical approach based on research, reflection and analysis on the verses of Surat Al-Naba. <

Key words: (analysis - semi-sentence - advanced - Quran - interpretive meaning).

* أستاذ التفسير المساعد، كلية الدعوة الإسلامية- غزة، تاريخ استلام البحث ٣٠/٨/٢٠٢٠م، وتاريخ قبوله

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وأصحابه والتابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الاهتمام بعلوم القرآن، من أجل العلوم وأرفعها؛ لما في تعلمها والجد في تحصيلها من نزول البركات والرحمات في الدنيا، ومن الثواب العظيم في الآخرة. ويعد علم النحو والبلاغة من ضمن العلوم التي تتعلق بالقرآن الكريم، وهما من أجلى علوم الكتاب الحكيم؛ لأنه يستعان بهما على فهم القرآن الكريم وتفسيره، والغوص في درره وكنوزه.

لذا قمت بفضل الله تعالى باختيار موضوع يتعلّق بالإعراب والبلاغة: «تحليل شبه الجملة المتقدمة في القرآن الكريم، وبيان أثرها على المعنى التفسيري دراسة تطبيقية على سورة النبأ» والكتابة فيه.

أسباب اختيار البحث:

- ١- خدمة كتاب الله تعالى من خلال هذا البحث.
- ٢- هذا الموضوع جدير بالدراسة؛ لما له أثر عظيم في فهم كتاب الله.
- ٣- جدة هذا الموضوع، إذ لا يوجد- فيما أعلم- من أفردته بالتصنيف، غير كلام مبثوث في كتب التفسير والإعراب والبلاغة.

أهداف البحث:

- ١- نيل الأجر والثواب من الله تعالى من خلال خدمة كتابه الكريم، والبحث فيه.
- ٢- بيان أهمية علم الإعراب والبلاغة في تفسير كتاب الله تعالى، والعلاقة الوثيقة بينها.
- ٣- بيان أثر تحديد شبه الجملة المتقدمة في سورة النبأ وتحليلها على المعنى التفسيري.

الدراسات السابقة:

لم أعتز على بحث محكم تناول موضوع هذه الدراسة، وهي تحليل شبه الجملة المتقدمة في القرآن الكريم، وبيان أثرها على المعنى التفسيري دراسة تطبيقية على سورة النبأ.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في السؤال الرئيس الآتي:
ما أثر تحليل شبه الجملة المتقدمة في القرآن الكريم في سورة النبأ على المعنى التفسيري؟

أسئلة البحث:

يتفرع عن السؤال الرئيس السابق هذه الأسئلة الفرعية:

س: ما تعريف التقديم لغة واصطلاحًا؟

س: ما البلاغة المعنوية للتقديم؟

س: ما تعريف شبه الجملة؟

س: ما أثر تحليل شبه الجملة المتقدمة في القرآن الكريم في سورة النبأ على المعنى التفسيري؟

منهج البحث:

اعتمد الباحث في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على البحث والتدبر والتحليل في آيات سورة النبأ.

خطوات الباحث في البحث تقوم على النحو الآتي:

- ١- ذكر الآية التي فيها شبه الجملة المتقدمة في سورة النبأ.
- ٢- التزام رواية حفص عن عاصم عند إيراد الآيات القرآنية مدار البحث.
- ٣- عزو الآيات إلى مواضعها من المصحف الشريف، مع ضبط الآية بالشكل، وذكر رقم الآية، واسم السورة، حسب المثبت في المصحف المطبوع في (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف).

٤- استقراء شبه الجملة وتحليلها وبيان إعرابها، وذلك بالرجوع إلى كتب إعراب القرآن الكريم.

٥- بيان الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية بناء على التحليل الإعرابي، وذلك بالرجوع إلى كتب التفسير.

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة، ومبحثين، وخاتمة على النحو الآتي:
المقدمة: وتشتمل على أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث، وأسئلة البحث، ومنهج البحث، وخطة البحث.

المبحث الأول: التقديم وبلاغته المعنوية.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، والتوصيات.

المبحث الأول: التقديم وبلاغته المعنوية

المطلب الأول: تعريف التفسير التحليلي.

التفسير التحليلي مركب من كلمتين: التفسير، والتحليلي.

التفسير في اللغة:

«الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه. من ذلك الفسر، يقال: فَسَّرْتُ الشَّيْءَ وَفَسَّرْتُهُ. وَالْفَسْرُ وَالتَّفْسِيرُ: نَظَرُ الطَّيِّبِ إِلَى الْمَاءِ وَحُكْمُهُ فِيهِ»^(١).

والتفسير «كشف المراد عن اللَّفْظِ الْمَشْكَلِ»^(٢).

التفسير في الاصطلاح:

«علم يعرف به فهم كتاب الله، المنزل على نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»^(٣).

التحليلي في اللغة:

التحليل: مصدر حَلَّلَ. وحلَّل العُقْدَةَ حَلَّلَهَا وَالشَّيْءَ رَجَعَهُ إِلَى عُنَاصِرِهِ، يُقَالُ: حَلَّلَ الدَّمَّ وحلَّل البَوْلَ، وَيُقَالُ: حَلَّلَ نَفْسِيَةَ فَلَانٍ دَرَسَهَا؛ لكشف خباياها^(٤).

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ، بَابُ الْفَاءِ وَالسِّينِ وَمَا يُتْلَىهُمَا، مادة فسر (٥٠٤/٤).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ، فصل الفاء، مادة فسر (٥٥/٥).

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه (ثم صَوَّرَتْهُ دار المعرفة، بيروت، لبنان)، ط ١، ١٣٧٦ هـ (١٣/١).

(٤) انظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، باب الحاء، مادة حلل (١/١٩٤).

التحليلي في الاصطلاح:

التحليل هو: «عملية تقسيم الكلّ إلى أجزائه وردّ الشّيء إلى عناصره... وتحليل الجملة: بيان أجزائها ووظيفة كلّ منها»^(١).

أما التفسير التحليلي فهو: «بيان الآيات القرآنية بياناً مستفيضاً من جميع نواحيها، بحيث يسير المفسر في هذا البيان مع آيات السورة آية آية، شارحاً مفرداتها، وموجّهاً إعرابها، وموضحاً معاني جملها، وما تهدف إليه تراكيبها من أسرار وأحكام، ومبيّناً أوجه المناسبات بين الآيات والسور، مستعيناً في ذلك بالآيات القرآنية الأخرى ذات الصلة، وبأسباب النزول، وبالأحاديث النبوية، وبما صح عن الصحابة والتابعين، وبغير ذلك من العلوم التي تعينه على فهم النص القرآني وتوضيحه للقراء، مازجاً ذلك بما يستنبطه عقله، وتلميه عليه نزعته»^(٢). ومن أمثله: تفسير الطبري، وابن عطية، والزمخشري، والآلوسي، والشوكاني، وغيرهم.

المطلب الثاني: تعريف شبه الجملة وأقسامها:

أولاً: تعريف شبه الجملة:

تطلق هذه التسمية على الظرف بنوعيه الزماني والمكاني، وعلى الجار والمجرور لسببين:

١ - أنّ الظرف والجار والمجرور ينوبان عن الجملة وينتقل إليهما ضمير متعلقيهما، نحو: الكتاب على الطاولة، أو الكتاب عندك.

فالجار والمجرور والظرف ينوبان هنا عن الخبر المقدّر الذي هو الجملة الفعلية (استقر).

وهذا يعني أنّهما شبيهان بالجملة في مثل هذا الموضع، كما أنّ الضمير المستتر في الفعل (استقر) قد انتقل مضمراً في الظرف والجار والمجرور.

(١) عمر، د. أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٩هـ، مادة حلل (١/٥٥٠)، المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، باب الحاء، مادة حلل (١/١٩٤).

(٢) مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٤٢٣ هـ، ص ٢٧٨.

٢ - أن الظرف والجار والمجرور سواء أكانا تامين أم غير تامين لا يؤديان معنى مستقلاً في الكلام، وإنما يؤديان معنى فرعياً؛ فكأنهما جملة ناقصة أو شبه جملة^(١).

ثانياً: أقسام شبه الجملة:

وشبه الجملة تنقسم إلى قسمين، هما:

١- الجار والمجرور، نحو: ذهب الطالب إلى الجامعة. ونحو: صلى زيد في المسجد.

٢- الظرف بنوعيه الزماني والمكاني، نحو: ذهب الطالب إلى الرحلة يوم الخميس. ونحو: وقف زيد أمام البيت.

تعريف الجار والمجرور:

حروف الجر تلك التي تقوم بربط الأسماء بالأسماء، نحو: الطالب في الكلية، أو ربط الأسماء بالأفعال، نحو: جئت إلى الكلية^(٢).

وسميت حروف الجر بهذا الاسم؛ لأنها تجرُّ معنى الفعل قبلها إلى الاسم بعدها، أو لأنها تجرُّ ما بعدها من الأسماء، أي تحفضه. وتسمى «حروف الحفض» أيضاً، لذلك. وتسمى أيضاً «حروف الإضافة»؛ لأنها تضيف معاني الأفعال قبلها إلى الأسماء بعدها. وذلك أن من الأفعال ما لا يقوى على الوصول إلى المفعول به، فقوّوه بهذه الحروف، نحو: عجبْتُ من خالدٍ، ومررتُ بسعيدٍ. ولو قلت: عجبْتُ خالدًا. ومررتُ سعيدًا، لم يجز؛ لضعف الفعل اللازم وقصوره عن الوصول إلى المفعول به، إلا أن يستعين بحروف الإضافة^(٣).

عدد حروف الجر:

حروف الجر عشرون حرفاً؛ هي:

(١) انظر: دكتور، د. نديم حسين، القواعد التطبيقية في اللغة العربية، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٩٨ م، ص ٤٢.

(٢) انظر: عيد، محمد، النحو المصنف، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٥٣١.

(٣) انظر: الغلاييني، مصطفى بن محمد سليم، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط ٢٨، ١٤١٤ هـ (١٦٨ / ٣).

من - إلى - حتى - خلا - عدا - حاشا - في - عن - على - مذ - منذ - رب - اللام - كي - الواو - التاء - الكاف - الباء - لعل - متى^(١).

أقسام هذه الحروف من ناحية الاسم الذي تجره:

تنقسم هذه الحروف من ناحية الاسم الذي تجره إلى قسمين، هما:

١- قسم لا يجر إلا الأسماء الظاهرة، وهو: عشرة حروف، هي: مُذ - مُنذ - حتى - الكاف - الواو - رب - التاء - كي - لعل - متى. نحو: قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

تالله: التاء: حرف جر وقسم مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، الله: لفظ الجلالة اسم مجرور بحرف الجر وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره (أقسم)^(٢).

٢- قسم يجر الأسماء الظاهرة ويجر الضمائر المتصلة؛ وهو: العشرة الأخرى، وهي: من - إلى - خلا - عدا - حاشا - في - عن - على - اللام - الباء^(٣).

فالأسماء الظاهرة؛ نحو: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

بيدر: الباء: حرف جر مبني على الكسر لا محل له من الإعراب، بدر: اسم مجرور بحرف الجر وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (نصر)^(٤).

(١) انظر: ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، ط ٢٠، ١٤٠٠ هـ (٣/٣).

(٢) انظر: محمود بن عبد الرحيم، صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط ٤، ١٤١٨ هـ (٤٢/١٧).

(٣) انظر: حسن، عباس، النحو الوافي، دار المعارف، ط ١٥ (٢/٤٣٣، ٤٣٤).

(٤) انظر: محمود بن عبد الرحيم، صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم (٤/٢٩٨).

والضمائر المتصلة؛ نحو: قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

بها: الباء: حرف جر مبني على الكسر لا محل له من الإعراب، والهاء ضمير متصل مبني على الفتح في محل جر بحرف الجر، والألف للتأنيث حرف مبني على السكون لا محل له من الإعراب، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (يشرب)^(١).

تعريف الظرف بنوعيه الزماني والمكاني^(٢):

١- ظرف الزمان: وهو اسم منصوبٌ يُدْكَرُ لبيان زمن وقوع الفعل. نحو: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤]. حيث إن كلمة (يوم) ظرف زمان تتضمن معنى (في)، أي: في يوم القيامة. يوم: ظرف زمان منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره، وهو مضاف.

القيامة: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره، والظرف والمضاف إليه متعلقان بالفعل (يكلم)^(٣).

٢- ظرف المكان: هو اسم منصوبٌ يُدْكَرُ لبيان مكان وقوع الفعل. نحو: قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. فوق: ظرف مكان منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره، وهو مضاف.

الأعناق: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره، والظرف والمضاف إليه متعلقان بالفعل (اضربوا)^(٤).

(١) انظر: محمود بن عبد الرحيم، صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم (١٨٤/٢٩).
(٢) انظر: ابن هشام، شرح شنذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، ص ٢٩٩، والنحو الوافي (٤٤٣/٢).
(٣) انظر: محمود بن عبد الرحيم، صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم (٣٤٦/٢).
(٤) انظر: العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه (٦١٩/٢).

المطلب الثالث: تعريف التقديم لغة واصطلاحًا:

التقديم لغة: نقيض التأخير^(١)، وهو كَوْنُ الشَّيْءِ أَوْلًا^(٢).

التقديم اصطلاحًا: «تقديم أمر كان مؤخرًا مع بقاء اسمه ورسمه الذي كان قبل التقديم؛ كتقديم الخبر على المبتدأ وتقديم المفعول على الفعل، ونحو ذلك مما يبقى له مع التقديم اسمه ورسمه السابق»^(٣).

أو هو: «التغيير في الترتيب الطبيعي لأجزاء الجملة؛ لغرض بلاغي؛ كزيادة الاهتمام، أو القصر، أو التشويق، أو لضرورة شعرية»^(٤).

المطلب الرابع: الأغراض البلاغية للتقديم:

الألفاظ قوالب المعاني، فيجب أن يكون ترتيبها الوضعي بحسب ترتيبها الطبيعي، ومن البين أن رتبة المسند إليه التقديم؛ لأنه المحكوم عليه، ورتبة المسند التأخير، إذ هو المحكوم به، وما عداها فتوابع ومتعلقات تأتي تالية لهما في الرتبة.

ولكن قد يعرض لبعض الكلم من المزايا ما يدعو إلى تقديمه، وإن كان حقه التأخير، فيكون من الحسن تغيير هذا النظام؛ ليكون المقدم مشيرًا إلى الغرض الذي يراد، و مترجمًا عما يقصد به^(٥).

ولا يخلو التقديم من أحوال أربع:

١- ما يفيد زيادة في المعنى مع تحسين في اللفظ، وذلك هو الغاية القصوى، وإليه المرجع في فنون البلاغة، والقرآن الكريم هو العمدة في هذا، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

(١) انظر: الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإيراني، د. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط ١، ١٤٢٠ هـ (٥٤٠٨/٨).
(٢) انظر: نكري، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ (٢٢٧/١).

(٣) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (٢٣٣/١).

(٤) عمر، د. أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة (٧١/١).

(٥) انظر: المراغي، أحمد بن مصطفى، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، ص ١٠٠.

تجد أن تقديم الجار والمجرور (إلى ربها) في هذا المثال قد أفاد التخصيص، وأن النظر لا يكون إلا لله، مع جودة الصياغة وتناسق الفاصلة.

٢- ما يفيد زيادة في المعنى فقط؛ نحو: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الزمر: ٦٦]. فتقديم المفعول به لفظ الجلالة (الله) في هذا المثال؛ لتخصيصه بالعبادة، وأنه ينبغي ألا تكون لغير الله تعالى، ولو أخره لما أفاد الكلام ذلك.

٣- ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير، وليس لهذا الضرب شيء من الحسن والجمال؛ كقول الشاعر:

وكانت يدي ملأى به ثم أصبحت بحمد إلهي وهي منه سليب^(١)

فتقديره: ثم أصبحت وهي منه سليب بحمد إلهي.

٤- ما يختل به المعنى ويضطرب، وذلك هو التعقيد اللفظي؛ كتقديم الصفة على الموصوف، والصلة على الموصول، أو نحو ذلك من الأنواع التي خرجت عن الفصاحة، ومنها قول الفرزدق:

إلى ملكٍ ما أمُّه من محاربٍ أبوه ولا كانت كليبٌ تصاهرة^(٢)

فتقديره: إلى ملك أبوه ما أمه من محارب، أي ما أم أبيه منهم، فقدم خبر المبتدأ، وهو جملة.

ولا شك أن هذا لا يفهم من كلامه للنظرة الأولى، بل يحتاج إلى تأمل وتريث ورفق، حتى يفهم المراد منه^(٣).

(١) المراد، التعازي والمرثي والمواعظ والوصايا، تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، مراجعة: محمود سالم، تحفة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص ١٧٣.

(٢) أبو علي، الفارسي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب، تحقيق وشرح: الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط ١، ١٤٠٨هـ، ص ١٠٩.

(٣) انظر: المراغي، أحمد بن مصطفى، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، ص ١٠٠، ١٠١.

وفي كل الأحوال ترجع مزايا التقديم إلى أمرين رئيسيين:

الأمر الأول: ما يفيد زيادةً في المعنى وزيادةً في جمال اللفظ، وهذا غاية ما يعتني به البلغاء في هذا المجال.

الأمر الثاني: ما يفيد زيادةً في أحدهما فقط، ويدخل هذا أيضاً ضمن مقاصد البلغاء.

أما ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير فلا يهتم به البلغاء، وأما ما يختل به المعنى أو يفقد عنصراً من عناصر جمال اللفظ فيتجافون عنه وينفرون منه^(١).

وتتلخص أعراض التقديم في:

١- تخصيص المسند بالمسند إليه، أي: قَصُرُ المسند على المسند إليه، فلا يكون لغيره؛ نحو: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].
ونحو: قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].
والجملتان اسميتان، والأصل فيهما تقديم المسند إليه، وقدم فيهما المسند؛ لإفادة التخصيص بمعنى القصر^(٢).

٢- التنبيه من أوّل الأمر على أنه خبرٌ وليس نعتاً^(٣)؛ لأن النعت لا يتقدم على المنعوت، بخلاف الخبر مع المبتدأ^(٤)؛ نحو: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

(١) انظر: حَبَّكَّة، عبد الرحمن، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ (٣٦٣/١).

(٢) انظر: الكفوي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٢٥٨، الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ص ١٣٦، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، ص ١٠٥، الصعدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط ١٧، ١٤٢٦هـ (١٩٢/١)، حَبَّكَّة، عبد الرحمن، البلاغة العربية (٣٦٣/١).

(٣) انظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ص ١٣٦.

(٤) انظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (١٩٢/١).

جاء في هذه الآية تقديم المسند وهو (لكم) على المسند إليه وهو (مستقر)؛
لئلا يسبق إلى التوهم أن المسند قد سبق على سبيل النعت للمسند إليه، وأن
الخبر لم يأت بعد، مع ما في هذا التقديم من مراعاة داعٍ جمالي في اللفظ،
اقتضته رؤوس الآيات.

ونحو: قول الشاعر:

لَهُ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهَمَّتْهُ الصُّعْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ^(١)

أصل الكلام: «هَمَمٌ لَهُ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا» لكن هذه الصيغة توهم أن «لَهُ»
صفة لهمم؛ لأنّ النكرة تستدعي النعت أكثر مما تستدعي الخبر، وهو يريد
أن يُثبت لممدوحه همماً لا منتهى لكبارها، ودفعاً للتوهم الذي كان يمكن
أن يحدث، قدّم المسند وهو «له» على المسند إليه وهو «هَمَمٌ» لا منتهى
لكبارها»^(٢).

٣- التفاضل بسماع ما يسر المخاطب؛ نحو: قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ
الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٦]. قدم المسند في هذه
الآية على سبيل التفاضل والطمع بكرم الله وفضله. فالمسند، وهو الفعل (يغفر)،
قد قدم على المسند إليه (الله)؛ ليفيد التفاضل بمغفرة الله تعالى.

ونحو: قول الشاعر:

سَعِدَتْ بَعْرَةٌ وَجْهَكَ الْأَيَّامُ وَتَزَيَّنَتْ بِلِقَائِكَ الْأَعْوَامُ^(٣)

قدم المسند في هذا المثل؛ لقصد إسماع المخاطب «من أول الأمر» ما يتفاضل
به، ويغتنب له^(٤).

(١) المراد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي،

القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ (٩٥/٣).

(٢) انظر: حبّكّة، عبد الرحمن، البلاغة العربية (٣٧٩/١).

(٣) جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار

الجيل، بيروت، ط ٣ (١٩٨/٢).

(٤) انظر: عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة (٥٨/٢).

فالمسند، وهو الفعل (سعدت)، قد قدم على المسند إليه (الأيام)؛ ليفيد التفاؤل؛ لأنه من جنس السرور والسعادة، وكذلك الفعل (تزينت)، قدم على المسند إليه (الأعوام)؛ لنفس الغرض^(١).

إن الفعل (سعدت) هنا يجوز تأخيره في تركيب آخر بأن يقال: الأيام سعدت بغرة وجهك على أنه من باب الإخبار بالجملة لا على أن يكون فعلاً فاعله تقدم عليه، فتقديم (سعدت) في هذا التركيب المؤدي إلى كون المسند إليه فاعلاً مع صحة تأخيره باعتبار تركيب آخر لأجل ما ذكر من التفاؤل، بخلاف ما لو آخر (سعدت) بالنظر للتركيب الآخر، فلا يكون فيه تفاؤل؛ لما علمته من معنى التفاؤل^(٢)، وكذلك الكلام بالنسبة للفعل (تزينت).

٤- التشويق للمتأخر (المسند إليه)، إذا كان في المتقدّم (المسند) ما يُشوّق لذكره^(٣).

بمعنى: أن يكون في المسند المتقدم طول يشوق النفس إلى ذكر المسند إليه المتأخر فيكون له وقع في النفس ومحل من القبول^(٤)؛ نحو: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

جاء في هذه الآية تقديم المسند وهو (في خلق السموات) على المسند إليه وهو (لآيات)؛ فتقديم المسند في هذه الآية أفاد التشويق إلى معرفة المسند إليه، والإفصاح عنه.

٥- الاهتمام بشأن المقدم أو الإشعار بالاهتمام به؛ نحو: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

- (١) انظر: مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة ٢ - المعاني، جامعة المدينة العالمية، ص ٣٠١.
- (٢) انظر: الدسوقي، محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت (١٤٩/٢).
- (٣) جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (١٩٧/٢)، الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ص ١٣٦.
- (٤) انظر: الدسوقي، محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (١٤٩/٢).

قوله تعالى: (بِآيَاتِنَا) معمولٌ مقدّمٌ على عامله وهو (يُوقِنُونَ)، وقُدِّمَ؛ للإشعارِ بأهميّة آياتِ الله في حياةِ البشر، وبقِيَمَتِها العظيمة في رحلة امتحانهم، فالإيقانُ بها هو الذي يُصَحِّحُ مسيرتهم ويُقوِّمُ سلوكهم، وليس الغرض حصر الإيقان بها، فأركان الإيمان التي يجب الإيقان بها لا تقتصر على آيات الله. مع ما في تأخير (يُوقِنُونَ) من مراعاة عنصر جماليّ تستدعيه رؤوس الآيات^(١). ونحو: قوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ [الأنبياء: ١].

قوله تعالى: (للناس) جار ومجرور مقدم على الفاعل (حسابهم)؛ للعناية والاهتمام؛ «لأن المقصود الأهم الاقتراب إلى المشركين؛ ليورثهم رهبة وانزعاجاً من أول الأمر»^(٢).

٦- التخلّص مما يُوهم معنى غير مرادٍ في دلالات الكلام، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿وقال رجل مؤمنٌ من آل فرعونَ يكتمُ إيمانه﴾ [غافر: ٢٨].
قوله تعالى: (مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ) نعت لـ (رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ).
وقوله تعالى: (يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) نعت أيضاً لـ (رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ).

وهذان النعتان متكافئان في الرتبة، فليس أحدهما أولى بالتقديم من الآخر، لكن تقديم عبارة (يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) على عبارة (مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ) يوهم أنّ الجار والمجرور في هذه العبارة متعلقان بفعل (يكتم) مع أنّهما متعلقان بمحذوف هو صفة لـ (رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ) تقديره (كائنٌ من آل فرعون)، فرفع تقديمها هذا الإيهام، وجاء البيان سليماً واضحاً^(٣).

إلى غير ذلك من دواعٍ لا تخفى على الدارس المتتبع اللبيب.

(١) انظر: حَبَنَكَة، عبد الرحمن، البلاغة العربية (١/٣٨٥).

(٢) الكفوي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص ٢٥٩.

(٣) انظر: المراغي، أحمد بن مصطفى، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، ص ١٠٨،

حَبَنَكَة، عبد الرحمن، البلاغة العربية (١/٣٩٤).

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية:

بعد استقراء المواضع التي اشتملت على شبه الجملة المتقدمة في سورة النبأ قام الباحث بتحليل هذه المواضع وبيان الأثر التفسيري المترتب عليها، وقد اشتملت سورة النبأ على اثني عشر موضعاً، متمثلة في اثني عشرة مسألة، وهي كما يأتي:

المسألة الأولى: قال الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ: ١].

أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

عم: عن: حرف جر، مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، ما: اسم استفهام، مبني على السكون، في محل جر بحرف الجر، وحذفت الألف رسماً؛ لسقوطها وقتاً، وهي نهاية آية، ويجب حذف ألف (ما) الاستفهامية إذا جرّت بحرف جر، وإبقاء الفتحة دليلاً عليها^(١)، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بالفعل بعدهما (يتساءلون)، أو بمحذوف حال من ضمير الفاعل، تقديره: (مستفهمين أو مستخبرين عن أي شيء).

يتساءلون: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: ضمير متصل، مبني على السكون، في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية: استئنافية، لا محل لها من الإعراب.

ثانياً: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون بالله ورسوله من قريش يا محمد، وقيل ذلك له ﷺ، فقد روي أن قريشاً كانت تختصم وتتجادل في الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ من الإقرار بنبوته، والتصديق بما جاء به من عند الله، والإيمان بالبعث، فقال الله لنبيه ﷺ: عن أي شيء يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون^(٢). أصله عن ما يتساءلون؟ فأدغمت النون في الميم؛ لأن الميم تشترك مع النون

(١) انظر: محمود بن عبد الرحيم، صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم (٢١٤/٣٠).

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ (١٤٩/٢٤).

في الغنة في الأنف، والمعنى عن أي شيء يتساءلون، فاللفظ لفظ استفهام، ومعناه التفخيم والتعظيم^(١)؛ أي: تفخيم شأن ما يتساءلون عنه، كأنه لفخامته خفي جنسه فيسأل عنه^(٢)، وحذفت الألف في الاستفهام؛ للتفريق بينه وبين الخبر^(٣).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (عن)، وأن المجرور جاء اسم استفهام مبنياً على السكون في محل جر بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على متعلقهما (يتساءلون)، وهو فعل مضارع؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص بالذم، فهو ذم خاص لكفار قريش؛ لأنهم يجادلون النبي ﷺ في يوم القيامة. فهذا التقديم أفاد أن الذم محصور ومقصور ومختص بكفار قريش.

المسألة الثانية: قال الله تعالى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبا: ٣].

أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

الذي: اسم موصول، مبني على السكون، في محل جر نعت ثانٍ لـ (النبا)، أو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، تقديره (أعني)، وعليه: فالجملة ابتدائية، لا محل لها من الإعراب، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره (هو)، وعليه: فالجملة ابتدائية، لا محل لها من الإعراب.

هم: ضمير منفصل، مبني على السكون الظاهر على آخره، في محل رفع مبتدأ. فيه: في: حرف جر، مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، والهاء: ضمير متصل، مبني على الكسر، في محل جر بحرف الجر، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بالخبر بعدهما (مختلفون)^(٤).

مختلفون: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو؛ لأنه جمع مذكر سالم،

(١) انظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ (٢٧١/٥).

(٢) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ (٢٧٨/٥).

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ (٤٢٣/٥).

(٤) انظر: السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق (٦٤٨/١٠).

والجملة الاسمية: صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب، وضمير الصلة العائد: الضمير المجرور في (فيه).

ثانياً: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

أي: الذي طال في الخبر العظيم نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب، ولكنَّ المكذابين بلقاء ربحهم لا يؤمنون، ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم^(١). وقد قيل: إن النبأ الذي اختلفوا فيه هو الرسول ﷺ في بعثته لهم. وقيل: هو القرآن الذي أنزل عليه يدعوهم به. وقيل: هو البعث بعد الموت^(٢).

والذي يظهر- والله تعالى أعلم -: أن أظهرها دليلاً هو يوم القيامة والبعث؛ لأنه جاء بعده بدلائل البعث وبراهينه كلها، وعقبها بالنص على يوم الفصل صراحة^(٣).

«اختلافهم في النبأ اختلفهم فيما يصفونه به، كقول بعضهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] وقول بعضهم: هذا كلام مجنون، وقول بعضهم: هذا كذب، وبعضهم: هذا سحر، وهم أيضاً مختلفون في مراتب إنكاره. فمنهم من يقطع بإنكار البعث مثل الذين حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مِمَّزَّقَ مِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧-٨]، ومنهم من يشكون فيه كالذين حكى الله عنهم بقوله: ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]»^(٤).

(١) انظر: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ص ٩٠٦.

(٢) انظر: الماوردي، النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٨٢/٦).

(٣) انظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ (٤٠٦/٨).

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م (١٠/٣٠، ١١).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (في)، وأن المجرور جاء ضميراً متصلاً مبنياً على الكسر في محل جر بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على متعلقهما (مختلفون) وهو خير المبتدأ؛ للاهتمام والعناية بالمجرور (النبأ)، وللإشعار بأن الاختلاف ما كان من حقه أن يتعلق به، مع ما في التقديم من الرعاية على الفاصلة^(١).

المسألة الثالثة: قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].
أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

وبيننا: الواو: حرف عطف، يفيد مطلق الجمع، مبني على الفتح، لا محل له من الإعراب، بيننا: فعل ماضٍ، مبني على السكون الظاهر على الياء؛ لاتصاله بضمير الرفع، ونا العظمة: ضمير متصل، مبني على السكون، في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاستئنافية، لا محل لها من الإعراب.

فوقكم: ظرف مكان منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على القاف، وهو مضاف، والكاف: ضمير متصل، مبني على الضم، في محل جر مضاف إليه، والميم: للجمع المذكر، حرف مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، وشبه الجملة: الظرف والمضاف إليه: متعلقان بالفعل (بيننا)، أو بمحذوف حال من ضمير الفاعل، تقديره (جاعلين أو مُنشئين فوقكم)، أو بمحذوف حال من المفعول به بعدهما، تقديره (سبعاً كائناً فوقكم)، ولو تأخر الظرف والمضاف إليه عن المفعول به؛ لتعلقا بنعت له؛ لكونه نكرة.

سبعاً: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

شداداً: نعت لـ (سبعاً) منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ثانياً: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

أي: وبيننا وأوجدنا بقدرتنا التي لا يعجزها شيء، فوقكم- أيها الناس-

(١) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٨٥/٩)، ابن عاشور، التحرير والتنوير (١١/٣٠).

سبع سموات محكمة قوية الخلق، وثيقة البُيُمان، لا يؤثر فيها مرور الزمان، لا شقوق فيها ولا فروج، ولا فطور^(١).

قال ابن كثير: «يعني: السموات السبع، في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثابت والسيارات»^(٢).

ويلحظ في هذه الآية أن شبه الجملة مكونة من ظرف المكان والمضاف إليه، وأن الظرف هو (فوق)، وأن المضاف إليه جاء ضميراً متصلاً مبنياً على الضم في محل جر، وأن الظرف والمضاف إليه قدما على المفعول به (سبعاً)؛ لإفادة الحصر والقصر وللاهتمام بالناس؛ لينبههم تعالى على قدرته وسلطانه؛ فعرفوا أنه فعال لما يريد، قادر على ما يشاء^(٣)، وأن الله تعالى إنما خلق هذه السموات السبع فوقهم؛ ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها، وينفعهم بأنواع منافعها^(٤). فتقديم الظرف والمضاف إليه على المفعول الصريح؛ للاعتناء بالمقدم وهو الناس، والتشويق إلى المؤخر وهو سبع سموات. يقول أبو السعود: «وتقديمُ الظرفِ على المفعول ليس لمراعاةِ الفواصلِ فقط بل للتشويقِ إليه، فإنَّ ما حُفِّه التقديمُ إذا أُخِّرَ تبقى النفسُ مترقبَةً له، فإذا وردَ عليها تمكَّنَ عندها فضلُ تمكَّنٍ»^(٥).

المسألة الرابعة: قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَّاجًا﴾ [النبا: ١٤].

أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

وأنزلنا: الواو: حرف عطف، يفيد مطلق الجمع، مبني على الفتح، لا محل

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠ هـ (١٠/٣١)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤ هـ (١٧٢/١٩).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ (٣٠٣/٨).

(٣) انظر: أبو منصور، الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٦ هـ (٣٩٢/١٠).

(٤) انظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ هـ (١٧٩/٣).

(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨٧/٩).

له من الإعراب، أنزلنا: فعل ماضٍ، مبني على السكون الظاهر على اللام؛ لاتصاله بضمير الفاعل، ونا العظمة: ضمير متصل، مبني على السكون، في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاستئنافية، لا محل لها من الإعراب.

من: حرف جر، مبني على السكون، وحرك بالفتح؛ لالتقاء الساكنين، لا محل له من الإعراب.

المعصرات: اسم مجرور بحرف الجر، وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بالفعل (أنزلنا)، أو بمحذوف حال من ضمير الفاعل، تقديره (رازقين أو باعئين من المعصرات) أو بمحذوف حال من المفعول به بعدهما، تقديره (ماءً مرزوقاً أو مبعوثاً من المعصرات)، ولو تأخر الجار والمجرور عن المفعول به، لتعلقا بنعت له؛ لكونه نكرة.

ماء: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ثجاجاً: نعت ل (ماء) منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ثانياً: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

أي: وأنزلنا من السحب والغيوم التي تنعصر بالماء ولم تُمطر بعد مطراً منصباً بكثرة ومتدفقاً بقوة، كثير ومتتابع السيلان^(١).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (من)، وأن المجرور جاء اسماً ظاهراً مجروراً بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على المفعول به (ماء)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص، بمعنى: وأنزلنا من السحاب لا من غيرها ماءً غزيراً.

المسألة الخامسة: قال الله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [النبأ: ١٥].

أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

لنخرج: اللام: لام التعليل، حرف مبني على الكسر، لا محل له من الإعراب، نخرج: فعل مضارع منصوب بأن المصدرية المضمره بعد لام التعليل،

(١) انظر: الزحيلي، د. وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢، ١٤١٨ هـ (١١/٣٠).

وعلامه نصبه الفتحة الظاهرة على آخره، والفاعل: ضمير مستتر وجوباً، تقديره (نحن)، عائد على الله تعالى المعظم نفسه، والجملة الفعلية: صلة الموصول الحرفي، لا محل لها من الإعراب، والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل بعدها (إخراج) في محل جر بحرف الجر، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بالفعل (أنزلنا)، أو بمحذوف حال من ضمير الفاعل، تقديره (أنزلنا ماءً مريدين لإخراج...).

به: الباء: حرف جر، يفيد السببية، مبني على الكسر، لا محل له من الإعراب، والهاء: ضمير متصل، مبني على الكسر، في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (نخرج)، أو بمحذوف حال من ضمير الفاعل، تقديره (مُنْبِتِينَ به) أو بمحذوف حال من المفعول به بعدهما، تقديره (حبًا نباتًا به)، ولو تأخر الجار والمجرور عن المفعول به، لتعلقا بنعت له؛ لكونه نكرة.

حبًا: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ونباتًا: الواو حرف عطف يفيد مطلق الجمع مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، نباتًا: اسم معطوف على (حبًا) منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ثانيًا: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

أي: لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك الذي نزله من المعصرات إلى الأرض حبًا كالبر والشعير يُدَّخَرُ للناس والأَنْعَامِ، وَنَبَاتًا: أي: الكلاء الذي يُرْعَى، من الحشيش والزروع^(١).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (الباء)، وأن المجرور جاء ضميرًا متصلًا مبنيًا على الكسر في محل جر بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على المفعول به (حبًا)؛ لإفادة العناية والاهتمام، فكأنه يقول بهذا الماء لا بغيره يخرج الله الحبَّ والنبات^(٢).

(١) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن (١٥٦/٢٤)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٤/٨).

(٢) انظر: الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة

المسألة السادسة: قال الله تعالى: ﴿لِلطَّاغِينِ مَأْبَأٌ﴾ [النبأ: ٢٢].

أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

للطاغين: اللام: حرف جر، مبني على الكسر، لا محل له من الإعراب، الطاغين: اسم مجرور بحرف الجر، وعلامة جره الياء؛ لأنه جمع مذكر سالم، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بـ (مئبأً) بعدهما^(١).

مئبأً: بدل من خبر كان (مرصداً)، أو خبر ثانٍ لكان، منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره^(٢).

ثانياً: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

إن جهنم مأب ومرجع ومنقلب ومصير ونزل للطاغين المكذبين، الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر^(٣)، فهو وصف لمصير الكفار في ذلك اليوم الذين وصفوا بالطاغين؛ للتدليل على كفرهم وبغيهم: فقد أعدت جهنم لتكون مأوى لهم ومرصدهم المنتظر^(٤).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (اللام)، وأن المجرور جاء اسماً ظاهراً مجروراً بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على متعلقهما (مئبأً)، وهو بدل من خبر كان (مرصداً)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص المذموم.

أي: إن جهنم كانت للمتجاوزين الحد في الظلم والطغيان، هي المكان المهيأ لهم لا لغيرهم، والذي لا يستطيعون الهرب منه، بل هي مرجعهم الوحيد الذي يرجعون إليه^(٥).

(١٤١٨/١٦).

- (١) انظر: السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٦٥٤/١٠).
- (٢) انظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ (٢١٤/١٥).
- (٣) انظر: الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن (١٤٢٠/١٦).
- (٤) انظر: دروزة، محمد عزت، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٣ هـ (٤٠٦/٥).
- (٥) انظر: طنطاوي، د. محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط ١ - ١٩٩٧ م، ١٩٩٨ م (٢٥٥/١٥).

المسألة السابعة: قال الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبا: ٢٤].

أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

لا: حرف نفي مهمل - إعراباً لا معنى-، مبني على السكون، لا محل له من الإعراب.

يذوقون: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: ضمير متصل، مبني على السكون، في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية: استئنافية، بيانية، لا محل لها من الإعراب.

فيها: في: حرف جر، مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، والهاء: ضمير متصل، مبني على الفتح، في محل جر بحرف الجر، والألف: للتأنيث، حرف مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بالفعل (يذوقون)، أو بمحذوف حال من ضمير الفاعل، تقديره (شاعرين أو طاعمين فيها) أو بمحذوف حال من المفعول به بعدهما، تقديره (بردًا محسوسًا أو موجودًا فيها)، ولو تأخر الجار والمجرور عن المفعول به، لتعلقا بنعت له؛ لكونه نكرة.

بردًا: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ولا شرابًا: الواو حرف عطف يفيد مطلق الجمع مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، لا: حرف نفي مهمل - إعراباً لا معنى- مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، شرابًا: اسم معطوف على (بردًا) منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ثانيًا: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

أي: لا يجدون في جهنم بردًا لقلوبهم، ولا شرابًا طيبًا يتغذون به، ويغنيهم عن العطش على حال من الأحوال^(١).

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٧/٨)، البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (٢٠٥/٢١).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (في)، وأن المجرور جاء ضميراً متصلاً مبنياً على الفتح في محل جر بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على المفعول به (برداً)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص، وكأنه أشار بتقديمه إلى أنهم يذوقون في دار أخرى الزمهير^(١).

المسألة الثامنة: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبا: ٣١].

أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

إن: حرف توكيد ونصب ونسخ، مبني على الفتح، لا محل له من الإعراب. للمتقين: اللام: حرف جر، مبني على الكسر، لا محل له من الإعراب، المتقين: اسم مجرور بحرف الجر، وعلامة جره الياء؛ لأنه جمع مذكر سالم، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر إنّ مقدّم، تقديره (إنّ مَفَازًا كائناً للمتقين).

مَفَازًا: اسم إنّ مؤخر منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره، وجملة إنّ ومعموليها: ابتدائية، تقريرية، لا محل لها من الإعراب.

ثانياً: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

أي: للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضي ربهم، وعملوا بأوامره، واجتنبوا نواهيه، فوزاً: أي نجاة من العذاب والهلاك، وقيل: فوزاً بما طلبوه من نعيم الجنة، ويحتمل أن يفسر الفوز بالأمرين جميعاً؛ لأنهم فازوا بمعنى نجوا من العذاب والهلاك، وفازوا بما حصل لهم من النعيم^(٢).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (اللام)، وأن المجرور جاء اسماً ظاهراً مجروراً بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على اسم إن (مَفَازًا)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص المحمود، وللاهتمام بالمتقين تنويهاً بهم^(٣).

(١) انظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠٥/٢١).

(٢) انظر: الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ (٣٨٨/٤).

(٣) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨٥/٩)، ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٤/٣٠).

المسألة التاسعة: قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ [النبأ: ٣٥].

أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

لا: حرف نفي مهمل - إعراباً لا معني - مبني على السكون، لا محل له من الإعراب.

يسمعون: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: ضمير متصل، مبني على السكون، في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية: استئنافية، بيانية، لا محل لها من الإعراب.

فيها: في: حرف جر، مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، والهاء: ضمير متصل، مبني على الفتح، في محل جر بحرف الجر، والألف: للتأنيث، حرف مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بالفعل (يسمعون)، أو بمحذوف حال من ضمير الفاعل، تقديره (واجدين أو حاسين فيها) أو بمحذوف حال من المفعول به بعدهما، تقديره (لغوًا محسوسًا أو موجودًا فيها)، ولو تأخر الجار والمجرور عن المفعول به، لتعلقا بنعت له؛ لكونه نكرة.

لغوًا: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ولا كذابًا: الواو حرف عطف يفيد مطلق الجمع مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، لا: حرف نفي مهمل - إعراباً لا معني - مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، كذابًا: اسم معطوف على (لغوًا) منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ثانياً: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

الضمير في قوله: (فيها) إما يعود على الكأس، أي لا يجري بينهم لغو في الكأس التي يشربونها، وذلك لأن أهل الشراب في الدنيا يتكلمون بالباطل، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو، وإما الضمير يعود إلى

الجنة، أي لا يسمعون في الجنة شيئاً يكرهونه^(١).

وفي اللغو ها هنا أربعة أقوال: أحدها الباطل. الثاني: الحلف عند شربها. الثالث: الشتم. الرابع: المعصية. وفي (كِدَابًا) ثلاثة أقوال: أحدها: لا يكذب بعضهم بعضًا. الثاني: أنه الخصومة. الثالث: أنه المأثم^(٢).

والمعنى أن هؤلاء المتقين لا يجري بينهم حين يشربون لغو الكلام، ولا يكذب بعضهم بعضًا كما يجري بين الشرب في الدنيا؛ لأنهم إذا شربوا لم تفتّر أعصابهم، ولم تتغير عقولهم^(٣).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (في)، وأن المجرور جاء ضميرًا متصلًا مبنياً على الفتح في محل جر بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على المفعول به (لغوًا)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص بالمدح.

المسألة العاشرة: قال الله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنَ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبا: ٣٧].
أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

لا: حرف نفي مهمل - إعرابًا لا معنيًا - مبني على السكون، لا محل له من الإعراب.

يملكون: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: ضمير متصل، مبني على السكون، في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية: استئنافية، لا محل لها من الإعراب، ويمكن أن تكون حالية من (الرحمن)، في محل نصب.

منه: من: حرف جر، مبني على السكون، لا محل له من الإعراب، والهاء: ضمير متصل، مبني على الضم، في محل جر بحرف الجر، وشبه الجملة: الجار

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٢٢/٣١).

(٢) انظر: الماوردي، النكت والعيون (١٨٩/٦).

(٣) انظر: الأرمي، محمد الأمين بن عبد الله، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢١ هـ (٣٨/٣١).

والمجرور متعلقان بالفعل (يملكون)، أو بمحذوف حال من ضمير الفاعل، تقديره (لا يملكون آخذين منه) أو بمحذوف حال من المفعول به بعدهما، تقديره (خطابًا مسموحًا أو مأخوذًا منه)، ولو تأخر الجار والمجرور عن المفعول به، لتعلقا بنعت له؛ لكونه نكرة.

خطابًا: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ثانيًا: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

أي: هذا الجزاء العظيم للمتقين هو كائن من ربك، الذي هو رب أهل السموات وأهل الأرض، ورب ما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا هو، وهو - سبحانه - صاحب الرحمة الواسعة العظيمة التي لا تقاربها رحمة، وأهل السموات والأرض وما بينهما، خاضعون ومربوبون لله - تعالى - الواحد القهار، الذي لا يقدر أحد منهم - كائنًا من كان - أن يخاطبه إلا بإذنه، ولا يملك أن يفعل ذلك إلا بمشيئته^(١). والضمير في قوله: (لا يملكون) يرجع لأهل السموات والأرض، وهذا هو الصواب، فإن أحدًا من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله ومكالمته، وقيل: يرجع للمشركين. وقيل: يرجع للمؤمنين^(٢).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (من)، وأن المجرور جاء ضميرًا متصلًا مبنيًا على الضم في محل جر بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على المفعول به (خطابًا)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص بمول الموقف. أي: هيبة من الله تعالى، وتعظيمًا لحقه؛ فلا يملكون من هيئته الخطاب بالشفاعة أو بالخصومة أو بأي شيء كان^(٣).

المسألة الحادية عشرة: قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].
أولًا: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

أذن: فعل ماضٍ، مبني على الفتح الظاهر على آخره.

(١) انظر: طنطاوي، د. محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٢٥٨/١٥).

(٢) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٢٤/٣١).

(٣) انظر: أبو منصور الماتريدي، تفسير الماتريدي (٤٠٠/١٠).

له: اللام: حرف جر، مبني على الفتح؛ لاتصاله بالضمير، لا محل له من الإعراب، والهاء: ضمير متصل، مبني على الضم، في محل جر بحرف الجر، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بالفعل (أذن)، أو بمحذوف حال من الفاعل بعدهما، تقديره (الرحمنُ راضياً له).

الرحمن: لفظ الجلالة، فاعل مرفوع - مع التعظيم - وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، والجملة الفعلية: صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب، وضمير الصلة العائد: الضمير المجرور في (له).

ثانياً: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

المعنى: «إنّ الذين هم أفضل الخلائق وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه وهم الروح والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه، فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والأرض؟»^(١).

والمقصود من الآية الكريمة، بيان أن الخلائق جميعاً يكونون في هذا اليوم، في قبضة الرحمن وتحت تصرفه، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا بإذنه تعالى^(٢).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (اللام)، وأن المجرور جاء ضميراً متصلاً مبنيّاً على الضم في محل جر بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على الفاعل (الرحمن)؛ لإفادة العناية والاهتمام بهذه الخلائق.

المسألة الثانية عشرة: قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً﴾ [النبا: ٣٩].
أولاً: تحليل شبه الجملة المتقدمة في الآية:

اتخذ: فعل ماض، مبني على الفتح الظاهر على آخره، في محل جزم جواب الشرط، والفاعل: ضمير مستتر جوازاً، تقديره (هو)، عائد على اسم الشرط (من)، وجملة (اتخذ) لا محل لها من الإعراب جواب الشرط الجازم غير مقترنة بالفاء، وجملتا فعل الشرط وجوابه: في محل رفع خبر المبتدأ (من)، وجملة الشرط

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٤/٦٩١).

(٢) انظر: طنطاوي، د. محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٥/٢٥٩).

بأركانها: ابتدائية، لا محل لها من الإعراب.

إلى: حرف جر، مبني على السكون، لا محل له من الإعراب.

ربه: اسم مجرور بحرف الجر-مع التعظيم-، وعلامة جره الكسرة الظاهرة على الباء، وهو مضاف، والهاء: ضمير متصل، مبني على الكسر، في محل جر مضاف إليه، وشبه الجملة: الجار والمجرور متعلقان بالفعل (اتخذ)، أو بمحذوف حال من ضمير الفاعل، تقديره (ذاهبًا إلى ربه)، أو بمحذوف حال من المفعول به بعدهما، تقديره (مثنابًا موصلاً إلى ربه)، ولو تأخر الجار والمجرور عن المفعول به، لتعلقا بنعت له؛ لكونه نكرة.

مثابًا: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

ثانيًا: الأثر التفسيري لشبه الجملة المتقدمة في الآية:

أي: «فمن شاء في الدنيا اتخذ بالعمل الصالح والإيمان إلى ربه في ذلك اليوم مرجعًا ومنجى وسبيلاً وطريقًا إلى رحمته. وفي الكلام معنى التهديد والوعيد، أي: من لم يفعل ذلك فسيرى ما يحل به غدًا»^(١).

ويلحظ في هذه الآية أن حرف الجر هو (إلى)، وأن المجرور جاء اسمًا ظاهرًا مجرورًا بحرف الجر، وأن الجار والمجرور قدما على المفعول به (مثابًا)؛ للاهتمام والعناية به، ومراعاة للفواصل، «كأنه قيل وإذا كان الأمر كما ذُكر من تحقق اليوم المذكور لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعًا إلى ثواب ربه الذي ذُكر شأنه العظيم فعَل ذلك بالإيمان والطاعة»^(٢). وفيه وعد ووعيد وتحريض وتخويف الكفار من عقاب الله تعالى^(٣).

(١) ابن أبي طالب، مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط ١٤٢٩ هـ (١٢/٨٠١٤).

(٢) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٩/٩٤).

(٣) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/٤٢٩).

الخاتمة

بعد أن منّ الله عليّ بالانتهاء من هذا البحث، فإنني أستخلص منه بعض النتائج الآتية:

١- هناك علاقة وطيدة بين الإعراب والبلاغة والتفسير التحليلي، فعلمنا النحو والبلاغة من العلوم المهمة التي لا بد للمفسر أن يتسلح بها، وهذا ظاهر في كثير من كتب التفسير.

٢- ظهر في البحث تعريف التفسير التحليلي، وتعريف التقديم، وتعريف شبه الجملة، وبيان أقسامها.

٣- تبين للباحث أن تحديد شبه الجملة المتقدمة في الآية، وتحليلها له عظيم الأثر في فهم الآية القرآنية وتدبرها.

٤- جاءت شبه الجملة المتقدمة في اثني عشر موضعًا متمثلة في اثنتي عشرة مسألة في سورة النبأ.

٥- جاءت شبه الجملة المتقدمة (الجار والمجرور) في أحد عشر موضعًا متمثلة في إحدى عشرة مسألة في سورة النبأ.

٦- جاءت شبه الجملة المتقدمة (الظرف المكان والمضاف إليه) في موضع واحد متمثل في مسألة واحدة في سورة النبأ.

٧- جاء حرف الجر (عن) مرة واحدة، وجاء مجروره اسم استفهام مبنياً على السكون.

٨- جاء حرف الجر (في) ثلاث مرات، وجاء مجرور أحدهما ضميراً متصلًا مبنياً على الكسر، وجاء الثاني والثالث ضميراً متصلًا مبنياً على الفتح.

٩- جاء حرف الجر (من) مرتين، وجاء مجرور أحدهما اسمًا ظاهرًا مجرورًا، وعلامة جره الكسرة، والآخر جاء ضميراً متصلًا مبنياً على الضم.

١٠- جاء حرف الجر (الباء) مرة واحدة، وجاء مجروره ضميراً متصلًا مبنياً على الكسر.

١١- جاء حرف الجر (اللام) ثلاث مرات، جاء مجرور الأول والثاني اسمًا ظاهرًا مجرورًا، وعلامة جره الياء؛ لأنه جمع مذكر سالم، والثالث جاء مجروره ضميراً متصلًا مبنياً على الضم.

١٢- جاء حرف الجر (إلى) مرة واحدة، وجاء مجروره اسمًا ظاهرًا مجرورًا، وعلامة جره الكسرة.

- ١٣- قدم الجار والمجرور على الفعل المضارع (يتساءلون) مرة واحدة؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص بالذم.
- ١٤- قدم الجار والمجرور على متعلقهما (مختلفون) وهو خبر المبتدأ؛ للاهتمام والعناية بالمجرور (النبأ).
- ١٥- قدم الظرف والمضاف إليه على المفعول به (سبغًا)؛ للاعتناء بالمقدم وهو الناس، والتشويق إلى المؤخر وهو سبع سموات.
- ١٦- قدم الجار والمجرور على المفعول به (ماء)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص.
- ١٧- قدم الجار والمجرور على المفعول به (حبًّا)؛ لإفادة العناية والاهتمام.
- ١٨- قدم الجار والمجرور على متعلقهما (مئابًا) وهو بدل من خير كان (مرصداً)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص المذموم.
- ١٩- قدم الجار والمجرور على المفعول به (بردًا)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص.
- ٢٠- قدم الجار والمجرور على اسم إن (مفازًا)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص المحمود، وللاهتمام بالمتقين تنويهاً بهم.
- ٢١- قدم الجار والمجرور على المفعول به (لغوًا)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص بالمدح.
- ٢٢- قدم الجار والمجرور على المفعول به (خطابًا)؛ لإفادة الحصر والقصر والاختصاص بهول الموقف.
- ٢٣- قدم الجار والمجرور على الفاعل (الرحمن)؛ لإفادة العناية والاهتمام بالروح والملائكة.
- ٢٤- قدم الجار والمجرور على المفعول به (مئابًا)؛ للاهتمام والعناية به، ومراعاة للفواصل.

التوصيات:

- ١- أوصي المؤسسات العلمية الإسلامية جامعات وكليات ومدارس وجمعيات ومراكز أن توجه بعثاتها العلمية، ودراساتها العليا، وأبحاثها العلمية نحو الأبحاث التي تخدم القرآن الكريم، وخاصة الموضوعات التي لها علاقة بالنحو والبلاغة وتفسير القرآن الكريم.
- ٢- أوصي طلبة العلم وخاصة طلبة العلوم الشرعية بالإقبال والإقدام على تعلم الإعراب والبلاغة وتلقيهما على أيدي مدرسين مختصين في هذا المجال.

ثبت المصادر والمراجع

- ١- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٢- الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ.
- ٣- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.
- ٤- جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، بيروت، ط ٣.
- ٥- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه (ثم صوّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان)، ط ١، ١٣٧٦ هـ.
- ٦- الصعدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط ١٧، ١٤٢٦ هـ.
- ٧- حَبَنَكَّة، عبد الرحمن، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ.
- ٨- مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة ٢ - المعاني، جامعة المدينة العالمية.
- ٩- العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ١٠- ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م.
- ١١- المبرد، التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا، تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، مراجعة: محمود سالم، نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ١٢- الأرمي، محمد الأمين بن عبد الله، تفسير حدائق الروح والريحان في روائع علوم القرآن، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢١ هـ.
- ١٣- دروزة، محمد عزت، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٣ هـ.

٧٦ تحليل شبه الجملة المتقدمة في القرآن الكريم، وبيان أثرها على المعنى التفسيري

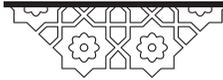
- ١٤- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ.
- ١٥- الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ١٦- الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠ هـ.
- ١٧- أبو منصور، الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٦ هـ.
- ١٨- الزحيلي، د. وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢، ١٤١٨ هـ.
- ١٩- طنطاوي، د. محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط ١- ١٩٩٧م، ١٩٩٨م.
- ٢٠- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويح، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ.
- ٢١- الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ.
- ٢٢- الغلاييني، مصطفى بن محمد سليم، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط ٢٨، ١٤١٤ هـ.
- ٢٣- نكري، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ.
- ٢٤- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤ هـ.
- ٢٥- محمود بن عبد الرحيم، صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط ٤، ١٤١٨ هـ.
- ٢٦- الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.
- ٢٧- الدسوقي، محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، بيروت.

- ٢٨- السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- ٢٩- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ.
- ٣٠- ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، ط ٢٠، ١٤٠٠ هـ.
- ٣١- ابن هشام، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا.
- ٣٢- الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، د. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط ١، ١٤٢٠ هـ.
- ٣٣- المراغي، أحمد بن مصطفى، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» .
- ٣٤- دعكور، د. نديم حسين، القواعد التطبيقية في اللغة العربية، مؤسسة مجنون للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٩٨ م.
- ٣٥- المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧ هـ.
- ٣٦- أبو علي، الفارسي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب، تحقيق وشرح: الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط ١، ١٤٠٨ هـ.
- ٣٧- الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ هـ.
- ٣٨- الكفوي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٣٩- الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ.
- ٤٠- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ.

- ٤١- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- ٤٢- الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ.
- ٤٣- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- ٤٤- عمر، د. أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٩هـ.
- ٤٥- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة.
- ٤٦- عوني، حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
- ٤٧- مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٤٢٣ هـ.
- ٤٨- عيد، محمد، النحو المصفي، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧١م.
- ٤٩- حسن، عباس، النحو الوافي، دار المعارف، ط ١٥.
- ٥٠- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- ٥١- الماوردي، النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٥٢- ابن أبي طالب، مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية، تحقيق: مجموعة رسائل جامعة بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط ١، ١٤٢٩هـ.

مقدمة تحقيق شرح العلل للدكتور همام سعيد في ميزان علم الابتكار

أ. د علي إبراهيم عجين*



ملخص

تناول البحث مقدمة تحقيق شرح العلل للدكتور همام سعيد ومدى انطباق معايير الابتكار والإبداع عليها، وقد قسمت البحث إلى مبحثين: الأول: مفهوم الابتكار ومعايير ومكوناته، والثاني: معالم الابتكار في مقدمة شرح العلل، وقد توصلت إلى أن هذه المقدمة تعد عملاً ابتكارياً في علم العلل غير مسبوقه كان لها أثر كبير في فتح آفاق البحث العلمي في علم علل الحديث.

Abstract:

The research focused on the introduction to achieving the explanation of the rational by Dr. Hammam Saeed and the extent to which the criteria of innovation and creativity apply to them. The research was divided into two sections: the first: the concept of innovation, its criteria and its components; the second: the parameters of innovation in the introduction to the explanation of the rationales. And I concluded that this introduction is an unprecedented innovative work in the science of rational that had significant impact in the horizons of scientific research in the science of the rational in Hadith science.

* أستاذ الحديث الشريف، جامعة آل البيت الأردنية، تاريخ استلام البحث ٢٩/٨/٢٠٢٠م، وتاريخ قبوله للنشر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وبعد فإن تطور الأمم يقاس بما يقدم للموهوبين والمبتكرين من رعاية واهتمام، فاليئمة المشجعة على الإبداع تولد الابتكار، ومن ذلك دراسة وتحليل أعمال المبدعين، وبيان أوجه الإبداع فيها، وأثرها على تطور العلم في مجالها، ومنها العلوم الشرعية، التي -للأسف- لم تنل عناية من قبل الباحثين في كشف قيمتها في ميزان علم الابتكار، حتى ظن بعض الدارسين أن الدراسات الشرعية لا علاقة لها بالإبداع، فنرى أن أصحاب التخصصات العلمية الأخرى يكرمون علماءهم، ويمنحونهم أوسمة الإبداع وبراءات الابتكار، وأما علماء الدراسات الإسلامية فلا عزاء لهم.

مشكلة الدراسة:

تأتي هذه الدراسة بعنوان: مقدمة تحقيق شرح العلل للدكتور همام سعيد في ميزان علم الابتكار، محاولةً للإجابة عن التساؤل الآتي: هل تعد مقدمة تحقيق «شرح العلل لابن رجب» التي كتبها د. همام سعيد عملاً ابتكارياً؟ وما جوانب الابتكار فيها؟

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى بيان جوانب الابتكار في مقدمة تحقيق شرح العلل.

منهج الدراسة: اتبع الباحث المنهج الاستقرائي لتتبع مواضع الابتكار في المقدمة، كما قام الباحث باستنباط هذه المواضع بتطبيق مفاهيم علم الابتكار ومعاييرها.

الدراسات السابقة: لم يقف الباحث على دراسة سابقة لبيان قيمة الابتكار في مقدمة تحقيق «شرح علل الترمذي» لابن رجب الحنبلي.

مخطط الدراسة: تم تقسيم الدراسة إلى مبحثين، على النحو الآتي:

المبحث الأول: الابتكار مفهومه، ومعاييرها، ومكوناته.

المبحث الثاني: معالم الابتكار في مقدمة تحقيق شرح العلل.

أسأل الله العظيم، رب العرش الكريم أن يتقبل أعمالنا، ويلهمنا حب العلماء وتكريمهم.

المبحث الأول: الابتكار مفهومه، ومعايير، ومكوناته.

المطلب الأول: مفهوم الابتكار:

أولاً: الابتكار لغة:

قال ابن فارس: «الباء والكاف والراء أصلٌ واحدٌ يرجع إليه فرعان هما منه. فالأول أول الشيء وبدؤه. والثاني مشتقٌ منه، فالأول البكرة وهي العداة، والجمع البكر. والتبكير والبكور والابتكار المضي في ذلك الوقت.

ويقال أرضٌ مبكّارٌ، إذا كانت تنبت في أول نبات الأرض، فهذا الأصل الأول، وما بعده مشتقٌ منه. فمنه البكر من الإبل، والبكر من كل أمرٍ أوله. والبكر: الكرم الذي حمل أول مرة»^(١).

وابتكر كلمة محدثة، وفيها معنى بذل الجهد، أي تكلف البكور، والشئء ابتدعه غير مسبوق إليه. ^(٢) وابتكر يبتكر، ابتكاراً، فهو مبتكر، والمفعول مبتكر، وابتكر الجهاز: اخترعه، ابتدعه واستنبطه غير مسبوق إليه، وابتكر طريقة جديدة، وعقلٌ مبتكر: خلاقٌ مبدع، مجدد ذو موهبة ونبوغ، وفنٌ مبتكر: جديد، غير مألوف^(٣).

ثانياً: الابتكار اصطلاحاً:

للابتكار تعريفات مختلفة حسب مناحي الباحثين واهتماماتهم العلمية ومدارسهم الفكرية، فيمكن تعريفه بناءً على سمات الشخصية أو إنتاج الشخص، أو العملية الابتكارية، أو البيئة المبتكرة^(٤).

(١) ابن فارس: أحمد بن حسين بن زكريا، معجم مقاييس اللغة العربية، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م. (١/٣٠٩-٣١٠-٣١١).

(٢) انظر: مصطفى، إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ-١٩٧٢ م، (١/٦٧).

(٣) انظر: مختار، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، (١/٢٣٤).

(٤) انظر: الدريني، حسين عبد العزيز الدريني، جامعة قطر، الابتكار تعريفه وتنميته، مقال منشور على النت، على رابط <https://qspace.qu.edu.qa/bitstream/>

handle/10576/9287/018201-0006-fulltext.pdf?sequence=4&isAllowed=y وقت

وتشير بعض المراجع إلى أن بعض الباحثين يرون فروقاً بين الإبداع والابتكار، ويرون أن الإبداع يتناول الجانب النظري والأدبي، بينما الابتكار يتناول الجانب التطبيقي والعلمي، بمعنى آخر أي فكرة أصيلة جديدة فهي فكرة مبدعة، ولكن إذا تحولت هذه الفكرة إلى واقع حقيقي ملموس فإنها تتحول إلى ابتكار^(١)، وعليه يمكن القول: إن كل ابتكار إبداع، وليس كل إبداع ابتكار، ويعقب د. العبيدي على ذلك بقوله: «إن التفريق المشار إليه لا يتجاوز الأطروحات النظرية، حيث توجد قرائن يدل مجموعها على أن المفهومين - الإبداع و الابتكار - يصيران عملياً إلى شيء واحد»^(٢)، ويرى د. نجم عبود أن هذا التمييز بين الإبداع والابتكار كمراحل متعاقبة كان مقبولاً في الماضي عندما كان التوصل إلى الفكرة الجديدة أو المفهوم الجديد يظل لعقود طويلة في حالة الركون قبل أن يتحول إلى منتج جديد أو عملية جديدة، وأن هذا التمييز لم يعد عملياً^(٣)، وهذا ما يسير عليه الباحث في دراسته في أن الإبداع والابتكار مترادفان.

وإلى هذا يشير تعريف (بيرز Purs) (١٩٦٠): «الإبداع: تجسيد لقدرة الفرد على استخدام طرائق غير تقليدية في تحقيق إنجاز تتوافر فيه سمات الأصالة والابتكار»^(٤)، فأدخل الابتكار في مفهوم الإبداع.

وعليه يظهر الترابط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للابتكار، فإن أصل الابتكار هو أن يكون أول الشيء، والذهاب في أول الوقت، وكذلك المبتكر يأتي بأمر هو الأول ويمضي فيه فهو مبتكر له، ويبدل جهد الابتكار فيه، ويأتي بشيء غير مسبوق، وهو ما يوصف بالأصالة، أي أنه غير مقلد لغيره، فهو من سبق الآخرين في ابتكاره.

ويرى (ولس Wallace) (١٩٨٥): أن «الإبداع: عمل هادف يقود إلى نواتج أصيلة وغير معروفة»^(٥).

(١) انظر: العبيدي وآخرون، محمد جاسم العبيدي، الإبداع و التفكير الابتكاري، ديونو للنشر، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، نقلاً عن الحمادي، ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: نجم، نجم عبود نجم، إدارة الابتكار، دار وائل للنشر، عمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، ص ١٨.

(٤) انظر: صبحي، تيسير صبحي، الموهبة والإبداع، دار التنوير العلمي، ١٩٩٢م، ص ٢٦.

(٥) انظر: جروان، فتحي جروان، الموهبة والتفوق والإبداع، العين: دار الكتاب الجامعي

وأما (تورنس Torrance) (١٩٩٣م) فيصف التفكير الإبداعي بقوله: «عملية تحسس للمشكلات، وإدراك مواطن الضعف والثغرات، وعدم الانسجام والنقص في المعلومات، والبحث عن الحلول التي يمكن التنبؤ بها، وإعادة صوغ الفرضيات في ضوء اختبارها؛ بهدف توليد حلول جديدة من خلال توظيف المعطيات المتوافرة، ومن ثم نشر النتائج وعرضها على الآخرين»^(١). وهناك من عرّف الابتكار بقوله: «تحويل المعرفة القديمة إلى خدمات جديدة ومختلفة، من شأنها النهوض بمستوى الفرد والمجتمع إلى مستوى متقدم و رفيع»^(٢).

المطلب الثاني: معايير الإنتاج الإبداعي:

١- الحداثة أو الجدة (Novelty): فالمنتج الإبداعي شيء يختلف عن المؤلف. ٢- الفاعلية (Effectiveness): فالمنتج الإبداعي، بصرف النظر عن نوعه، يحقق هدفًا على أرض الواقع، قد يكون هذا الهدف جماليًا، أو فنيًا، أو ذوقيًا، أو روحيًا، وقد يكون مادياً^(٣).

ويبين كروبلي هذه الصفات بقوله: تشير «الجدة» إلى شيء غير معروف في السابق في محيط محدد، وتعني «الفاعلية» أن تساعد الجدة على التعامل مع مشكلة معينة^(٤).

٣- الرضا الاجتماعي^(٥): فالمعيار الرئيس لتقويم الإبداع هو أن يكون النتاج فيه جديدًا وأصيلًا، وذا قيمة للمجتمع في الوقت ذاته^(٦).

(١) انظر: نوفل، محمد بكر، الإبداع الجاد، عمان: دار ديونو للطباعة والنشر، ٢٠٠٩، ص ٣١.
(٢) نقله الضبع: أحمد الضبع، صناعة الأفكار المبتكرة، دار الأجيال للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص ١٠.

(٣) انظر: كروبلي: آرثر كروبلي، الإبداع في التربية والتعليم، ترجمة إبراهيم الحارثي، ومحمد مقبل، مكتبة الشقري، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ص ١١.

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٥) انظر: السرور: ناديا، مقدمة في الإبداع، دار ديونو للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية،

٢٠٠٥م، ص ١٣٣.

(٦) انظر: شاهين: عوني، وزايد: حنان، الإبداع، دار الشروق، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م،

٤- استمرارية الأثر: فكلما استمرت الآثار المترتبة على الناتج كان ذلك دليلاً على أهميته وقيمته بالنسبة لمجاله، وبقدر ما يمثل الناتج إضافة أساسية بقدر ما تستمر آثاره^(١).

المطلب الثالث: مكونات التفكير الإبداعي:

عرّف (جيلفورد) (Guilford, 1986) التفكير الإبداعي على أنه: مجموعة من المهارات تتضمن مهارة الطلاقة، ومهارة المرونة، ومهارة الأصالة، ومهارة الحساسية تجاه المشكلات، ومن ثم العمل على إعادة صوغ المشكلة وشرحها بالتفصيل^(٢).

١- الطلاقة Fluency أو الخصوبة أو السيولة:

ويقصد بها القدرة على إنتاج أكبر عدد من الأفكار المناسبة أو الملائمة، فالشخص المبدع شخص متفوق من حيث كمية الأفكار التي يقترحها عن موضوع معين في وحدة زمنية ثابتة بالمقارنة بغيره، أي أنه على درجة مرتفعة من القدرة على سيولة الأفكار وسهولة توليدها^(٣).

٢- المرونة (Flexibility):

وهي القدرة على إنتاج عدد متنوع ومختلف من الأفكار - أو الاستجابات والتحول من نوع معين من الفكر إلى نوع آخر- أي إمكانية تغيير إستراتيجياته في النظر للمتغير الواحد.

والسمة الفريدة التي تميز المرونة هي قدرة صاحبها على الفكك من أسر القصور الذاتي الفكري، فنحن نعلم أننا نفكر دائماً في أنماط معينة، وهذه الأنماط تفرض علينا دائرة مغلقة تدور فيها أفكارنا ولا نستطيع الفكك منها، أما صاحب التفكير المرن فإنه ينتقل بين الفئات وبين هذه الأنماط الفكرية، ولا يقع أبداً في ذلك الحصار الفكري^(٤).

(١) انظر: الكنانى: ممدوح، سيكولوجية الإبداع وأساليب تنميته، دار المسيرة، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص ١٢٢.

(٢) نوفل: محمد بكر، الإبداع الجاد مفاهيم وتطبيقات، ديونو للطباعة والنشر، عمّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م. ص ٣٢.

(٣) انظر: الكنانى: سيكولوجية الإبداع، ص ٨٢، مصدر سابق.

(٤) انظر: الكنانى: سيكولوجية الإبداع، ص ٨٦-٨٧. مصدر سابق.

٣- الأصالة (Originality):

يقصد بها تلك القدرة التي تبدو في سلوك الفرد عندما يبتكر بالفعل إنتاجًا جديدًا، فالأصالة تعني الجدة أو الندرة، وهناك شرط آخر لا بد من توافره إلى جانب الجدة؛ كي يعدّ الإنتاج أصيلاً، وهو أن يكون مناسباً للهدف أو الوظيفة التي سيؤديها العمل المبتكر، والأصالة مرادفة للإبداع نفسه، وتعرف بأنها القدرة على إبداء أفكار جديدة وفريدة وخلاقة أو توليدها^(١).

٤- الحساسية للمشكلات (Sensitivity to Problems):

ويقصد بها الوعي بوجود مشكلات أو حاجات أو عناصر ضعف في البيئة أو الموقف، ويعني ذلك أن بعض الأفراد أسرع من غيرهم في ملاحظة المشكلة والتحقق من وجودها في الموقف، ولا شك أن اكتشاف المشكلة يمثل خطوة أولى في عملية البحث عن حل لها، ومن ثم إضافة معرفة جديدة أو إدخال تحسينات أو تعديلات على معارف أو منتجات جديدة^(٢).

٥- الإثراء والتفاصيل (Elaboration):

هي قدرة الفرد على الإضافة إلى الفكرة الأصيلة؛ لجعلها أكثر ملاءمة لمواجهة المشكلة، وإقناع من حوله، وهي القدرة على وضع تفاصيل الخطط أو الأفكار^(٣). وما يؤكد هذه النتيجة وصول مجموعة من الأفراد إلى أفكار إبداعية عالية المستوى، بيد أنهم لم يحددوا تفاصيل هذه الأفكار إلا عندما يجيء شخص آخر ليكمل ما قد انتهى به الشخص الأول من خلال التفكير فيما توصل إليه^(٤).

وتسهم عملية الإضافة أو التفاصيل في عملية إكمال الموقف أو الموضوع قيد البحث أو الحل، بحيث يصبح أكثر تفصيلاً، وبالتالي كل خطوة تسهم في بناء الخطوة التالية^(٥).

(١) انظر: نوفل: الإبداع الجاد، ص ٥٤. مصدر سابق.

(٢) انظر: جروان: المهبة والتفوق والإبداع، ص ٩٩. مصدر سابق.

(٣) انظر: الكنانى: سيكولوجية الإبداع، ص ٩٦. مصدر سابق.

(٤) انظر: نوفل: الإبداع الجاد، ص ٥٦. مصدر سابق.

(٥) المصدر السابق، وللإستزادة حول هذا الموضوع ينظر: عجين، علي، الإبداع رؤية إسلامية،

ديونو للنشر عمان، الطبعة الثانية، ٢٠١٥م.

المبحث الثاني: معالم الابتكار في مقدمة تحقيق شرح العلل.

قبل الحديث عن معالم الابتكار في مقدمة د. همام، أود أن أبين أن صفة الابتكار والإبداع عند علماء الحديث ليست صفة طارئة ومحدثة، فإن العلماء المتقدمين اتصفوا بذلك، وعلى رأسهم الإمام البخاري-رحمه الله- في تأليفه للجامع الصحيح، حيث أبدع في إخراج أول كتاب صحيح في الحديث النبوي، وما زال أثره العلمي إلى يومنا هذا^(١)، فما قام به د. همام استكمال لمسيرة الابتكار عند المحدثين.

المطلب الأول: الروح الابتكارية عند مؤلف المقدمة.

يتحدث علماء الإبداع عن ما يسمى بشراة الإبداع أو ومضة الإبداع، وهي مرحلة الإشراق التي يفتق فيها التفكير فجأة عن حل أو بواذر حل للمشكلة، إنها لحظة حل اللغز المحير والشعور بالرضا بعد معاناة قد تطول أو تقصر^(٢)، ويحدثنا د. همام عن ولادة فكرة كتابة المقدمة، وكيف كانت تراوده وهو في مرحلة الماجستير قائلاً: «أما ولادة هذه الفكرة موضوعاً للدراسة فقد كانت نواتها الأولى بحثاً في أولى سني الدراسات العليا، ويومها كتبت بحثاً صغيراً في العلل أوقفني على قيمة هذا الموضوع ومكانته بين علوم الحديث، وكان من بين مراجعي كتاب مخطوط لابن رجب الحنبلي، لقد وجدت في هذا الكتاب كلاماً جديداً في الموضوع فتح أمامي باباً مغلقاً ولجت منه إلى ميدان ربح فسيح، فزادني البحث رغبة في البحث والاستقصاء وجمع مخطوطات هذا العلم، ولم تثني العقبات و الصعوبات من أن أتابع هذا الأمر حتى تجمعت عندي حصيلة جيدة أعانتني على تكوين صورة أولية لفهم هذا العلم، ولما حصلت على الماجستير لم أتردد في اختيار موضوع للدكتوراه من خلال هذه الحصيلة فجعلت «كتاب شرح علل الترمذي لابن رجب» موضوعاً للرسالة تحقيقاً و دراسة»^(٣).

(١) انظر: المصدر السابق، في الفصل الثالث: عن الإمام البخاري وجامعه الصحيح: قراءة من

منظور علم الإبداع. ص ٧٧.

(٢) انظر: سرور، ناديا، مقدمة في الإبداع ص ١٠٤، وجروان، المهبة والتفوق والإبداع. ص

١٠٩. مصدر سابق.

(٣) سعيد، همام عبد الرحيم، شرح علل الترمذي لابن رجب، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة

الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م. ٧ / ١.

وعند تحليل هذا النص نجد ما يأتي:

١- اختيار الطالب همام سعيد - وهو في هذا العمر - للكتابة في موضوع العلل دون سواه من علوم الحديث الشريف يدل على روح المغامرة عند هذا الطالب، ولاسيما أن علم العلل كما هو معلوم من أصعب مباحث علوم الحديث.

٢- على الرغم من الصعوبات التي واجهته من جمع لمخطوطات أمهات الكتب في العلل - حيث إن كثيراً من كتب العلل لم تطبع في زمانه - لكنه أصر على المضي في مشروعه.

٣- تأمل في قوله: لقد وجدت في هذا الكتاب كلاماً جديداً في الموضوع فتح أمامي باباً مغلقاً ولجت منه إلى ميدان رحب فسيح؛ لتكتشف هذه الروح الابتكارية، وهكذا المبتكر يبحث عن الجديد، أما غير المبتكر فيبحث عن الأمور التقليدية ويرتاح لها.

٤- بقي هذا المشروع يراوده حتى أنهى مرحلة الماجستير، فالروح الابتكارية عنده لم تهدأ حتى تحقيق مرادها.

٥- وعليه كان هذا البحث الصغير شرارة الإبداع، فما هي إلا سنوات حتى أصبح مشروعاً كبيراً أحيا الله تعالى على يد صاحبه علم العلل في عصرنا.

ونلمس الروح الابتكارية عند د. همام في عدة جوانب:

١- وصفه لكتاب **علل الترمذي الصغير** بأنه أول مصنف في علوم الحديث: قال د. همام: «ومع أن هذا الكتاب مسبوق بجهود متفرقة في علم الدراية، كما أنه مسبوق بمقدمة صحيح مسلم، رغم كل هذا فإن كتاب العلل الصغير جاء أتم وأكمل، وجاز لنا أن نعتبره أول مصنف في علوم الحديث، وموضوعاته أشمل وأدق من موضوعات «المحدث الفاصل» للرامهرمزي»^(١)، ويصف الكتاب بقوله: «وهذا الكتاب الصغير في حجمه، الكبير في أهدافه ومعارفه فلسفة كاملة «للجامع» أولاً، وللحديث ثانياً»^(٢). وهكذا صاحب الروح الابتكارية يقدر الابتكار عند الآخرين.

(١) المقدمة: (١ / ٤١).

(٢) المصدر السابق. (١ / ٧٧).

٢- ثناؤه على تجديد ابن رجب لعلم العلل: فيقول عن قسم القواعد التي وضعها ابن رجب في علم العلل: «وفي هذا القسم يجد الباحث نفسه أمام منهج فريد في التصنيف لم يشارك فيه ابن رجب أحد من السابقين، كما سيجد الباحث في هذه القواعد متعة ما بعدها متعة»^(١)، ويقول: «وهي لا شك بدع في موضوعها، وأسلوب جديد في عرض علوم الحديث...، فكان بهذا أول من علمناه صنف كتاباً مفرداً فيه قواعد العلل في الحديث، ويكون بهذا لفت نظر الباحثين إلى اتجاه جديد في دراسة علوم الحديث ينصب على التقعيد»^(٢)، وقال في وصف الكتاب: «وإنما ينصب إعجابنا على الكتاب بمجموعه وما فيه من سبق وتفصيل وسعة اطلاع، وتقعيد لقواعد علم العلل، والمصطلح بشكل عام، وأما اختياره في هذه المسألة -أي مسألة ثبوت السماع ورده على الإمام مسلم- ففيما يلي تحليل ومناقشة ونقد لما ذهب إليه»^(٣)، فعبارة التجديد والأولية والإبداع والسبق والتفرد تراود د. همام في حديثه عن ابن رجب والإعجاب به، وهكذا نجد أن روح الابتكار التي ابتدأها الإمام الترمذي تسري في نفس ابن رجب بعد خمسة قرون من تصنيف «العلل الصغير»، وتمضي مسيرة الابتكار في هذا العلم لتصل للدكتور همام بعد ما يقارب من سبعة قرون على تأليف ابن رجب لـ «شرح العلل»، فهل شيفرة الابتكار هي سر اختيار د. همام لتحقيق الكتاب، وابتكار مقدمة نظرية معاصرة في علم العلل؟

٣- الثقة العالية بالنفس^(٤): إن اختيار د. همام لكتاب «شرح العلل لابن رجب» ليكون أطروحته للدكتوراه جاء -بعد توفيق الله تعالى- نتيجة لثقتة بنفسه، وهذه الثقة لم تأت من فراغ، فالرجل واجه الصعاب في الكتابة في موضوع لم يطرق من قبل، وجمع المخطوطات، ولكن روحه الابتكارية وثقتة بنفسه جعلته يخوض هذه التجربة الصعبة، ويصف د. همام عمله بقوله: «ببحث غير مسبوق، اشتمل على أسبق دراسة نظرية للعلل إلى جانب أن

(١) المصدر السابق. (١ / ٥٢).

(٢) المصدر السابق. (١ / ٥٤).

(٣) المصدر السابق. (١ / ٢٠٤).

(٤) وهي إحدى صفات المبدعين، انظر: سرور، ناديا، مقدمة في الإبداع، ص ١٠٨. مصدر سابق.

كتاب ابن رجب يحقق من فضل الله لأول مرة، فأكون -إن شاء الله- قد أكدت و أسست»^(١)، ويصف ترجمته لابن رجب بقوله: «واستطعت بفضل الله أن أسجل لأول مرة مشيخة للرجل وانتهجت في ذكر الشيوخ أسلوباً مبتكراً»^(٢)، وعند حديثه عن أسباب العلة قال: «إذ الكلام عن هذه الأسباب منظمًا مجتمعًا، لم يقع لي في كتاب من الكتب التي تعرضت للعلل، ومع أن كتاب ابن رجب هو كتاب العلل الوحيد الذي تكلم على العلل كعلم له قواعده وأقسامه إلا أنه لم يفصل أسباب العلل في مبحث مستقل، وإنما عرض لها في مواضع متفرقة، ولعل دراستنا هذه هي بداية المحاولة في هذا الترتيب النظري لعلم العلل»^(٣)، ومع إعجابه الشديد بكتاب ابن رجب إلا أنه انتقده في عدة مواضع من كتابه.

٤- تعدد ابتكارات د. همام: لم تتوقف مسيرة الابتكار عند مقدمة شرح العلل، فألف د. همام كتاب «الفكر المنهجي عند المحدثين»^(٤)، ووضع الدليل التصنيفي للسنة النبوية إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي^(٥)، وأخرج سلسلة التصنيف الموضوعي للسنة النبوية في مركز دراسات السنة النبوية، ومنها موسوعة أحاديث الفتن وأشراط الساعة، وموسوعة أحاديث الشمائل النبوية، وغيرها من الموسوعات^(٦).

المطلب الثاني: تطبيق معايير الابتكار على مقدمة شرح العلل

سبق بيان معايير الابتكار وهي: الحداثة أو الجودة، والفاعلية، والرضا الاجتماعي، واستمرارية الأثر، فهل تنطبق هذه المعايير على مقدمة تحقيق شرح العلل؟

(١) مقدمة تحقيق شرح العلل. (١ / ٧-٨)

(٢) المصدر السابق. (١ / ١٠).

(٣) المصدر السابق. (١ / ٩٣).

(٤) نشر البيان للبحوث والدراسات، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ.

(٥) ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٦) انظر: مقدمة تهذيب موسوعة أحاديث الفتن وأشراط الساعة، مركز البيان للبحوث والدراسات، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م. ص ٥-٦.

أولاً: الحداثة والجددة: وهو الإتيان بأمر جديد غير مسبوق، أو الخروج عن المؤلف في تناول أمر ما، ولتوضيح الحداثة في المقدمة نتعرف على تاريخها، فأصل هذه المقدمة رسالة علمية للحصول على درجة الدكتوراه في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، ونوقشت بتاريخ ١ صفر ١٣٩٧هـ الموافق ١/٢٠/١٩٧٧، بعنوان: «كتاب شرح علل الترمذي لابن رجب - تحقيقاً ودراسة» وهي قبل تحقيق كل من الأستاذ صبحي السامرائي، والدكتور نور الدين العتر^(١).

فهذه المقدمة كتبت قبل ما يقارب من أربعين عاماً، والحديث بطبيعة الحال ليس عن تحقيق كتاب شرح العلل لابن رجب الحنبلي - رحمه الله - بل عن المقدمة النظرية التي كتبها د. همام سعيد، وإن كان تحقيق هذا الكتاب بعينه يعد عملاً غير مسبوق، ولاسيما في تلك الفترة الزمنية حيث صعوبة الحصول على النسخ الخطية والمراجع العلمية، فكثير من الكتب الحديثية التي اعتمد عليها المحقق كانت في تلك المرحلة في عالم المخطوطات.

فمقدمة التحقيق تعد أول دراسة نظرية معاصرة في علم علل الحديث، ولم يكتب قبلها في هذا المجال، يقول د. همام: «وها أنا بفضل الله تعالى أقدم بخلاصة جهدي وعصارة فكري، وهو - والله أعلم - بحث غير مسبوق، اشتمل على أسبق دراسة نظرية للعلل، إلى جانب أن كتاب ابن رجب يحقق بفضل الله تعالى لأول مرة، فأكون - إن شاء الله - قد أكدت وأسست»^(٢)، ويقول في ثنايا حديثه عن أسباب العلة وأن دراسته لهذه الأسباب غير مسبوق: «إذ الكلام عن هذه الأسباب منظمًا مجتمعا، لم يقع لي في كتاب من الكتب التي تعرضت للعلل، ومع أن ابن رجب هو كتاب العلل الوحيد الذي تكلم على العلل كعلم له قواعده وأقسامه إلا أنه لم يفصل أسباب العلل في مبحث مستقل، وإنما عرض لها في مواضع متفرقة، ولعل دراستنا هذه هي بداية المحاولة في هذا الترتيب النظري لعلم العلل»^(٣)، وهذا أمر معلوم ومتداول بين العلماء

(١) انظر: سعيد، همام عبد الرحيم سعيد، شرح علل الترمذي لابن رجب، مكتبة المنار،

الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، (١ / ٦-٧).

(٢) المصدر السابق. (١/٧-٨).

(٣) المصدر السابق. (١ / ٩٣).

وطلبة العلم، والأوساط الأكاديمية المتخصصة في الحديث الشريف وعلومه، قال محققو كتاب علل ابن أبي حاتم عند حديثهم عن أسباب العلة: «ولم يُجَدُّ أحدًا من الأئمة جمعَ هذه الأسباب، أو تحدّث عنها مجتمعةً، سوى أقوالٍ منشورة في كتب الرجال، وبعض كتب علوم الحديث، وأمثلة في كتب العلل؛ يمكنُ جمعها منها. وكان قَصَبُ السَّبْقِ في هذا للدكتور همام سعيد في مقدمة تحقيقه لـ«شرح علل الترمذي» لابن رجب»^(١)، وهذه شهادة جماعية صادرة من عدد من الباحثين المختصين، وقال د. حاتم العوني: «وكذلك مقدمة د. همام سعيد في تحقيقه لكتاب شرح علل الترمذي لابن رجب، وهي مقدمة متميزة، وهي من أوائل الدراسات العصرية لعلم العلل»^(٢).

فالمقدمة في إطارها العام عمل غير مسبوق وغير مألوف، ووجه السبق فيه أن علم علل الحديث لم تكتب فيه مقدمة دراسية توضيحية فجاء د. همام سعيد فكان السبق من نصيبه، وأما سبقه في وضع مصطلحات هذا العلم وتقسيماته وابتكار معايير وتحليلاته ونقده وشروحه، فهذا سيأتي تفصيله. وبناءً عليه فإن إثبات معيار الجودة والحداثة لهذه المقدمة: أن يذكر دراسة سبقت هذه المقدمة في موضوعها، وهذا ما لا يوجد، فتكون هذه المقدمة عملاً غير مسبوق وغير مألوف في وقتها، بمعنى أن د. همام هو صاحب أول نظرية علمية متكاملة في علم علل الحديث.

ثانيًا: الفاعلية: فالمنتج الإبداعي، بصرف النظر عن نوعه، يحقق هدفًا على أرض الواقع، وتعني (الفاعلية) أن تساعد الجودة على التعامل مع مشكلة معينة^(٣)، فمقدمة تحقيق شرح العلل مع جدتها حققت هدفًا عظيمًا بفتح باب (١) الحميد: سعد بن عبد الله، والجريسي: خالد بن عبد الرحمن، مقدمة تحقيق العلل لابن أبي حاتم المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن ابن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الخنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، الناشر مطابع الحميضي، الرياض، ط ١، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م. (١ / ٥٧).

(٢) العوني: حاتم - المدخل إلى فهم علم العلل، ط ٢، ١٤٣١هـ، ص ٦، منشور على النت، تاريخ الدخول ٢٨ / ٨ / ٢٠٢٠ م، الساعة ٣ و ٤٠ على الرابط. <http://www.dr->

/alawni. com/files/books/pdf

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٢.

الدراسات في علم العلل، وتعاملت مع مشكلة علمية عميقة، فحوها أن هذا العلم بعد التجديد الذي قام به الحافظ ابن رجب من خلال شرحه لعلل الإمام الترمذي، توقف عنده، ولم يتطور من بعده، بمعنى أنه توقف لمدة ما يقارب سبعة قرون من نهاية القرن الثامن^(١) إلى بداية القرن الخامس عشر الهجري، فجاء د. همام سعيد فخاض غمار علم العلل، وفتح أبوابه المغلقة، ووضع تقسيماته المبتكرة ومصطلحاته المبدعة، وهو ما يعرف بمستوى الإبداع المجدد (Innovated Creativity) ويبدو في توليد أفكار جديدة من معان أو نماذج معروفة^(٢). فالدكتور همام عمد إلى شرح علل الترمذي للحافظ ابن رجب كنموذج سابق في علم العلل، فولد لنا أفكارًا جديدة، ومصطلحات غير مسبوقة، بل وضع نظرية متكاملة في علم العلل مبنية على شرح ابن رجب، وأضرب مثالاً على فاعلية المقدمة بابتكار د. همام لمصطلح: المدارس الحديثية، حيث جعل معرفة المدارس الحديثية^(٣)، أول وسيلة من وسائل الكشف عن العلة، وكيف فتح آفاق البحث فيه لمن بعده، وهو الذي أشار على زميله في الدراسة د. أمين القضاة، فكتب في مدرسة الحديث في البصرة سنة (١٩٨٠)^(٤)، ود. شرف القضاة فكتب في مدرسة الحديث في الكوفة، ثم توالى الدراسات في هذا المصطلح المبتكر^(٥)، «وقد أشار د. همام بن سعيد إلى أهمية معرفة المدارس الحديثية، وأنها من وسائل الكشف عن العلة، وتعد معرفة خصائص أي مدرسة من أول الوسائل التي ذكرها في كشف العلة، وقد كان له قصب السبق في إظهار أهمية هذه المدارس في عصرنا»^(٦)، بل وأصبح هذا العنوان: «المدارس الحديثية» أحد مساقات تخصص الحديث في بعض الجامعات في الدراسات العليا^(٧).

(١) توفي الحافظ ابن رجب سنة ٧٩٥هـ.

(٢) انظر: العبيدي، محمد جاسم، الإبداع و التفكير الابتكاري. ص ٥٤.

(٣) انظر: مقدمة تحقيق شرح العلل. (١/١٢٨).

(٤) طبعت في بيروت، دار ابن حزم، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

(٥) وانظر بحث: زهير، محمد، المدارس الحديثية الدلالة والمضمون، مجلة جامعة دمشق للعلوم

الاقتصادية والقانونية، المجلد ٢٤، العدد الثاني ٢٠٠٨، ص ٦٣٩.

(٦) حناملة، ثامر، مدرسة الحديث في الري، مكتبة الرافدين، إربد، الأردن، ١٤٣٧هـ،

٢٠١٦م. ص ١١.

(٧) انظر: زهير، المدارس الحديثية، ص ٦٣٩.

ثالثاً: الرضا الاجتماعي: فالمعيار الرئيسي لتقويم الإبداع هو أن يكون الناتج فيه جديداً وأصيلاً، وذا قيمة للمجتمع في الوقت ذاته، والمجتمع هنا هم علماء الحديث عموماً والمهتمون بعلم العلل خاصة، يقول الأستاذ مصطفى باحو - من علماء المغرب - في ثنايا استعراضه ما كتبه المعاصرون في علم العلل عن المقدمة: «وهو أحسن دراسة صدرت في الباب» وذكر أنه تعقب الشيخ في بعض المسائل^(١)، وقال د العوني: «وكذلك مقدمة د. همام سعيد في تحقيقه لكتاب شرح علل الترمذي لابن رجب، وهي مقدمة متميزة، وهي من أوائل الدراسات العصرية لعلم العلل»^(٢).

ويقول أحد الباحثين من المملكة العربية السعودية: «استفدت في هذا الموضوع-أسباب العلة- مما كتبه الدكتور همام سعيد في مقدمة شرح علل الترمذي، فهو بحق أحسن من كتب في هذا الموضوع»^(٣). فتلك شهادة مغربية، وأخرى مشرقية.

رابعاً: استمرارية الأثر: فكلما استمرت الآثار المترتبة على الناتج كان ذلك دليلاً على أهميته وقيمه بالنسبة لمجاله، وبقدر ما يمثل الناتج إضافة أساسية بقدر ما تستمر آثاره، ومقدمة تحقيق شرح العلل تعد المقرر الأول في كثير من الجامعات في مساق علل الحديث، بل إن مصطلحات المقدمة انبثقت منها رسائل علمية متعددة، فعلى سبيل المثال وضع د. همام مبحثاً كاملاً بعنوان: الأشباه في العلل، وهو مصطلح مبتكر لم يسبق إليه، فقدم الباحث رامز أبو السعود رسالته في الماجستير بعنوان: «الأشباه في العلل - دراسة نظرية تطبيقية»^(٤)، واعتراضاً منه بفضل ابتكار د. همام لهذا المصطلح عنون المطلب الثاني ب: جهود الشيخ همام سعيد في الأشباه، فذكر إطلاق هذا الاسم من قبل د. همام اعتماداً على إحدى قواعد ابن رجب، ثم ناقش د. همام في بعض المسائل.

(١) باحو، مصطفى، العلة وأجناسها عند المحدثين. دار الضياء طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، ٢٠١٦ م. ص ٢٧١.

(٢) العوني: حاتم، المدخل إلى فهم علم العلل، الطبعة الثانية ١٤٣١ هـ، ص ٧.

(٣) سلطان فهد الطبيشي أستاذ الحديث المشارك بقسم الثقافة الإسلامية كلية التربية، جامعة الملك سعود. له كتاب مقدمة في علم العلل، منشور على الرابط: <https://fac.ksu.edu.sa/sites/default/files>

٢٨ / ٨ / ٢٠٢٠ الساعة ٣ وربع.

(٤) نوقشت في الجامعة الأردنية، عام ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، بإشراف د. حمزة الملباري.

وكذلك كتب الباحث أحمد البشابشة رسالة الدكتوراه تحت عنوان: «التراجم المعللة»^(١)، وبين أسبقية د. همام في وضع هذا المصطلح، فعنون أحد مباحث رسالته ب: نشأة مصطلح التراجم المعللة، وقال: «يعد د. همام سعيد أول من أطلق هذه التسمية على هذا الفن بحسب ما وقفت عليه»^(٢).

والذي أراه أن أثر المقدمة الخفي في نشر علم العلل ربما كان أكبر من أثرها المذكور في الكتب والرسائل، وذلك أن تقسيمات د. همام ومصطلحاته شاعت في الوسط العلمي جيلاً بعد جيل، ومع كثرت تداولها أصبحت من المسلمات، وهذه المقدمة زاد عمرها عن أربعين سنة، فتناقلتها الأجيال، ومع كثرة التداول لم يسأل الناس عن نشأة هذه المصطلحات والتقسيمات، ومن أين جاءت، تماماً عندما تحدث الشافعي - رحمه الله - في الرسالة عن العام والخاص، والمقيد والمطلق، وغيرها من المصطلحات الأصولية وتداولتها الأجيال، فلا يقال لمن قال هذا عام وهذا خاص من أين لك هذا المصطلح، وهكذا في سائر الفنون، مع إقرار الجميع بابتكار الإمام الشافعي - رحمه الله - لعلم الأصول.

فمثلاً يكتب الناس في العلل عن: ميدان علم العلل، وهذا عنوان من وضع د. همام^(٣)، وقسم مناهج التأليف في علم العلل قائلاً: ١- على طريقة المسائل المتفرقة. ٢- طريقة المسانيد المعللة. ٣- طريقة الأبواب المعللة. ٤- طريقة جمع الحديث المعلل لشيخ واحد. ٥- طريقة التراجم المعللة. ٦- ما كتبه علماء المصطلح في كتب علوم الحديث، وهكذا فيتناقل الناس هذه التقسيمات، وأصلها للدكتور همام^(٤). ومما ساعد في انتشار هذه المصطلحات والتقسيمات أن تلاميذ د. همام سعيد ممن درسوا المقدمة عليه ولا سيما في الجامعة الأردنية، تفرقوا في العالم الإسلامي للتدريس في جامعات دول الخليج العربي وفلسطين وغيرها؛ فنقلوا هذه الابتكارات، كما وفد عدد من الطلبة العرب والمسلمين على الجامعة الأردنية فتأثروا بهذه الابتكارات؛ فكثرت تداولها، والتأليف على أساسها وتدريسها.

(١) نوقشت في جامعة اليرموك، سنة ٢٠١٢م، وطبعت في مركز إحسان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م.

(٢) البشابشة، أحمد، التراجم المعللة. ص ٣٩، مصدر سابق.

(٣) مقدمة تحقيق شرح العلل، (١ / ٢٥)

(٤) انظر: مقدمة تحقيق شرح العلل (١ / ٤٥-٤٦).

المطلب الثالث: مهارات الابتكار في مقدمة تحقيق شرح العلل ومجالاته:

أولاً: الطلاقة: أي أن المبتكر على درجة مرتفعة من القدرة على سيولة الأفكار وسهولة توليدها، ومن ذلك:

١- **الطلاقة الاصطلاحية:** فالمصطلحات التي قام بتوليدها الدكتور همّام عديدة، وسأذكرها بحسب ورودها في المقدمة: مصطلح مسارات الرواية في البلدان، عند حديثه عن علل ابن المديني^(١)، ومصطلح أستاذ فن العلل، أطلقه على الإمام أحمد^(٢). ويمكن أن نذكر هنا بعض التعريفات التي ابتكرها د. همّام كتعريفه للاختلاط بقوله: «آفة عقلية تورث فساداً في الإدراك، وتصيب الإنسان في آخر عمره، أو تعرض له بسبب حادث ما، كفقْد عزيز، أو ضياع مال»^(٣)، وبعد التعريف ابتكر مصطلح: الكشف عن الاختلاط، ووضع مصطلح: خفة الضبط بالأسباب العارضة^(٤)، وذكر من ذلك مصطلح: الانشغال عن العلم حفظاً وكتابة^(٥)، ووضع مصطلح: قصر الصحبة للشيخ، وقلة الممارسة لحديثه^(٦)، ومصطلح: المدارس الحديثية^(٧)، ومصطلح: خريطة الأسانيد^(٨)، ومصطلح: الأشباه في العلل^(٩).

٢- **طلاقة العناوين:** فعنون: ميدان علم العلل^(١٠)، وعنوان: أسباب العلة^(١١)، ومن عناوينه ومصطلحاته: وسائل الكشف عن العلة^(١٢)، وقوله في أنواع العلل: علة موضوعها: إبطال السماع الصريح، أو نفي السماع المتوهم^(١٣)،

- (١) المصدر السابق. (١ / ٦٢).
- (٢) المصدر السابق. (١ / ٧٠).
- (٣) المصدر السابق. (١ / ١٠٣).
- (٤) المصدر السابق. (١ / ١٠٧).
- (٥) المصدر السابق. (١ / ١١٠).
- (٦) المصدر السابق. (١ / ١١٣).
- (٧) المصدر السابق. (١ / ١٢٨).
- (٨) المصدر السابق. (١ / ١٣٢).
- (٩) المصدر السابق. (١ / ١٦٥).
- (١٠) المصدر السابق. (١ / ٢٥).
- (١١) المصدر السابق. (١ / ٩٣).
- (١٢) المصدر السابق. (١ / ١٢١).
- (١٣) المصدر السابق. (١ / ١٣٩).

وقوله: علة إبدال الإسناد كله أو بعضه^(١)، وقوله: علة الوهم في رفع الموقوف، أو وصل المرسل أو ما فيه انقطاع^(٢)، وقوله: علة جمع الشيوخ وبقاء اللفظ واحداً^(٣).

وقد يقول قائل: إن هذه العناوين والمصطلحات أصلها التطبيقي وورد عند المتقدمين فأين الابتكار فيها؟ والجواب على ذلك أن د. همام استطاع بعقليته الابتكارية أن يجعلها في قالب اصطلاحي، وعناوين رئيسة، فهو لم يسبق إليها، وإلا فإن المادة العلمية كانت مبثوثة للجميع، فلماذا لم يفعلوا كما فعل؟!

٣- طلاقة التقسيمات: ومن ذلك تقسيمه البديع لمناهج كتب العلل المتقدمة، حيث جعلها على ستة مناهج^(٤)، وتقسيمه لأسباب العلة: السبب العام، ثم ساق باقي الأسباب^(٥)، وأيضاً تقسيمه لوسائل الكشف عن العلة^(٦)، وتقسيماته لأنواع العلل في السند^(٧)، وتقسيماته لأنواع العلل في المتن، فجعلها خمسة أنواع^(٨).

ثانياً: المرونة: وهي القدرة على إنتاج عدد متنوع ومختلف من الأفكار - أو الاستجابات والتحول من نوع معين من الفكر إلى نوع آخر - أي: إمكانية تغيير إستراتيجياته في النظر للمتغير الواحد، فإذا كانت الطلاقة تهتم بعدد الأفكار، فإن المرونة تهتم بطريقة التفكير أو إستراتيجية التفكير، والقدرة على التحول من طريقة إلى أخرى بحسب مثيرات الفكر، فالمبدع لا يجمد على طريقة واحدة، بل ينوع طرق تفكيره، فلقد كانت الطريقة التقليدية في تحقيق التراث ماثلة أمام عين د. همام، وهي الطريقة الأسهل بتقسيم البحث إلى قسمين: قسم الدراسة، وقسم التحقيق، والقسم الثاني عمل مهاري لا بد من إتقانه وفق أصول متفق عليها عند المختصين، أما القسم الدراسي فاستطاع د. همام أن يغير طريقته بعيداً عن الطريقة التقليدية، وإن طبق بعض حيثياتها كالمعتاد،

- (١) المصدر السابق. (١ / ١٤٤).
- (٢) المصدر السابق. (١ / ١٤٩).
- (٣) المصدر السابق. (١ / ١٥٢).
- (٤) المصدر السابق. (١ / ٤٥).
- (٥) المصدر السابق. (١ / ٩٣).
- (٦) المصدر السابق. (١ / ١٢٨).
- (٧) المصدر السابق. (١ / ١٣٩).
- (٨) المصدر السابق. (١ / ١٥٦).

من وصف النسخ، وترجمة للمؤلف ونحو ذلك، ولكنه غير طريقة تفكيره من واصف لكتاب إلى واضح نظرية وفق هذا الكتاب، فأخرج نفسه من هذا الحصار الفكري، على الرغم من أن الطريقة المعتادة هي الأسهل، وكأني به قد استلهم من ابتكار ابن رجب ابتكارًا، يقول ابن رجب في سبب وضعه لقواعد علم العلل: «وأردت بذلك تقريب علم العلل على من ينظر فيه، فإنه علم قد هجر في هذا الزمان، فقد ذكرنا في كتاب العلم أنه علم جليل قل من يعرفه من أهل هذا الشأن، وأن بساطه قد طوي منذ أزمان، وبالله المستعان، وعليه التكلان»^(١). فالدكتور همام أراد تقريب هذا العلم لأبناء عصره، فوضع نظريته في علم العلل، ولا سيما أن هذا العلم في زمن تأليف د. همام لمقدمته كان أشد غربة عند المشتغلين في الحديث مما وصف ابن رجب في زمانه، فما بالك بغيرهم؟ ولك أن تقارن نخصة علم العلل في زماننا لتدرك ما صنعته مقدمة د. همام في العلل، فكم كتب في العلل بعد هذه المقدمة من رسائل وكتب، وكم عقدت الدروس وأقيمت الندوات والمناظرات؟! وكيف سارت مصطلحات هذه المقدمة المباركة وعناوينها وتقسيماتها بين المختصين، وتداولها الدارسون؟!

ثالثًا: الأصالة:

إذا كانت الطلاقة تهتم بعدد الأفكار، والمرونة تهتم بتغيير طريقة التفكير، فإن الأصالة تعني التفرد والإبداع وابتكار الجديد، وفي الحقيقة أننا لا يمكن عزل الأصالة عن الطلاقة والمرونة، فهي مراحل متتالية تولد الإبداع، وسميت الأصالة بذلك إشارة أن الابتكار الجديد هو أصيل لصاحبه، وليس تقليدًا للآخرين.

ويقصد بها تلك القدرة التي تبدو في سلوك الفرد عندما يبتكر بالفعل إنتاجًا جديدًا، فالأصالة تعني الجدة أو الندرة، وتعرف بأنها القدرة على إبداع أفكار جديدة وفريدة وخلاقة أو توليدها، وسبق بيان أصالة مقدمة د. همام بأنه أول من كتب نظرية معاصرة لعلم العلل، وأن هذه النظرية فتحت أبوابًا كانت مغلقة أمام الباحثين، وقد أشار إلى ذلك المختصون بتاريخ علم العلل كما سبق بيانه، وأضيف لما سبق بعض النتائج التفصيلية التي سطرها د. همام

(١) شرح علل الترمذي، (٢ / ٦٦٣).

في مقدمته، فمن ذلك: تقسيمه للنقد الحديثي إلى قسمين: الأول: علم الجرح و التعديل، وهو نقد أولي سهل ميسور، يهتم بالقوادح الظاهرة، القسم الثاني: علم العلل، وهو نقد ثانوي أعلى من سابقه وأدق^(١).

ومن نتائجه قوله: «ولعل ابن المديني هو أول من نقل الحديث إلى ميدان الدراسة التحليلية الشاملة المستقصية»^(٢). ومن نتائجه التنبيه إلى أن الباحثين في الحديث قد يقعون في الوهم والخطأ إذا اعتمدوا على كتب التراجم المشهورة وتركوا كتب العلل، ثم مثل لذلك بقضية إثبات السماع فقال: «فإن كثيرين يذكر لهم السماع وحقيقة الأمر غير ذلك»^(٣)، وبعد أن استعرض كتب العلل قال: «ولهذا حق لنا أن نقول إن كتب العلل هي الكتب الأولى لعلوم الحديث»^(٤)، ويفصل في ذلك قائلاً: «إن كل جزئية من جزئيات علوم الحديث داخلية في علم العلل، إما دخولاً مباشراً، أو غير مباشر كخادم لأصول هذا العلم وضروراته»^(٥)، وقريب منه قوله: «إذ ظهر لي بعد البحث والاستقصاء أن أكثر علوم الحديث استمد من علم العلل»^(٦)، ووضح د. همام مفهوم الضبط في تعريف الحديث الصحيح فقال: «فالضبط التام الكامل هو ضبط نسبي يدخل فيه الوهم و الخطأ القليل النادر»^(٧)، وعن أهلية الناقد، يقول: «إنه يحتاج ملكة علمية متعددة الجوانب، كثيرة العناصر، تمتاز بالشمول و التكامل»^(٨)، وبعد مناقشة مستفيضة لموضوع اشتراط اللقاء، وذكر لرأي الإمام مسلم، ورأي الإمام البخاري، وانتقاده لابن رجب؛ لانتصاره لرأي البخاري خلاص د. همام إلى نتيجتين: «أن رأي الإمام مسلم أوجه وأثبت، وأنه يتناول أدنى مراتب الاتصال، الثانية: لا يمنع هذا أن يصنف غيره كتاباً فيضيف شرطاً كشرط اللقاء والسماع، ولكن هذا الشرط يبقى شرط كتاب لا شرط صحة.

(١) المصدر السابق، (١ / ٢٥).

(٢) المصدر السابق، (١ / ٦٢).

(٣) مقدمة شرح العلل، (١ / ٦٣).

(٤) المصدر السابق، (١ / ٧٣).

(٥) المصدر السابق، (١ / ١٢٧).

(٦) المصدر السابق، (١ / ١٣٦).

(٧) المصدر السابق، (١ / ٩٤).

(٨) المصدر السابق، (١ / ١٢٧).

والله أعلم»^(١)، ومن نتائجه: «أن كتب الحديث كتب معللة، روعي في اختيارها سلامتها من العلة، وخاصة كتاب البخاري ومسلم»^(٢). وفي ذلك رد على من يفتش عن علل الحديث في كتب الحديث المشهورة، ولا سيما صحيح البخاري ومسلم.

رابعاً: الحساسية للمشكلات:

ويقصد بها الوعي بوجود مشكلات أو حاجات أو عناصر ضعف في البيئة أو الموقف، ويعني ذلك أن بعض الأفراد أسرع من غيرهم في ملاحظة المشكلة والتحقق من وجودها في الموقف، ولا شك أن اكتشاف المشكلة يمثل خطوة أولى في عملية البحث عن حل لها، ومن ثم إضافة معرفة جديدة أو إدخال تحسينات أو تعديلات على معارف أو منتوجات جديدة، وهذا عين ما قام به د. همام حيث أدرك غربة علم العلل في زماننا، وحاجة الناس لتقريبه إليهم، وما ترتب على ذلك من إهمال النقد الحديثي المتكامل، وكلها ثغرات ومشكلات واجهت علم الحديث، فأدخل تحسيناته، وأضاف معرفة جديدة تتمثل بنظرية عن علم العلل، معتمداً على ما قدمه ابن رجب، ولكنه صاغه بأسلوب يفهمه أهل عصره، فقرب إليهم علماً كان يظن أنه كهانة، ففتح باباً مغلقاً، وسهل طريقاً وعرة، حتى وصلنا إلى نهضة في علم العلل مشهودة، وكل ذلك بفضل الله تعالى ثم بفضل هذه المقدمة.

خامساً: الإثراء والتفاصيل:

هي قدرة الفرد على الإضافة إلى الفكرة الأصيلة؛ لجعلها أكثر ملاءمة؛ لمواجهة المشكلة وإقناع من حوله، وهي القدرة على وضع تفاصيل الخطط أو الأفكار، وتسهم عملية الإفاضة أو التفاصيل في عملية إكمال الموقف أو الموضوع قيد البحث أو الحل، بحيث يصبح أكثر تفصيلاً، وهذا ما قام به د. همام حيث أضاف تفاصيل مكملة لنظريته، من حيث حسن تقسيم الدراسة إلى أبواب وفصول ومباحث، ونقل أقوال العلماء في المسائل التي كان يطرحها ومناقشتها والترجيح بينها، بل ونقد

(١) المصدر السابق. (١ / ٢٠٦).

(٢) المصدر السابق. (١ / ٣١٢).

بعض آراء كبار علماء العلل، كتنقده للإمام السخاوي حيث قال: «وأرى أن كلام السخاوي هذا- في جعل معرفة العلة هيئة نفسانية وخواطر وجدانية- لا يستفاد من مجموع كلام النقاد، ولا يشهد له هذا العلم، بل يشهد عليه، وهو مرفوض بمنطق مئات الأمثلة والشواهد التي احتوتها هذه الرسالة»^(١)، وكذلك انتقاده لتعريف الحافظ ابن حجر في تعريف المعلل بقوله: «ثم الوهم إن اطلع عليه بالقرائن وجمع الطرق فهو المعلل». قال د. همام: «ولا يصلح هذا لأن يكون حدًا للعلة، إذ هو بيان لطرق الكشف عن العلة»^(٢)، ومن الإضافات المكملة لعمله الابتكاري أنه كان يقترح بعض المشاريع العلمية لخدمة علم العلل، فقال عند حديثه عن كتاب العلل للإمام أحمد: «ولو قدر لهذا الكتاب أن ترتب مادته بحيث يجمع ما يتعلق بوكيع، وما يتعلق بشعبة، وما يتعلق بمهشم وغيرهم، لو قدر له ذلك لكن على غاية من الفائدة؛ لما يذكره من دقائق المعارف عن هؤلاء»^(٣)، وطالب بترتيب علل الإمام أحمد على نحو ترتيب أبي طالب لعلل الترمذي الكبير على الأبواب، فقال: «وأي كتاب سيكون علل أحمد لو قدر له أن يرتب بمثل هذا الترتيب»^(٤)، ومن الإضافات وضع المعايير، فبعد بيانه لميدان علم العلل أنه أحاديث الثقات بين سبب دخول أحاديث الضعفاء في كتب العلل، ثم بين معيار خفائه بقوله: «إن معيار خفائه سؤال الحفاظ عنه، ووروده في كتب العلل»^(٥)، ومن الإضافات لعمله أنه قام بطباعة عمله ونشره، وقسمه لفصول، الأول: في العلة وميدانها وأشهر علماء العلل، والثاني: في التعريف بأصل الكتاب وصاحبه، ومنهج ابن رجب فيه ومصادره في العلل، الفصل الثالث: دراسة حول علم العلل من خلال كتاب ابن رجب، الفصل الرابع: دراسة في مصطلح الحديث من خلال كتاب شرح العلل، ووضع له فهارس تفصيلية، وعلق على الجزء الخاص بالتحقيق بتعليقات علمية، كما وضع عناوين توضيحية لكلام ابن رجب.

(١) مقدمة شرح العلل، (١ / ١٢٣).

(٢) المصدر السابق. (١ / ٢٢).

(٣) المصدر السابق. (١ / ٧٤).

(٤) المصدر السابق. (١ / ٨١).

(٥) المصدر السابق. (١ / ٢٩).

ووصف عمل د. همام بالابتكار لا يعني عدم انتقاد الكتاب وإبداء الملحوظات عليه، فقد انتقد في نسبة التعريف الذي اختاره للإمام العراقي بقوله: «نقل البقاعي في نكته على ألفية العراقي كلاً ما آخر للعراقي جاء فيه: والمعلل خير ظاهره السلامة اطلع فيه بعد التفتيش على قادح»^(١)، والصواب كما أفادني أ. د. نافذ حسين حماد أستاذ الحديث الشريف في الجامعة الإسلامية في غزة، أن التعريف للمحافظ ابن حجر في ثنايا مناقشة البقاعي لشيخه ابن حجر^(٢).

(١) المصدر السابق. (١ / ٢٢)

(٢) انظر: البقاعي، بهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، النكت الوفية بما في شرح الألفية، تحقيق ماهر الفحل، دار الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م، (١ / ٥٠١).

الخاتمة

أهم نتائج الدراسة:

١- تعد مقدمة تحقيق كتاب «شرح علل الترمذي لابن رجب» التي كتبها د. همام سعيد عملاً مبتكراً لم يسبق إليه، وكان له فاعلية واضحة في وضع نظرية علمية لعلم العلل في زمننا المعاصر، وفتح آفاق البحث العلمي فيه، وذلك أن معايير الابتكار تنطبق على هذه المقدمة.

٢- اتصف مؤلف المقدمة بروح ابتكارية واضحة، على الرغم من الأحوال الصعبة التي أحاطت بعمله في تحقيق الكتاب، واستطاع بهذه الروح الكشف عن مواضع الإبداع عند ابن رجب الحنبلي، كما جعلته يقدم عملاً مبتكراً.

٣- ظهرت معالم الابتكار في المقدمة بما احتوته من مكونات الابتكار، على النحو الآتي: الطلاقة الاصطلاحية، وطلاقة العناوين، وطلاقة التقسيمات، وكذلك المرونة الفكرية فقد كانت الطريقة التقليدية في القسم الدراسي لتحقيق الكتاب ماثلة أمام عينيه، لكن د. همام استطاع أن يغير طريقة تفكيره من واصف لكتاب، إلى واضح نظرية وفق هذا الكتاب.

وكذلك الأصالة، وهي تعني الجودة أو الندرة، ويعد د. همام أول واضح لنظرية معاصرة لعلم العلل، وأن هذه النظرية فتحت أبواباً كانت مغلقة أمام الباحثين، وقد أشار إلى ذلك المختصون بعلم العلل.

وأيضاً الحساسية للمشكلات، حيث أدرك د. همام غربة علم العلل في زماننا، وحاجة الناس لتقريبه إليهم، وما ترتب على ذلك من إهمال النقد الحديثي المتكامل، وكلها ثغرات ومشكلات واجهت علم الحديث، فأدخل تحسيناته وأضاف معرفة جديدة تتمثل بنظرية علمية عن علم العلل، معتمداً على ما قدمه ابن رجب، ولكنه صاغه بأسلوب يفهمه أهل عصره، حتى وصلنا إلى نهضة في علم العلل مشهودة، وكل ذلك بفضل الله تعالى ثم بفضل هذه المقدمة.

وكذلك الإثراء والتفاصيل وهي تسهم في عملية إكمال الموقف أو الموضوع قيد البحث أو الحل، بحيث يصبح أكثر تفصيلاً، وهذا ما قام به د. همام حيث

أضاف تفاصيل مكملة لنظريته، من حيث حسن تقسيم الدراسة إلى أبواب وفصول ومباحث، ونقل أقوال العلماء في المسائل التي كان يطرحها ومناقشتها والترجيح بينها، بل ونقد بعض آراء كبار علماء العلل، ومن الإضافات المكملة لعمله الابتكاري أنه كان يقترح بعض المشاريع العلمية لخدمة علم العلل، ومن الإضافات وضع المعايير، وكذلك علّق على الجزء الخاص بالتحقيق بتعليقات علمية، كما وضع عناوين توضيحية لكلام ابن رجب.

كما يوصي الباحث بدراسة ابتكارات العلماء المعاصرين في العلوم الشرعية عمومًا، وعلماء الحديث خاصة، ومن ذلك ابتكار د. نورالدين العتر لعلم مناهج المحدثين في كتابه الموازنة بين جامع الترمذي والصحيحين، وكذلك جهوده في علم مصطلح الحديث.

قائمة المراجع.

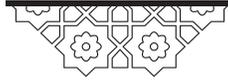
- ١- باحو، مصطفى، العلة وأجناسها عند المحدثين. دار الضياء طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٩٦م.
- ٢- بشابشة، أحمد، التراجم المعللة، مركز إحسان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.
- ٣- جروان، فتحي، الموهبة والتفوق والإبداع، العين، دار الكتاب الجامعي ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ٤- حتاملة، ثامر، مدرسة الحديث في الري، مكتبة الرافدين، إربد، الأردن، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.
- ٥- الحميد: سعد بن عبد الله، والجريسي: خالد بن عبد الرحمن، مقدمة تحقيق العلل لابن أبي حاتم المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، الناشر مطابع الحميضي، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- ٦- الدريني، حسين عبد العزيز، جامعة قطر، الابتكار تعريفه وتنميته، مقال منشور على النت، على رابط <https://qspace.qu.edu.qa/bitstream>
- ٧- رامز، أبو السعود، الأشباه في العلل، رسالة دكتوراه، نوقشت في الجامعة الأردنية، عام ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م، بإشراف د. حمزة المليباري.
- ٨- زهير، محمد، المدارس الحديثية الدلالة و المضمون، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد ٢٤، العدد الثاني ٢٠٠٨.
- ٩- السرور: ناديا، مقدمة في الإبداع، دار ديونو للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.
- ١٠- سعيد، همام عبد الرحيم سعيد، شرح علل الترمذي لابن رجب، مكتبة المنار، الزرقاء- الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ١١- شاهين: عوني، وزايد: حنان، الإبداع، دار الشروق، عمّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

- ١٢- صبحي، تيسير، الموهبة والإبداع، دار التنوير العلمي، ١٩٩٢م.
- ١٣- الضبع: أحمد، صناعة الأفكار المبتكرة، دار الأجيال للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ١٤- الطبيشي، فهد، مقدمة في علم العلل، منشور على النت، على الرابط، <https://fac.ksu.edu.sa/sites/default>
- ١٥- العبيدي وآخرون، محمد جاسم، الإبداع والتفكير الابتكاري، ديونو للنشر، عمّان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- ١٦- عجّين، علي، الإبداع رؤية إسلامية، ديونو للنشر عمّان، الطبعة الثانية، ٢٠١٥م.
- ١٧- العوني: حاتم، المدخل إلى فهم علم العلل، الطبعة الثانية ١٤٣١هـ، منشور على النت، تاريخ الدخول ٢٨ / ٨ / ٢٠٢٠م، على الرابط <http://www.dr-alawni.com/files/books/pdf>
- ١٨- ابن فارس: أحمد بن حسين بن زكريا، معجم مقاييس اللغة العربية، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ١٩- كربولي: آرثر، الإبداع في التربية والتعليم، ترجمة إبراهيم الحارثي، ومحمد مقبل، مكتبة الشقري، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- ٢٠- مختار، أحمد، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ٢١- مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ٢٢- نجم، عبود، إدارة الابتكار، دار وائل للنشر، عمّان، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
- ٢٣- نوفل: محمد بكر: الإبداع الجاد مفاهيم وتطبيقات، ديونو للطباعة والنشر، عمّان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

الشرح المفيد في بيان أمنية الشهيد

(دراسة تحليلية لحديث تمني الشهيد الرجوع إلى الدنيا في سنن النسائي)

د. إبراهيم محمد محمود عبده*



ملخص

يهدف هذا البحث إلى أمور عدة؛ من أهمها: بيان مكانة الشهيد وكراماته وفضائله عند الله تعالى، ونشر ثقافة الجهاد والاستشهاد وإحيائها في نفوس المسلمين؛ كي يطهروا أوطانهم ومقدساتهم من دنس الصهاينة المجرمين. وقد اتبع الباحث المنهج التحليلي والاستنباطي في شرح الحديث، وبيان لطائفه وفوائد الخاصة بالمتن والإسناد على حدٍ سواء. وقد توصل الباحث إلى جملة من النتائج؛ أهمها: أنه لم يُذكر في آية أو حديث أن أحدًا من أهل الجنة يتمنى الرجوع إلى الدنيا سوى الشهيد، بخلاف العصاة والكفار وأهل النار فإنهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ ليؤمنوا ويتوبوا، وأنَّ السرَّ في تمني الشهيد الرجوع إلى الدنيا؛ ليقتل في سبيل الله تعالى مرات أخرى؛ لما يرى من الكرامات، وأنَّ هذه الكرامات لا تنحصر فيمن قُتل شهيدًا، بل تشمل كل من قصد الشهادة وسعى لها، وإن مات على فراشه.

كلمات مفتاحية: الشرح المفيد، أمنية الشهيد، سنن النسائي.

Abstract:

This research aims at several things: The most important of which are: clarifying the status of the martyr, his dignities and virtues with God Almighty, and spreading the culture of jihad and martyrdom and reviving it in the hearts of Muslims in order to purify their homelands and their sanctities from the filth of the criminal Zionists. The researcher followed the analytical and deductive approach in explaining the hadith and showing its benefits. The researcher reached a set of conclusions: The most important of them is: It is not mentioned in a verse or hadith that none of the people of Paradise wants to return to this world except the martyr, unlike the people of Hell who wish to return to the world of faith and repentance, and that the secret lies in the desire of the martyr to return to this The world, to kill again for the sake of God Almighty because of the dignities he sees, and that these dignities are not specific to those who have been martyred, but this includes everyone who intends to be martyred even if he dies in his bed.

Key words: The useful explanation, The wish of the martyr, Sunan al'imam alnisiyyu.

* أستاذ الحديث الشريف المساعد، كلية الدعوة الإسلامية- غزة، تاريخ استلام البحث ٢٠٢٠/٨/٣٠م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠٢٠/١٠/٢٠م. ibrahemm22011@gmail.com

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المجاهدين، وقائد الغر المحجلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلما كانت التجارة مع الله تجارة رابحة؛ سعى إليها المتقون، وبحثوا عن أبوابها، فلم يجدوا أعظم من باب الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى، إذ فيه علامة ظاهرة تدل على صدق المرء مع ربه في إتلافه نفسه وماله من أجل إعلاء رايته وقهر عدوه، وهذه التجارة أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فقد بشر الله عباده المجاهدين بالفوز العظيم، وأظهر لهم فضائل وكرامات تميزهم عن غيرهم من المؤمنين، حتى تمنى الشهيد بعد ما شاهدها عياناً أن يعود إلى الدنيا ليقتل في سبيل الله مرات عديدة؛ طمعاً في المزيد من فضل الله تعالى. وفي هذا البحث سوف أقوم بتسليط الضوء على هذه الفضائل والكرامات التي جعلت الشهيد يتمنى العودة إلى الدنيا من خلال دراسة تحليلية للحديث الذي أشار إلى هذا المعنى، وهو حديث الصحابي محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه في سنن النسائي، وقد أسميت بحثي هذا بـ «الشرح المفيد في بيان أمنية الشهيد».

أولاً: أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تكمن أهمية الموضوع وأسباب اختياره فيما يأتي:

١. حاجة الناس إلى من يذكرهم بفضل الجهاد والشهادة في سبيل الله لا سيما على أرض فلسطين المباركة المغتصبة من قبل أعداء الله اليهود الصهاينة، خاصة ونحن نعيش في زمن أساء فيه أعداؤنا استخدام مصطلح الجهاد حتى وسموه بالإرهاب، وكذلك بعض أبناء المسلمين الذين أفرطوا في استخدامه بلا ضوابط ولا أخلاق حتى ولجوا بالدماء، فقتلوا الأبرياء باسم هذا المصطلح الناصع وهو منهم براء!

٢. حاجة المجاهدين إلى من يثبتهم ويرفع من همهم للتضحية بالنفس والمال في سبيل الله، وبذل المهج والأرواح دفاعًا عن العباد والبلاد التي استباحها أعداء الله.
٣. يُعدُّ هذا البحث ضربًا من ضروب الجهاد، وهو جهاد القلم واللسان، عملاً بقول الصادق المصدوق عليه السلام: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَنْفُسِكُمْ، وَأَلْسِنَتِكُمْ»^(١).

ثانيًا: أهداف الموضوع:

١. بيان مكانة الشهيد وكراماته وفضائله عند الله تعالى؛ دفعًا لعجلة الجهاد والشهادة في سبيل الله.
٢. نشر ثقافة الجهاد والاستشهاد وإحيائها في نفوس المسلمين؛ كي يطهروا أوطانهم ومقدساتهم من دنس الصهاينة المجرمين.
٣. بيان دور السنّة النبوية بالحث على الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى.
٤. بيان اهتمام العلماء بأحاديث الجهاد والشهادة من خلال تحليلاتهم وأقوالهم وشروحهم لها.

٥. الإسهام في نصره الجهاد والمجاهدين على أرض فلسطين المباركة من خلال هذا السفر المتواضع الذي يبرز مكانة الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى.

ثالثًا: منهج الباحث: يتبع الباحث المنهج التحليلي والاستنباطي في شرح الحديث، حيث سيقوم بدراسة الحديث وشرحه شرحًا تحليليًا لمتنه وإسناده؛ ليستنبط منه اللطائف والفوائد.

رابعًا: خطة البحث: ينقسم البحث بعد هذه المقدمة إلى: مبحثين، وخاتمة، حسب الآتي:

المبحث الأول: ما يخص قضايا الإسناد.

المبحث الثاني: ما يخص قضايا المتن.

الخاتمة: النتائج والتوصيات.

(١) أبو داود السجستاني، السنن (٣/ ١٠)، كتاب الجهاد، باب كراهية تزك الغزو، حديث رقم ٢٥٠٤، وأحمد بن حنبل الشيباني، المسند (١٩/ ٢٧٢)، حديث رقم ١٢٢٤٦، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، وقد صححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند، وقال: على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد - وهو ابن سلمة - فمن رجال مسلم.

قال الإمام النسائي - رحمه الله -:

أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِقِيَّتِهِ، عَنْ بَحِيرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ جُبَيْرِ ابْنِ ثَفَيْرٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي عَمِيرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنَ النَّاسِ مِنْ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ يَقْبِضُهَا رَبُّهَا نُحِبُّ أَنْ تَرْجَعَ إِلَيْكُمْ، وَأَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا غَيْرَ الشَّهِيدِ».

قَالَ ابْنُ أَبِي عَمِيرَةَ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَأَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي أَهْلُ الْوَبَرِ وَالْمَدْرِ»^(١).

المبحث الأول: قضايا الإسناد

المطلب الأول: تخريج الحديث:

أخرجه النسائي في الكبرى^(١) من طريق عمرو بن عثمان به بمثله، وأخرجه أحمد في مسنده^(٢)، والبخاري في تاريخه^(٣)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ^(٤)، من طريق حيوة بن شريح، وأخرجه ابن أبي عاصم في الجهاد^(٥)، من طريق عبد الوهاب بن نجدة الحوطي. كلاهما (حيوة وعبد الوهاب) عن بقيقة بن الوليد به، بنحوه.

وللحديث شواهد:

الأول: أخرجه النسائي^(٦)، وأحمد^(٧)، من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه بنحوه.

(١) أحمد بن شعيب النسائي، السنن (٦/ ٣٣)، كتاب الجهاد، باب تَمَّتِ الْقِتْلَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ٣١٥٣.

(٢) أحمد بن شعيب النسائي، السنن الكبرى (٤/ ٢٩٣)، كتاب الجهاد، باب تَمَّتِ الْقِتْلَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ٤٣٤٦.

(٣) ابن حنبل، المسند (٢٩/ ٤٢٥)، حديث رقم ١٧٨٩٤.

(٤) أبو القاسم، سليمان بن أحمد الطبراني، التاريخ الكبير (١/ ١٥).

(٥) يعقوب بن سفيان الفسوي، المعرفة والتاريخ، (١/ ٢٨٧).

(٦) أبو بكر، أحمد ابن أبي عاصم الشيباني، الجهاد، (٢/ ٥٤٧)، حديث رقم ٢١٤.

(٧) أحمد بن شعيب النسائي، السنن، (٦/ ٣٥)، كتاب الجهاد، باب مَا يَتَمَتَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ، حديث رقم ٣١٥٩، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ٢٦٩)،

رقم ٢٢٢٨، وصحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩٨٥)، رقم ٥٦٣٨.

(٨) ابن حنبل، المسند، (٣٧/ ٣٨٣)، حديث رقم ٢٢٧١٠، وقد صححه الأرناؤوط.

الثاني: أخرجه النسائي^(١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، بمعناه.

الثالث: أخرجه البخاري^(٢)، ومسلم^(٣)، من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، بنحوه.

الرابع: أخرجه مسلم^(٤)، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرَوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ حُضِرٍ، لَهَا فَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَنْسُخُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: «هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟» قَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسُخُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُنْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُريدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا».

الخامس: أخرجه الترمذي^(٥)، وابن ماجه^(٦)، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، يَقُولُ: لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ لِي: يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَشْهَدَ أَبِي، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدِينًا، قَالَ: أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا. فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ عَطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُخَيِّبُنِي فَأَقْتُلُ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا

(١) النسائي، السنن، (٦/ ٣٢)، كتاب الجهاد، باب تمى القتل في سبيل الله، حديث رقم ٣١٥١.
 (٢) أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح الجامع، (٤/ ٢٢)، كتاب الجهاد والسير، باب تمى المجهدين أن يرجع إلى الدنيا، حديث رقم ٢٨١٧.
 (٣) أبو الحسين، مسلم بن الحجاج النيسابوري، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، حديث رقم ١٨٧٧.
 (٤) مسلم بن الحجاج، الصحيح الجامع، (٣/ ١٥٠٢)، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنتهم أحياء عند ربهم يرزقون، حديث رقم ١٨٨٧.
 (٥) أبو عيسى محمد بن سورة الترمذي، الجامع المشهور بـ «السنن»، (٥/ ٨٠)، كتاب التفسير، باب سورة آل عمران، حديث رقم ٣٠١٠، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ».
 (٦) ابن ماجه القزويني، السنن، (١/ ١٣١)، كتاب السنة، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم ١٩٠، وقال الأرنؤوط: «إسناده جيد».

يُرْجَعُونَ، قَالَ: وَأُنزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩].

المطلب الثاني: دراسة رجال الإسناد:

١- عَمْرُو بْنُ عُمْتَانَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كَثِيرِ بْنِ دِينَارِ الْقُرَشِيِّ مَوْهَمٌ، أَبُو حَفْصِ الْحِمَاصِيِّ، ت ٢٥٠هـ.

قال الذهبي: «صدوق حافظ»^(١)، وقال ابن حجر: «صدوق»^(٢).

٢- بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ صَائِدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ حَرِيْزِ الْحِمَيْرِيِّ أَبُو يُحْمَدَ الْحِمَاصِيِّ، ت ١٩٧هـ.

قال الذهبي: «الحافظ، وثقه الجمهور فيما سمعه من الثقات، وقال النسائي: إذا قال حدثنا وأخبرنا فهو ثقة»^(٣)، وقال ابن حجر: «صدوق كثير التدليس عن الضعفاء»^(٤).

قلت: الراوي صدوق، لكنه مدلس تدليس التسوية، وهو من الطبقة الرابعة الذين لا يعتنق تدليسهم إلا إذا صرح بالسماع^(٥)، وقد صرح بالسماع كما في رواية الإمام أحمد^(٦)، إذ فيها: «قَالَ بَقِيَّةٌ: حَدَّثَنِي بِحَيْرِ بْنِ سَعْدٍ»، وبذلك تنتفي علة التدليس عنه هنا وتغتفر.

٣- بَحَيْرُ بْنُ سَعْدِ الْحَبَائِرِيِّ السَّحُورِيُّ أَبُو خَالِدِ الْحِمَاصِيِّ، ت ١٤٨هـ.

قال الذهبي: «حجة»^(٧)، وقال ابن حجر: «ثقة ثبت»^(٨).

(١) أبو عبد الله، محمد بن أحمد الذهبي، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، (٢) / ٨٣، رقم ٤١٩٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص ٤٢٤، رقم ٥٠٧٣.

(٣) الذهبي، الكاشف، (١/ ٢٧٣)، رقم ٦١٩.

(٤) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص ١٢٦، رقم ٧٣٤.

(٥) ابن حجر العسقلاني، تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس المشهور بـ «طبقات المدلسين»، ص ٤٩، رقم ١١٧.

(٦) ابن حنبل، المسند، (٢٩/ ٤٢٥)، حديث رقم ١٧٨٩٤.

(٧) الذهبي، الكاشف، (١/ ٢٦٤)، رقم ٥٣٩.

(٨) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص ١٢٠، رقم ٦٤٠.

٤ - خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي كَرِبٍ الْكَلَاعِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَمِصِيُّ، ت ١٠٤هـ.

قال الذهبي: «فقيه كبير ثبت مهيب مخلص، يقال: كان يسبح في اليوم أربعين ألف تسبيحة»^(١)، وقال ابن حجر: «ثقة عابد يرسل كثيرًا»^(٢).

قلت: الراوي عنده علتان، وهما:

- التدليس: ولا يضر؛ لأنه من المرتبة الثانية الذين اغتفر الأئمة تدليسهم^(٣).

- الإرسال: ولا يضر كذلك؛ لأن إرساله عن بعض الصحابة، وحديثه هنا عن تابعي^(٤).

٥ - جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَامِرِ الْحَضْرَمِيِّ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَمِصِيُّ، ت ٨٠هـ، وقيل بعدها.

قال الذهبي: «ثقة»^(٥)، وقال ابن حجر: «ثقة جليل، محضرم، ولأبيه صحبة، فكأنه هو ما وفد إلا في عهد عمر رضي الله عنه»^(٦).

قلت: الراوي عنده علتان، وهما:

- التدليس: ولا يضر؛ لأنه من المرتبة الثانية الذين اغتفر الأئمة تدليسهم^(٧).

- الإرسال: ولا يضر كذلك؛ لأن إرساله عن أبي بكر رضي الله عنه، ولم يرو عنه في هذا الحديث^(٨).

(١) الذهبي، الكاشف، (١/ ٣٦٩)، رقم ١٣٥٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص ١٩٠، رقم ١٦٧٨.

(٣) ابن حجر العسقلاني، تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، المشهور بـ «طبقات المدلسين»، ص: ٣١، رقم ٤٦.

(٤) انظر: أبو سعيد العلائي، جامع التحصيل، ص ١٧١، رقم ١٦٧.

(٥) الذهبي، الكاشف (١/ ٢٩٠)، رقم ٧٦١.

(٦) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص ١٣٨، رقم ٩٠٤.

(٧) ابن حجر العسقلاني، تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، المشهور بـ

«طبقات المدلسين»، ص: ٢٨، رقم ٣٩.

(٨) أبو سعيد العلائي، جامع التحصيل، ص ١٥٣، رقم ٨٨.

٦- ترجمة الصحابي ابن أبي عميرة رضي الله عنه (١):

هو: مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَمِيرَةَ الْمُرَبِّيِّ (٢)، أخو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمِيرَةَ، سكن الشام، له صحبة، وقد روى عن النبي ﷺ ثلاثة أحاديث فقط، وهي: حديث الباب، وحديث: «لَوْ أَنَّ عَبْدًا حَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمٍ وُلِدَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ هَرِمًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ لَحَفَرَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَوْ أَنَّهُ يُعَادُ لِكَيْمَا يَزْدَادُ مِنَ الْأَجْرِ وَالْثَوَابِ» (٣)، وحديث: «يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ» (٤) (٥).

(١) انظر ترجمته في: البخاري، التاريخ الكبير (١/ ١٥)، رقم ٥، وأبي نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة (١/ ١٨٥)، رقم ٦٧٧، وابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١٣٧٦)، رقم ٢٣٤١، والمزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٢٦/ ٢٣٦)، رقم ٥٥٢٦، ومغلطاي، إكمال تهذيب الكمال (١٠/ ٣٠٣)، رقم ٤٢٤٢، وابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٢٤)، رقم ٧٨١٤.

(٢) هذه النسبة لولد عثمان وأوس ابني عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، نُسبوا إلى أمهم مزينة بنت كلب بن وبرة، وهم قبيلة كبيرة، وقد نسب إليها جماعة من الصحابة. (انظر: السمعي، الأنساب، ١٢/ ٢٢٦، وابن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، ٣/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه أحمد ابن حنبل في مسنده، (٢٩/ ١٩٧)، حديث (١٧٦٥٠)، قال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ الْمُبَارَكِ، حَدَّثَنَا ثَوْرُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ جُمَيْرِ بْنِ ثَعْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَمِيرَةَ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ... الحديث، موقوفًا إلا أنه يأخذ حكم الرفع؛ لأنه مما لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، وله شاهد أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ١٩٦)، حديث (١٧٦٤٩) عن عُثْبَةَ بْنِ عَبْدِ ﷺ مرفوعًا.

وقد صحح إسناده حديث ابن أبي عميرة رضي الله عنه الحافظ ابن حجر في (الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ٢٥)، حيث قال: «سنده قوي»، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير علي بن إسحاق- وهو السلمي مولاهم- فمن رجال الترمذي، وهو ثقة».

(٤) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٩٢)، حديث (٢٧٦٠)، من طريق سعد بن طريف، عن الأصْبَغِ بْنِ ثَبَّانَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ نَعُوذُهُ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ رضي الله عنه: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارئًا. قَالَ: كَذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ الْحُسَيْنُ رضي الله عنه: أَسْنَدُونِي. فَأَسْنَدَهُ عَلِيُّ رضي الله عنه إِلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةً يُقَالُ لَهَا شَجْرَةُ الْبَلْوَى، يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يُرْفَعُ لَهُمْ دِيوَانٌ، وَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ، يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا»، وَقَرَأَ: ﴿إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قلت: وقد ضعف إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣٥)، حديث (٣٨١٨)، حيث قال: «رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَفِيهِ سَعْدُ بْنُ طَرِيفٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ جَدًّا». (انظر: المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٢٦/ ٢٣٦)).

المطلب الثالث: الحكم على الإسناد:

قلت: الحديث إسناده حسن، ولا يضر تدليس بقية بن الوليد فقد صرح بالسماع في رواية الإمام أحمد كما تقدم، ويرتقي بالشواهد إلى الصحيح لغيره. وقد حسنه المنذري^(١)، وصححه الحافظ ابن حجر^(٢)، وقال الهيثمي: «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ»^(٣). وصححه من المعاصرين الأرنؤوط^(٤)، والألباني^(٥).

المطلب الرابع: ألفاظ التلقي والأداء:

قلت: فيه الإخبار، والتحديث بصيغة الجمع، والعنونة، والقول.

المطلب الخامس: لطائف الإسناد:

١. رواه جميعهم شاميون حمصيئون، وكذا الصحابي ابن أبي عميرة فإنه نزل الشام وأقام فيها.
٢. رواية التابعي عن التابعي: «خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ».
٣. فيه راو مخضرم، وهو: «جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ».
٤. يعدُّ الحديث مثلاً لرواية الوجدان، حيث إن الصحابي ابن أبي عميرة رضي الله عنه لم يرو عنه أحد مطلقاً غير جبير بن نفير^(٦).
٥. يصح أن نطلق على هذا الحديث بأنه رواية مجاهدين؛ إذ إن أحد رواته كان كثير الجهاد، وهو خالد بن معدان^(٧)، وصحابه ابن أبي عميرة أحسب أنه نزل الشام مرابطاً مجاهدًا^(٨).

(١) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٣١)، رقم ١٣٥٧.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٢٥).

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥/ ٢٩٧).

(٤) انظر: تحقيقه لأحمد ابن حنبل، المسند، (٢٩/ ٤٢٥)، حديث رقم ١٧٨٩٤.

(٥) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٣١)، رقم ١٣٥٧.

(٦) انظر: ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، (٩/ ٣٨٣). قال المزني في: (تهذيب الكمال

في أسماء الرجال ٢٦/ ٢٣٦): «وقد روى عنه جبير بن نفير حديثاً آخر سماه فيه محمداً

وهو قوله: يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة فلا ينصب لهم ميزان...».

(٧) قال عنه الذهبي في (تاريخ الإسلام ٣/ ٤٢): «كَانَ كَثِيرَ الْجِهَادِ».

(٨) كان من منهج النبي ﷺ الحث على الهجرة إلى بلاد الشام لسكناها والمرابطة فيها، فمن

هذه الأحاديث على سبيل الذكر لا الحصر:

المطلب السادس: رسم شجرة الإسناد:

ابن أبي عميرة رضي الله عنه

جبير بن نفير

خالد بن معدان

بجير بن سعد

بقية بن الوليد

١- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ هَذَا الْأَمْرِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ يَكُونُ إِمَارَةً وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ يَتَكَادَمُونَ عَلَيْهِ تَكَادَمَ الْحُمُرِ فَعَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ، وَإِنَّ أَفْضَلَ جِهَادِكُمُ الرِّبَاطُ، وَإِنَّ أَفْضَلَ رِبَاطِكُمْ عَسْفَلَانُ» (أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١ / ٨٨)، حديث رقم ١١١٣٨، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧ / ٨٠٢) حديث رقم ٣٢٧٠).

٢- عَنْ ابْنِ حَوْالَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً جُنْدَ بِلِشَّامٍ، وَجُنْدَ بِلَيْمَنْ، وَجُنْدَ بِلِعِرَاقٍ»، قَالَ ابْنُ حَوْالَةَ: خَرَجَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَدْرَكَتْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا خَيْرَةٌ لِلَّهِ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَنِي إِلَيْهَا خَيْرَتُهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِبَيْمَنِكُمْ، وَاسْتَمُوا مِنْ عُذْرِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ». (أخرجه أحمد، المسند، (٢٨ / ٢١٥)، حديث رقم ١٧٠٠٥، وأبو داود، السنن، (٣ / ٤)، كتاب الجهاد، باب فِي سُكْنَى الشَّامِ، حديث رقم ٢٤٨٣، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على المسند، والألباني في صحيح الجامع (١ / ٦٨٢)، حديث رقم ٣٦٥٩ - ١٤٤٢).

٣- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الدِّينِ ظَاهِرِينَ لَعُدُوهُمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْأَوَاءِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرٌ اللَّهُ وَهُمْ كَذَلِكَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: «بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ». (أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على مسند أبيه (٣٦ / ٦٥٦)، حديث رقم ٢٢٣٢٠، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٥٦٤)، حديث رقم ١٢٢٤٨: رجاله ثقات، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على المسند).

عمرو بن عثمان	حيوة بن شريح	الخوْطي
السنن الصغرى،	مسند أحمد،	الجهاد لابن أبي عاصم
والسنن الكبرى للنسائي	والتاريخ الكبير للبخاري،	
والمعرفة والتاريخ ليعقوب بن سفيان		

المطلب السابع: رحلة الحديث:

انتقل الحديث من مدينة رسول الله ﷺ إلى حمص في الشام، واستقرَّ بها.

المطلب الثامن: مناهج الإمام النسائي في الحديث:

- ١- الاختصار في أسماء شيوخه: مثل: «بقية»، والصحابي: «ابن أبي عميرة ﷺ».
- ٢- تقسيم متن الحديث الواحد إلى جمل بإسناد واحد، حيث روى أولاً جملة: «مَا مِنَ النَّاسِ مِنْ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ يَقْبِضُهَا رَبُّهَا مُحِبُّ أَنْ تَرْجَعَ إِلَيْكُمْ، وَأَنَّ هَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا غَيْرُ الشَّهِيدِ»، ثم قال: «قَالَ ابْنُ أَبِي عَمِيرَةَ ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَأَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي أَهْلُ الْوَرِّ وَالْمَدْرِ»^(١).
- ٣- تخريج الحديث كشاهد لحديث أبي هريرة ﷺ؛ ولعلَّ السبب عدم شهرة هذا الصحابي ابن أبي عميرة ﷺ.

المطلب التاسع: التحقق من شرط الإمام النسائي في الحديث:

كان النسائي شرطه في كتاب السنن يتمثل فيما يأتي^(٢):

- ١- تخريج أحاديث الرواة من الطبقة الأولى والثانية والثالثة في الأصول، وخرج عن رواة الطبقة الرابعة ممن لم يجمع على تركهم إذا اتصل سندهم، وهذا التخريج في المتابعات والشواهد.
- ٢- عدم تخريج أحاديث الرواة المختلطين.

(١) النسائي، السنن، (٦/ ٣٣)، كتاب الجهاد، باب تمّي القتل في سبيل الله تعالى، حديث

رقم ٣١٥٣.

(٢) انظر: أ.د. أحمد أبو حلبية، الكشاف المبين في مناهج المحدثين، ص ٨٧، و أ. د. علي

بقاعي، مناهج المحدثين العامة والخاصة، ص ١١١ - ١١٥.

قلت: وإذا طبقنا هذين الشرطين على رجال إسناد هذا الحديث، فنجد أن الإمام النسائي قد التزم بهما، فلا يوجد أحد فيهم من الرواة المختلطين الذين ترك حديثهم لعللة الاختلاط من جهة، ومن جهة أخرى جميعهم ثقات سوى شيخ النسائي عمرو بن عثمان فإنه صدوق حجة لا ينزل عن الثقة كثيراً، علماً أن النسائي خرَّج هذا الحديث شاهداً لحديث أبي هريرة رضي الله عنه في ذات الباب^(١).

المطلب العاشر: سبب ورود الحديث:

لم أعر على سبب ورود لحديث ابن أبي عميرة، أما بخصوص الشواهد فلم أعر كذلك على سبب ورود لأحاديث عبادة بن الصامت، وأبي هريرة، وأنس رضي الله عنه، أما حديث ابن مسعود فسبب وروده أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرٍ، لَهَا فَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُخُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْفَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَطْلَاعَةً»، فَقَالَ: «هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟» قَالُوا: أَيْ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرُخُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، ففَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُمَرِّكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُريدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاخَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى تُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا»^(٢).

وأما حديث جابر رضي الله عنه فسبب وروده مواساة النبي صلى الله عليه وسلم له بعد استشهاد والده لما رآه منكسراً، قال له: أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا. فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُخَيِّبُنِي فَأَقْتُلَ فِيكَ

(١) النسائي، السنن، (٦/ ٣٢)، كتاب الجهاد، باب تمنى القتل في سبيل الله، حديث رقم ٣١٥١، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَيَّ أُمَّتِي لَمْ أَتَخَلَّفُ عَنْ سَرِيَّةٍ، وَلَكِنْ لَا يَجِدُونَ حَمَلَةً، وَلَا أَجْدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، وَيَشْقُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلَوْ دِدْتُ أَيْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيِيْتُ، ثُمَّ قُتِلْتُ، ثُمَّ أُحْيِيْتُ، ثُمَّ قُتِلْتُ» ثَلَاثًا.

(٢) مسلم بن الحجاج، الصحيح الجامع، (٣/ ١٥٠٢)، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وَأَنََّّهُمْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ، حديث رقم ١٨٨٧.

ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ ﷻ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ...»^(١).

المطلب العاشر: سبب إيراد الحديث:

لم أعر على سبب إيراد للحديث وشواهد، سوى حديث ابن مسعود، وهو كما قال مسروق بن الأجدع: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ...».

المبحث الثاني: قضايا المتن

المطلب الأول: المطابقة بين الترجمة والحديث:

ترجم الإمام النسائي للحديث تحت كتاب الجهاد، بباب تمّي القتل في سبيل الله تعالى، ونوع هذه الترجمة ظاهرة، وعلاقتها بالحديث تامة.

المطلب الثاني: اللغة وغريب اللفظ:

١- **نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ**: سواء كانت ذكراً أم أنثى^(٢)، وقد سُميت النفس نفساً، لتولّد النَّفْسَ منها، واتصاله بها؛ كما سُموا الروح روحاً؛ لأن الروح موجود بها، وقد فرّق بعض العلماء بين «النفس» و«الروح»، فقال: الروح هو الذي به الحياة، والنفس هي التي بها العقل، فإذا نام النائم، قَبَضَ اللهُ نفسه، ولم يقبض روحه، والروح لا يقبض إلاّ عند الموت^(٣).

٢- **يَقْبِضُهَا رَبُّهَا**: أي يميتها^(٤)، يقال قَبَضَ اللهُ فلاناً: أماته «قبض اللهُ روحه»^(٥).

(١) الترمذي، الجامع المشهور بـ «السنن»، (٨٠ / ٥)، كتاب التفسير، باب سورة آل عمران، حديث رقم ٣٠١٠، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ»، وابن ماجه، السنن، (١ / ١٣١)، كتاب السنة، بابَ فِيمَا أَنْكَرَتْ الْجَهْمِيَّةُ، حديث رقم ١٩٠، وقال الأرنؤوط: «إسناده جيد».

(٢) أبو الحسن ابن سيدة المرسي، المخصص، (٥ / ١٦٩).

(٣) أبو بكر الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، (٢ / ٣٧٤).

(٤) السندي، حاشيته على سنن النسائي، (٦ / ٣٣).

(٥) د أحمد مختار عبد الحميد عمر، وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ص ٦٣ / ٢٠٦٣.

٣- سبب تسمية «الشَّهِيدِ»:

الشَّهِيدُ هو مَنْ قُتِلَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُجْمَعُ عَلَى شُهَدَاءَ، وَقَدْ جَاءَ فِي تَسْمِيَّتِهِ شَهِيدًا سَبْعَةَ أَقْوَالٍ^(١):

«أَحَدَهَا: أَنَّهُ حَيٌّ كَأَنَّهُ شَاهِدٌ، أَي: حَاضِرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾^(٢).
وَالثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ شَهِدُوا لَهُ بِالْجَنَّةِ.
وَالثَّلَاثُ: لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَشْهَدُهُ.

وَالرَّابِعُ: لِسُقُوطِهِ بِالْأَرْضِ وَهِيَ الشَّاهِدَةُ.

وَالخَامِسُ: لِقِيَامِهِ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى قَتَلَ.

وَالسَّادِسُ: لِأَنَّهُ يَشْهَدُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ بِالْقَتْلِ.

وَالسَّابِعُ: لِأَنَّهُ شَهِدَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْوُجُودِ وَالْإِلَهِيَّةِ بِتَسْلِيمِ نَفْسِهِ بِالْقَتْلِ،
وَشَهِدَ غَيْرَهُ بِالْقَوْلِ».

٤- أَهْلُ الْوَبْرِ: أَيُّ أَهْلِ الْبَوَادِي، وَهُوَ مِنْ وَبَرِ الْإِبِلِ؛ لِأَنَّ بُيُوتَهُمْ يَتَّخِذُونَهَا مِنْهُ^(٣).

٥- وَيُرِيدُ بِأَهْلِ الْمَدَرِ: أَهْلَ الثَّرَى وَالْمِدْنَ وَالْأَمْصَارِ^(٤)، وَالْمَدَرُ: جَمْعُ مَدْرَةٍ، وَهِيَ الْبِنْيَةُ^(٥).

قال السندي: «وَالْمَرَادُ أَنْ يَكُونَ لِي هُوَ لِأَنَّ عَيْبِدًا فَأَعْتَقَهُمْ»^(٦).

المطلب الثالث: المعنى العام للحديث:

لقد بيّن النبي ﷺ فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى في هذا الحديث من جانبين:

(١) ابن الجوزي، غريب الحديث، (١/ ٥٦٩-٥٧٠)، و ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، (٢/ ٥١٣)، والنووي، المنهاج شرح مسلم، الصحيح الجامع، (٢/ ١٦٤).
(٢) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٤٥).
(٣) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٠٩).
(٤) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٤٥).
(٥) السندي، حاشيته على سنن النسائي، (٦/ ٣٣).

الأول: بيانه أنه لا يتمنى أحدٌ من أهل الجنة الرجوع إلى الدنيا بعدما تخلص من تبعاتها ومشاقها إلا الشهيد الذي قتل في سبيل الله تعالى؛ وذلك لما يرى من فضل الشهادة والكرامات التي أعدها الله تعالى للمجاهدين والشهداء في جنات النعيم.

الثاني: أمنيته ﷺ القتل والشهادة في سبيل الله تعالى، وتفضيله ذلك على إعتاق العبيد من أهل المدن والقرى والبوادي في سبيل الله تعالى.

المطلب الرابع: المتن الجامع:

سوف أعتمد في أصل المتن رواية الإمام النسائي^(١)، وهي التي بنيت عليها شرح الحديث، وكلُّ إضافة على متن الحديث سوف أجعلها بين معكوفين، هكذا [].

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا [عَلَى الْأَرْضِ] ^(٧) [مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ] ^(٣) مِنَ النَّاسِ مِنْ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ [نَفْسٍ مُسْلِمٍ] ^(٤) [نَفْسٍ تَمُوتُ] ^(٥) [يَقْبِضُهَا رَبُّهَا] [اللَّهُ] ^(٦) [هَهَا عِنْدَ اللَّهِ حَيْرٌ] ^(٧) [تِحْبٌ] [يَسْرُهَا] ^(٨) أَنْ تَرْجَعَ [تَعُودُ] ^(٩)، [فَإِنَّهُ يَتَمَتَّى أَنْ

(١) النسائي، السنن، (٦/ ٣٣)، كتاب الجهاد، باب تمَّتِي القتل في سبيل الله تعالى، حديث رقم ٣١٥٣.

(٢) النسائي، السنن، (٦/ ٣٥)، كتاب الجهاد، مَا يَتَمَتَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ، حديث رقم ٣١٥٩، عن عبادة بن الصامت ﷺ.

(٣) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٨٧٧، عن أنس ﷺ.

(٤) أحمد ابن حنبل، المسند، (٢٩/ ٤٢٥)، حديث رقم ١٧٨٩٤، عن ابن أبي عميرة.

(٥) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٨٧٧، عن أنس ﷺ، والنسائي، السنن، (٦/ ٣٥)، كتاب الجهاد، مَا يَتَمَتَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ، حديث رقم ٣١٥٩، عن عبادة بن الصامت ﷺ.

(٦) أحمد ابن حنبل، المسند، (٢٩/ ٤٢٥)، حديث رقم ١٧٨٩٤، عن ابن أبي عميرة.

(٧) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٨٧٧، عن أنس ﷺ، والنسائي، السنن، (٦/ ٣٥)، كتاب الجهاد، مَا يَتَمَتَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ، حديث رقم ٣١٥٩، عن عبادة بن الصامت ﷺ.

(٨) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٨٧٧، عن أنس ﷺ.

(٩) أحمد ابن حنبل، المسند، (٢٩/ ٤٢٥)، حديث رقم ١٧٨٩٤، عن ابن أبي عميرة.

يَرْجِعُ^(١)، إِيَّكُمْ، وَأَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا [وَأَنَّ لَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ]^(٢)
 غَيْرَ الشَّهِيدِ [إِلَّا الْقَتِيلُ]^(٣)، فَإِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ^(٤) [إِلَى الدُّنْيَا، يَقُولُ: حَتَّى
 أُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]^(٥) [فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا]^(٦) [فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى]^(٧)
 [فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنَ الْكِرَامَةِ]^(٨) [لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ]^(٩)».
 وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَأَنْ أُقْتَلَ [لَأَنْ أُقْتَلَ]^(١٠) فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ
 أَنْ يَكُونَ لِي [الْمَدْرُ وَالْوَبْرُ]^(١١) أَهْلُ الْوَبْرِ وَالْمَدْرِ».

المطلب الخامس: الأحكام المستفادة من الحديث:

١- ما حكم التمني، وما علاقته بطول الأمل؟

اعلم أن التمني قسمان أحدهما مذموم، والآخر محمود، فأما المذموم فهو ما يجعل صاحبه متعلقاً في الدنيا، غافلاً عن الآخرة، وهو الذي يسمى بطول الأمل، وقد نعت النبي ﷺ صاحبه بالعاجز؛ لأنه يعجز عن إدراك مصلحته في الآخرة، فقال: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ تَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ

- (١) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٨٧٧، عن أنس ﷺ.
- (٢) أحمد ابن حنبل، المسند، (١٩/ ٦٢)، حديث رقم ١٢٠٠٣، عن أنس ﷺ.
- (٣) النسائي، السنن، (٦/ ٣٥)، كتاب الجهاد، مَا يَتَمَنَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ، حديث رقم ٣١٥٩، عن عبادة بن الصامت ﷺ.
- (٤) الترمذي، الجامع المشهور بـ «السنن»، (٣/ ٢٣٩)، كتاب الجهاد، بَابُ مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ الشُّهَدَاءِ، حديث ١٦٦١، عن أنس ﷺ، والنسائي، السنن، (٦/ ٣٥)، كتاب الجهاد، مَا يَتَمَنَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ، حديث ٣١٥٩، عن عبادة بن الصامت ﷺ.
- (٥) الترمذي، الجامع المشهور بـ «السنن»، (٣/ ٢٣٩)، كتاب الجهاد، بَابُ مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ الشُّهَدَاءِ، حديث رقم ١٦٦١، عن أنس ﷺ.
- (٦) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٨٧٧، عن أنس ﷺ.
- (٧) النسائي، السنن، (٦/ ٣٥)، كتاب الجهاد، مَا يَتَمَنَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷺ، حديث رقم ٣١٥٩، عن عبادة بن الصامت ﷺ.
- (٨) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٨٧٧، عن أنس ﷺ.
- (٩) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٨٧٧، عن أنس ﷺ.
- (١٠) أحمد ابن حنبل، المسند، (٢٩/ ٤٢٥)، حديث رقم ١٧٨٩٤، عن ابن أبي عميرة.
- (١١) أحمد ابن حنبل، المسند، (٢٩/ ٤٢٥)، حديث رقم ١٧٨٩٤، عن ابن أبي عميرة.

أَتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَّتْ عَلَى اللَّهِ»^(١).

وهو الذي حذر منه النبي ﷺ، فقال: «لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًا فِي التَّنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ»^(٢)، وفي رواية: «يَكْبُرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَانِ: حُبُّ الْمَالِ، وَطُولُ الْعُمُرِ»^(٣).

«فِي هَذَا الْحَدِيثِ كَرَاهَةُ الْحِرْصِ عَلَى طُولِ الْعُمُرِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَحْمُودٍ، وَالْحِكْمَةُ فِي التَّحْصِيسِ بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: أَنَّ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَى ابْنِ آدَمَ نَفْسُهُ، فَهُوَ رَاغِبٌ فِي بَقَائِهَا؛ فَأَحَبُّ لِدَلِّكَ طُولُ الْعُمُرِ، وَأَحَبُّ الْمَالِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي دَوَامِ الصِّحَّةِ الَّتِي يَنْشَأُ عَنْهَا عَالِيًا طُولُ الْعُمُرِ، فَكُلَّمَا أَحْسَسَ بِقُرْبِ تَفَادٍ ذَلِكَ اشْتَدَّ حُبُّهُ لَهُ وَرَعْبَتُهُ فِي دَوَامِهِ»^(٤).

وأما النوع المحمود، فهو الذي يكون في أبواب الخير، وترتب عليه الأجر والثبوة عند الله تعالى، كمن يتمنى أن يتصدق في سبيل الله، أو يحفظ القرآن الكريم، أو يُستشهد في سبيل الله تعالى، وعليه تنطبق أمنية النبي ﷺ في هذا الحديث.

وقد أفرد الإمام البخاري - رحمه الله - كتابًا في صحيحه أسماء: «كتاب التمني»، وجعل تحته بابًا أسماء: «باب مَا جَاءَ فِي التَّمَنِّيِّ وَمَنْ تَمَّتِ الشَّهَادَةُ»، وكذلك: «باب تَمَّتِ الْحَيْرُ».

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «هَذِهِ التَّرْجِمَةُ أَعْمٌ مِنَ الَّتِي قَبَلَهَا؛ لِأَنَّ تَمَّتِ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ جُمْلَةِ الْحَيْرِ، وَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ التَّمَنِّيَّ الْمَطْلُوبَ لَا يَنْحَصِرُ فِي طَلَبِ الشَّهَادَةِ»^(٥).

(١) الترمذي، الجامع المشهور بـ «السنن»، (٤ / ٢١٩)، كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بابٌ منه، حديث رقم ٢٤٥٩، عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ، وقال: حديث حسن.

(٢) البخاري، الصحيح الجامع، (٨ / ٨٩)، كتاب الرقاق، بابٌ مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ، حديث رقم ٦٤٢٠، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) البخاري، الصحيح الجامع، (٨ / ٩٠)، كتاب الرقاق، بابٌ مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ، حديث رقم ٦٤٢١، عن أنس ﷺ.

(٤) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (١١ / ٢٤١).

(٥) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (١٣ / ٢١٨).

وعليه فقد أورد البخاري رحمه الله أحاديث وآثارًا كثيرة في باب تمني الإنسان فعل الخير، منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَدِدْتُ أَبِي أَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ»، فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُوهُنَّ ثَلَاثًا، أَشْهَدُ بِاللَّهِ^(١).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَوْ كَانَ عِنْدِي أُحَدُّ ذَهَبًا، لِأَحْبَبْتُ أَنْ لَا يَأْتِيَّ عَلَيَّ ثَلَاثٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ - لَيْسَ شَيْءٌ أَرْصُدُهُ فِي دِينٍ عَلَيَّ - أَحَدٌ مَنْ يَقْبَلُهُ»^(٢).

وتحت باب «تَمَنَّى الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ»: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَا تَحَاسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَنْتَلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يَقُولُ: لَوْ أُوتِيْتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ فَيَقُولُ: لَوْ أُوتِيْتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ»^(٣).

٢- هل أمر تمني الرجوع إلى الدنيا يقتصر على الشهيد؟

لم يُذكر في آية أو حديث أن أحدًا من أهل الجنة يتمنى الرجوع إلى الدنيا سوى الشهيد، أما الفجار والكفار وأهل النار فقد ورد أنهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ ليؤمنوا ويتوبوا ويتزودوا للآخرة، فقد قال الله تعالى على لسانهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال أيضًا: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ

(١) البخاري، الصحيح الجامع، (٨٢ / ٩)، كتاب التمني، باب ما جاء في التمني، ومن تمنى الشهادة، حديث رقم ٧٢٢٧.

(٢) البخاري، الصحيح الجامع، (٨٣ / ٩)، كتاب التمني، باب تمني الخير، حديث رقم ٧٢٢٨.

(٣) البخاري، الصحيح الجامع، (٨٤ / ٩)، كتاب التمني، باب تمني القرآن والعلم،

لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ [المنافقون: ١٠].
٣- فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى:

لقد وردت أحاديث كثيرة ترغّب بالجهاد والشهادة في سبيل الله؛ لأنه بهما يُمكن للمسلمين في الأرض، وهما الطريق إلى الجنة، منها ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّيُوفِ»^(١).

فبيّن النبي ﷺ أَنَّ طريق الجهاد من أيسر الطرق التي توصل العبد للفوز بالجنة، ويبيّن كذلك أَنَّ الجهاد والرباط في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، فقد روى البخاري ومسلم، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرُّوحَةُ يَرْوِحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ الْعَدْوَةُ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(٢).

وروى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَغْدُلُ الْجِهَادَ؟ قَالَ: «لَا أَحَدُهُ»، قَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَقْتُرُ، وَتَصُومَ وَلَا تَقْطِرَ؟» قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟!^(٣).

وفي رواية لمسلم: قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَغْدُلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ»، فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ»، ثُمَّ قَالَ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بآيَاتِ اللَّهِ لَا

(١) البخاري، الصحيح الجامع، (٤/ ٢٢)، كتاب الجهاد والسير، بَابُ: الْجَنَّةُ تَحْتَ بَارِقَةِ الشُّيُوفِ، حديث ٢٨١٨، ومسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٣٦٢)، كتاب الجهاد والسير، بَابُ كِرَاهَةِ تَمَتِّي لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عِنْدَ اللَّقَاءِ، حديث ١٧٤٢.

(٢) البخاري، الصحيح الجامع، (٤/ ٣٥)، كتاب الجهاد والسير، بَابُ فَضْلِ رِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حديث ٢٨٩٢، مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٩)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الْعَدْوَةِ وَالرُّوحَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حديث ١٨٨٠.

(٣) البخاري، الصحيح الجامع، (٤/ ١٥)، كتاب الجهاد والسير، بَابُ فَضْلِ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ، حديث ٢٧٨٥.

يُقْتَلُ مِنْ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

ولإعلاء منزلة الشهداء وبيان مكانتهم وكرامتهم عند الله كان النبي ﷺ يود ويتمنى أن يقتل في سبيل الله، فقد روى البخاري ومسلم، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «اتَّهَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ حَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيْمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي، أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْ لَا أَنْ أَشَقَّ عَلَيَّ أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ حَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوْ دَدْتُ أَلِيَّ أَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أَقْتُلُ ثُمَّ أَحْيَا ثُمَّ أَقْتُلُ»^(٢).

فدل ذلك أن أهدى الكرامات إنما تأتي بالقتل والشهادة في سبيل الله؛ لذلك فلا عجب أن يتمنى الشهيد أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات في سبيل الله ﷺ.

٤- ما السبب في تمنى الشهيد الرجوع الى الدنيا؟

لقد بين النبي ﷺ السر في تمنى الشهيد الرجوع إلى الدنيا، وذلك ليقتل في سبيل الله تعالى مرات أخرى، لما يرى من الكرامة، وفضل الشهادة^(٣).

٥- ما هي كرامات الشهيد التي من أجلها يتمنى الرجوع إلى الدنيا ليقتل مرات أخرى؟

لقد جاء في بيان كرامات الشهيد آيات بينات، وأحاديث كثيرة واضحة، منها:

أولاً: ما جاء في القرآن الكريم:

- قال تعالى: ﴿وَلَا تَهْوُلُوا لِمَنْ يَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَأَنْ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ

(١) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٨)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث ١٨٧٨.

(٢) البخاري، الصحيح الجامع، (١٦/١)، كتاب الإيمان، بَابُ: الْجِهَادِ مِنَ الْإِيْمَانِ، حديث ٣٦، ومسلم، الصحيح الجامع، (٣/ ١٤٩٥)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الْجِهَادِ وَالْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حديث ١٨٧٦.

(٣) راجع مطلب تحرير الحديث في قضايا الإسناد، ومطلب المتن الجامع في قضايا المتن.

اللَّهِ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

فيخبر الله تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار؛ فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار^(١).

- وقد اشترى الله سبحانه وتعالى من المؤمنين نفوسهم لنفاستها لديه إحساناً منه وفضلاً.

وكتب ذلك العقد الكريم في كتابه العظيم؛ فهو يقرأ أبداً بألسنتهم ويتلى، قال تعالى مبيناً لزوم هذا العقد أزلاً في محكم القرآن^(٢): ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوا في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه؛ فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم الله فأعلى ثمنهم»^(٣).

- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

- وقال تعالى: ﴿وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴿٦٩﴾ [الزمر: ٦٩].

فقرن الله سبحانه ذكر الشهداء مع النبيين؛ تكريماً لهم، وبياناً لعلو منزلتهم.

- وقال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴿١٤٠﴾ [آل عمران: ١٤٠].

قال السهيلي - رحمه الله - : «وفيه فضل عظيم للشهداء، وتنبية على حب الله إياهم حيث قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴿١٤٠﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤٠٢/١).

(٢) ابن النحاس، مشارع الأشواق، (٦٤/١)، بتصرف.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣٧٤/٢).

يقال: اتخذت، ولا اتخذ إلا في مصطفى محبوب، قال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، فالإتخاذ إنما هو اقتناء واجتباء^(١).

ثانياً: ما جاء في السنة النبوية^(٢):

– الشهيد لا يجد ألم القتل: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ»^(٣).

– الشهيد في الجنة^(٤): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ أُمَّ الرَّبِيعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَّاقَةَ أَنْتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرُبٌ، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبْرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ، قَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جَنَّانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَتِكَ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى»^(٥).

– الشهيد تكفر عنه خطاياه إلا الدين: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ

(١) السهيلي، الروض الأنف، (١٩٣/٣).

(٢) هذه العناوين استفدتها من كتابها «تفريح الكرب بفضائل شهيد المعارك والحرب» لباسم الجوابرة، بتصرف في بعضها.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣ / ٣٣٤)، حديث رقم ٧٩٥٣، والنسائي في سننه (٦ / ٣٦)، كتاب الجهاد، باب ما يجد الشهيد من الألم، رقم ٣١٦١، والترمذي في جامعه (٣ / ٢٤٢)، كتاب الجهاد، باب فضل المرابط، حديث رقم ١٦٦٨، وابن ماجه في سننه (٤ / ٨٤)، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، رقم ٢٨٠٢. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب»، وقال الأرنؤوط: «إسناده قوي»، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢ / ٦٤٩)، حديث رقم ٩٦٠.

(٤) ودرجات الشهداء تتفاوت، ففي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ...»، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، (٤ / ١٦)، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث رقم ٢٧٩٠.

(٥) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، (٤ / ٢٠)، كتاب الجهاد، باب من أتاه سهم غرب فقتله، حديث رقم ٢٨٠٩.

ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ «يُعْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»^(١).

فالشهادة في سبيل الله تكفر جميع ما على العبد من الذنوب التي بينه وبين الله تعالى^(٢).

- الشهيد رائحة دمه مسك يوم القيامة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكَلِّمُ»^(٣) أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللُّونُ لَوْنُ الدَّمِّ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ»^(٤).

- الشهيد تظله الملائكة بأجنحتها: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: جِيءَ بِأَبِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ مُثِّلَ بِهِ، وَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَذَهَبَتْ أَعْيُنُ عَمْرٍو وَوَجْهِهِ، فَتَهَيَّأَ قَوْمِي فَسَمِعَ صَوْتَ صَائِحَةٍ، فَقِيلَ: ابْنَةُ عَمْرٍو - أَوْ أُحْتُ عَمْرٍو - فَقَالَ: «لَمْ تَبْكِي - أَوْ لَا تَبْكِي - مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ»^(٥).

- دار الشهيد: عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي، فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، لَمْ أَرِ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، قَالَ: أَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ»^(٦).

- الشهيد يزوجُ باثنتين وسبعين من الحور العين، وَيُشَفِّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِهِ: فِي حَدِيثِ الْمُقْدَامِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُعْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَقْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ

(١) أخرجه مسلم، الجامع الصحيح، (٣ / ١٥٠٢)، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله

كفرت خطاياهم إلا الدين، حديث رقم ١٨٨٦.

(٢) ابن النحاس، مشارع الأشواق، (٢ / ٧٢٠).

(٣) يكلم: أي يجرح. (انظر: ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤ / ١٩٩).

(٤) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، (٤ / ١٨)، كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله ﷺ، رقم ٢٨٠٣، وأخرجه مسلم، الجامع الصحيح، (٣ / ١٤٩٥)، كتاب الإمارة، باب

فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم ١٨٧٦.

(٥) أخرجه البخاري (٤ / ٢١)، كتاب الجهاد، باب ظل الملائكة على الشهيد، حديث رقم ٢٨١٦، ومسلم (٤ / ١٩١٧)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن عمرو بن

حرام، حديث رقم ٢٤٧١.

(٦) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، (٤ / ١٦)، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في

سبيل الله، حديث رقم ٢٧٩١.

الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيَزُوجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ، وَيُسْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»^(١).

- **جسد الشهيد لا تأكله الأرض:** ومن إكرام الله لأجسادهم التي بذلوا لأجله: إبقاؤها كما هي؛ فلا تأكل الأرض أجسادهم، وفي حديث جابر بن عبد الله بن حرام -رضي الله عنهما- عندما دفن أبوه مع آخر، وكانا قد قتلا في معركة أحد، قال جابر رضي الله عنه: «فَأَصْبَحْنَا، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ وَدُفِنَ مَعَهُ آخَرُ فِي قَبْرِ، ثُمَّ لَمْ تَطْبُتْ تَفْسِي أَنْ أَتْرَكُهُ مَعَ الْآخَرِ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا هُوَ كَيْوَمَ وَضَعْتُهُ هُنَيْئَةً^(٢) غَيْرَ أَذْنِهِ»^(٣).

وعنه رضي الله عنه في حديث آخر قال: «لَمَّا أَرَادَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه أَنْ يُجْرِيَ الْكِطَامَةَ^(٤) قَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ قَتِيلٌ فَلْيَأْتِ قَتِيلَهُ- يَعْنِي قَتْلَى أَحَدٍ- قَالَ: فَأَخْرَجَهُمْ رَطَابًا يَبْتَسُونَ قَالَ: «فَأَصَابَتِ الْمِسْحَاةُ رَجُلَ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَانْفَطَرَتْ دَمًا» فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: «لَا يُنْكَرُ بَعْدَ هَذَا مُنْكَرٌ أَبَدًا»^(٥).

وعنه رضي الله عنه أيضًا أنه قال: «فَرَأَيْتُ أَبِي فِي حُفْرَتِهِ كَأَنَّهُ نَائِمٌ وَمَا تَعَيَّرَ مِنْ حَالِهِ (١) أخرجه الترمذي في جامعه (٢٣٩/٣)، كتاب الجهاد، باب في ثواب الشهيد، حديث، ١٦٦٣، وابن ماجه في سننه (٨٢/٤)، كتاب الجهاد، بابُ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حديث ٢٧٩٩، وأحمد في مسنده (٤١٩/٢٨)، حديث ١٧١٨٢، وابن أبي عاصم في الجهاد (٣٢/٢)، قال الترمذي: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٢٩٣/٥): «رواه أحمد، ورجاله ثقات»، وحسن إسناده ابن النحاس في (مشارك الأشواق ٧٣٩/٢)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/٦)، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة، ٦٤٧/٧، حديث ٣٢١٣)، وفي (أحكام الجنائز، ص ٣٦).

(٢) هنية: أي قليلاً، وهو تصغير هنة. (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢٧٩/٥).
(٣) أخرجه البخاري (٩٣/٢)، كتاب الجنائز، باب هل يخرج الميت من القبر وللحد لعله؟، حديث رقم ١٣٥١.

(٤) الكطامة: كالقناة، وهي آبار تحفر في الأرض متناسقة، ويحرق بعضها إلى بعض تحت الأرض، فتجتمع مياهها جارية، ثم تخرج عند منتهائها فتسيح على وجه الأرض. (ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١٧٧/٤-١٧٨).

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد»، ص ١١٢، وعبد الرزاق في المصنف: (٥٤٧/٣)، حديث رقم ٦٦٥٦ و (٢٧٧/٥)، حديث رقم ٩٦٠٢، وابن سعد في الطبقات: (١١/٣)، وابن عبد البر في «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، (٢٤٢/١٩) و (١٤٢/١٣).

قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، فَقِيلَ لَهُ: فَرَأَيْتَ أَكْفَانَهُ؟ قَالَ: إِمَّا كُفِّنَ فِي تَمْرَةٍ (١) جُمِرَ بِهَا وَجْهَهُ، وَجُعِلَ عَلَى رِجْلَيْهِ الْحَزْمَلُ (٢)، فَوَجَدْنَا التَّمْرَةَ كَمَا هِيَ، وَالْحَزْمَلُ عَلَى رِجْلَيْهِ عَلَى هَيْئَتِهِ، وَبَيَّنَّ ذَلِكَ سِتُّ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً» (٣).

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ (٤) قَالَ: «رَأَى بَعْضُ أَهْلِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ أَنَّهُ رَأَاهُ فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ دَفَنْتُمُونِي فِي مَكَانٍ قَدْ آذَانِي فِيهِ الْمَاءُ، فَحَوَّلُونِي مِنْهُ»، قَالَ: «فَحَوَّلُوهُ، فَأَخْرَجُوهُ كَأَنَّهُ سَلْقَةٌ» (٥) لَمْ يَتَّعَبِرْ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا شَعْرَاتٌ مِنْ لِحْيَتِهِ» (٦).

قال السهيلي - رحمه الله -: «وما وجد في صدر هذه الأمة من شهداء أحد، وغيرهم على هذه الصورة لم يتغيروا بعد الدهور الطويلة كحمزة بن عبد المطلب ﷺ فإنه وجد حين حفر معاوية ﷺ العين صحيحًا لم يتغير، وأصابته الفأس إصبعة فدميت، وكذلك أبو جابر عبد الله بن حرام، وعمرو بن الجموح، وطلحة بن عبيد الله ﷺ استخرجته بنته عائشة من قبره حين رأته في المنام، فأمرها أن تنقله من موضعه، فاستخرجته من موضعه بعد ثلاثين سنة

- (١) كل شملة مخططة من مآزر الأعراب فهي تمرة. (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١١٨/٥).
- (٢) نوع من النبات. انظر: القاموس المحيط، ص ١٢٧١، ومختار الصحاح، ص ٥٦.
- (٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، (٣/٥٦٢، ٥٦٣)، من حديث الأوزاعي عن الزهري عن جابر، وصححه ابن حجر في فتح الباري، (٣/٢٥٧)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه لـ (ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ٣/٢١٦): «رجالہ ثقات، وسنده صحيح».
- وأخرج مالك في الموطأ (٢/٤٧٠) بنحوه من حديث عبد الرحمن بن أبي صعصعة أنه بلغه أن عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو... قال ابن عبد البر: «هكذا هذا الحديث في الموطأ مقطوعًا لم يختلف على مالك فيه، وهو متصل من وجوه صحاح بمعنى واحد متقارب». (ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ١٩/٢٣٩).
- (٤) قيس بن أبي حازم البجلي، أبو عبد الله الكوفي، مخضرم، مات بعد التسعين أو قبلها، ويقال: له رؤية، وهو الذي يقال إنه اجتمع له أن يروي عن العشرة المبشرين بالجنة. (انظر: المزي، تهذيب التهذيب، ٨/٣٨٦، وابن حجر، تقريب التهذيب، ص ٤٥٦).
- (٥) سلقة، ورد في معنى «سلق» عدة معان، لعل الأقرب إلى معناها: هو الأملس الطيب. (انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/٣٩١، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٣/٩٦، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١١٥٥، و المرتضى الزبيدي، تاج العروس، ٢٥/٤٥٤).
- (٦) أخرجه عبد الرزاق، المصنف، (٥/٢٧٧-٢٧٨)، حديث رقم ٩٦٠٣.

لم يتغير، ذكره ابن قتيبة في المعارف، والأخبار بذلك صحيحة»^(١).
وجاء في شرح الطحاوية: «وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من
دفنهم كما هم لم يتغيروا، فيحتمل بقاءه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل
أنه يبلى مع طول المدّة، والله أعلم، وكأنه -والله أعلم- كلما كانت الشهادة
أكمل، والشهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول»^(٢).
وأكتفي بهذا المقدار من ذكر كرامات الشهيد؛ دفعًا للإطالة، لا سيما وقد
تكفلت بعض المصنفات بتفصيل ذلك»^(٣).

٦- ما هو السرُّ في تأمين الشهيد من الفرع؟

لأنه لا يجتمع للعبد فرعان، فمن فزع في الدنيا فلا يفزع في الآخرة، وقد
أخرج النسائي في سننه^(٤)، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَأَلِ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «كَفَى بِنَارِقَةِ
السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً».

قال الحكيم الترمذي: «مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَظْهَرَ صِدْقَ مَا فِي ضَمِيرِهِ، حَيْثُ بَرَزَ
لِلْحَرْبِ وَالْقَتْلِ، فَلَمَّا ذَا يُعَادُ عَلَيْهِ السُّؤَالُ؟!»^(٥).

وقال القرطبي: «معناه؛ أنه لو كان في هؤلاء المقتولين نفاق؛ كان إذا
التقى الزحفان، وبرقت السيوف فرؤوا؛ لأنه من شأن المنافق الفرار والروغان
(١) السهيلي، الروض الأنف، (٥٢/١)، وقوله: «ذكره ابن قتيبة في المعارف» أي: قصة
استخراج عائشة لأبيها طلحة. (انظره في: ابن قتيبة، المعارف، ص ١٣٤، في أخبار طلحة
بن عبيد الله ﷺ).

(٢) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص ٤٠٤.
(٣) انظر في هذا: د. باسم الجوابرة، تفريغ الكرب بفضائل شهيد المعارك والحرب، وابن
النحاس، مشاريع الأشواق، (٦٦١/٢)، وما بعدها.
وانظر: المنذري، الترغيب والترهيب للمنذري، (٣١٠/٢ - ٣٢٨)، فقد ذكر ستة وأربعين حديثًا
في فضائل الشهادة.

وقال صديق خان: «إن الأحاديث الواردة في فضيلة الشهادة والشهداء تبلغ أربع مائة
حديث، كما قال المجد في سفر السعادة». (صديق خان، العبرة بما جاء في الغزو والشهادة
والهجرة، ص ١٨٢).

(٤) النسائي، السنن، (٩٩/٤)، كتاب الجنائز، باب الشهيد، حديث ٢٠٥٣، وصححه الألباني
في (صحيح الجامع الصغير، ٨٢٧/٢).
(٥) الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، (١٦١/٤).

عند ذلك، ومن شأن المؤمن البذل، والتسليم لله نفساً، وهيجان حمية الله، والتعصب له؛ لإعلاء كلمته، فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره، حيث برز للحرب والقتل، فلماذا يعاد عليه السؤال؟!»^(١).

٧- هل هذه الكرامات مختصة فيمن قُتل شهيداً أم تحصل لمن مات من المجاهدين ميتة عادية؟

الذي يظهر من الأحاديث الصحيحة أنَّ الأمر لا يقتصر ولا ينحصر فيمن قُتل شهيداً، بل إنه يشمل كل من قصد الشهادة وسعى لها وإن مات على فراشه، ودليله حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، أَعْطِيَهَا، وَلَوْ لَمْ تُصَبِّهِ»^(٢).

وجاء في حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»^(٣).

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «وَمَعْنَاهُمَا جَمِيعًا: أَنَّهُ إِذَا سَأَلَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ أُعْطِيَ مِنْ ثَوَابِ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى فِرَاشِهِ، وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ سَوَالِ الشَّهَادَةِ، وَاسْتِحْبَابُ نِيَةِ الْخَيْرِ»^(٤).

وجاء في بيان من مات مرابطاً دون أن يقتل، أحاديث تبين فضل الرباط ودرجات أصحابه في الآخرة، وأنهم لا يفرعون مثل الشهداء؛ لأنهم كانوا في الدنيا في حال حذر مع خوف من مباغطة العدو في أي لحظة؛ لأنَّ الرباط «هو الإقامة بالثغر تقويةً للمسلمين على الكفار، والثغر كل مكان يخيف أهله العدو، ويُخيفهم»^(٥).

روى مسلمٌ في صحيحه من حديثِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «رِبَاطٌ يَوْمَ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ

(١) أبو عبد الله القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٤٢٤.
 (٢) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/١٥١٧)، كتاب الإمارة، بَابِ اسْتِحْبَابِ طَلَبِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٩٠٩.
 (٣) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/١٥١٧)، كتاب الإمارة، بَابِ اسْتِحْبَابِ طَلَبِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، حديث رقم ١٩٠٩.
 (٤) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، (١٣/٥٥).
 (٥) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٧/١٦٥).

جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ»^(١).
وفي روايةٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُجْرِي عَلَيْهِ أَجْرُ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفِتَانِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِنًا مِنَ الْفِرْعِ»^(٢).

٨- أقسام الشهداء وحكمهم:

قال الإمام النووي - رحمه الله -: وَعَلِمَ أَنَّ الشَّهِيدَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:
أَحَدُهَا: الْمَقْتُولُ فِي حَرْبِ الْكُفَّارِ بِسَبَبِ مِنْ أَسْبَابِ الْفِتَالِ، فَهَذَا لَهُ حُكْمُ الشُّهَدَاءِ فِي ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَفِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُعَسَّلُ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ.
وَالثَّانِي: شَهِيدٌ فِي الثَّوَابِ دُونَ أَحْكَامِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الْمَبْطُونُ وَالْمَطْعُونُ وَصَاحِبُ الْهَدْمِ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِتَسْمِيَتِهِ شَهِيدًا، فَهَذَا يُعَسَّلُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابُ الشُّهَدَاءِ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ ثَوَابِ الْأَوَّلِ.

وَالثَّلَاثُ: مَنْ عُلِّقَ فِي الْغَنِيْمَةِ، وَشَبَّهَ مِنْ وَرَدَتْ الْأَثَارُ بِنَفْسِي تَسْمِيَتِهِ شَهِيدًا إِذَا قُتِلَ فِي حَرْبِ الْكُفَّارِ، فَهَذَا لَهُ حُكْمُ الشُّهَدَاءِ فِي الدُّنْيَا فَلَا يُعَسَّلُ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُ ثَوَابُهُمُ الْكَامِلُ فِي الْآخِرَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ»^(٣).

٩- أنواع الشهداء حكمًا؟

جاء في أحاديث كثيرة، أن الشهيد لا ينحصر فيمن قتل في سبيل الله، وإنما هناك أنواع أخرى من الشهداء، كالغريق والحريق والنفساء... إلخ، منها على سبيل الذكر لا الحصر حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟»

(١) مسلم، الصحيح الجامع، (٣/١٥٢٠)، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، حديث ١٩١٣.

(٢) أحمد ابن حنبل، المسند، (١٣٧/١٥)، حديث ٩٢٤٤، وسنن ابن ماجه (٦١/٤)، كتاب الجهاد، بَابُ فَضْلِ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حديث ٢٧٦٧. قال البوصيري: «هَذَا إِسْنَادٌ صَاحِحٌ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ»، وصححه الألباني والأرنؤوط. (البوصيري، مصباح الرجاجة في زوائد ابن ماجه، ٣/١٥٥، والألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، ٢/١١١٥، وأحمد ابن حنبل، المسند، تحقيق الأرنؤوط ١٥/١٣٧، حديث ٩٢٤٤).

(٣) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، (٢/١٦٤).

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ.

قَالَ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَا لَقِيلُوا»، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونَ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبُطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ».

قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ^(١): أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: «وَالْعَرِيقُ شَهِيدٌ»^(٢).

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «فَأَمَّا الْمَطْعُونُ فَهُوَ الَّذِي يَمُوتُ فِي الطَّاعُونَ، وَأَمَّا الْمَبْطُونُ فَهُوَ صَاحِبُ دَاءِ الْبُطْنِ وَهُوَ الْإِسْهَالُ، وَقِيلَ هُوَ الَّذِي بِهِ الْإِسْتِسْقَاءُ وَانْتِفَاحُ الْبَطْنِ، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي تَشْتَكِي بَطْنُهُ، وَقِيلَ هُوَ الَّذِي يَمُوتُ بِدَاءِ بَطْنِهِ مُطْلَقًا، وَأَمَّا الْعَرِيقُ فَهُوَ الَّذِي يَمُوتُ غَرِيقًا فِي الْمَاءِ... قَالَ الْعُلَمَاءُ وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَوْتَاتُ شَهَادَةً بِتَفْضُلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ بِسَبَبِ شِدَّتِهَا وَكَثْرَةِ أَلْمِهَا...»

قَالَ الْعُلَمَاءُ الْمُرَادُ بِشَهَادَةِ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ عَدْرُ الْمَقْتُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَّهُمْ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابُ الشُّهَدَاءِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيُعَسَّلُونَ وَيُصَلَّى عَلَيْهِمْ»^(٣).

١٠ - فضل الإعتاق وفكك الرقاب:

قوله ﷺ «وَلَأَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي أَهْلُ الْوَبَرِ وَالْمَدَرِ»: قال السندي: «وَالْمُرَادُ أَنْ يَكُونَ لِي هَؤُلَاءِ عِبِيدًا فَأَعْتَقْتَهُمْ»^(٤).

قلت: ومن هنا تظهر أهمية إعتاق الرقاب؛ إذ جعلها وسيلة للمقارنة مع فضل الشهادة.

وقد جاءت أحاديث كثيرة تبين فضل عتق الرقاب المسلمة؛ ففي الصحيحين

(١) هو: عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مِقْسَمٍ، أحد رواة الحديث.

(٢) البخاري، الصحيح الجامع، (٤ / ٢٤)، كتاب الجهاد والسير، باب: الشَّهَادَةُ سَبْعَ سَوَى الْقَتْلِ، حديث ٢٨٢٩، مسلم، الصحيح الجامع، - واللفظ له - (٣ / ١٥٢١)، كتاب

الإمارة، بابُ بَيَانِ الشُّهَدَاءِ، حديث رقم ١٩١٥.

(٣) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، (١٣ / ٦٢-٦٣).

(٤) السندي، حاشيته على سنن النسائي، (٦ / ٣٣).

من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرَّجَهُ بِفَرْجِهِ»^(١).

وفي رواية، قال سَعِيدُ بْنُ مَرْجَانَةَ: «فَأَنْطَلَقْتُ حِينَ سَمِعْتُ الْحَدِيثَ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، فَذَكَرْتُهُ لِإِلْيَاسِ بْنِ الْحُسَيْنِ، فَأَعْتَقَ عَبْدًا لَهُ، قَدْ أَعْطَاهُ بِهِ ابْنُ جَعْفَرٍ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ أَوْ أَلْفَ دِينَارٍ»^(٢).

قال النووي: «فيه بيان فضل العتق، وأنه من أفضل الأعمال، ومما يحصل به العتق من النار ودخول الجنة»^(٣).

وقد قال الله صلى الله عليه وسلم، من قبل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٣]، «وقوله ﴿الْعَقَبَةُ﴾: أي الطريق التي في الجبل، سُمِّيَتْ بذلك؛ لصعوبة سلوكها، وهو مثل ضربه صلى الله عليه وسلم لمجاهدة النفس والهوى والشيطان، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة، وقوله ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: أي إعتاقها وتخليصها من أسار الرق، فقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أن العقبة هي هذه القُرب المذكورة التي تكون بها النجاة»^(٤).

قلت: ويدخل في عتق الرقاب فكك الأسرى من قبضة الأعداء، وذلك بشتى الوسائل سواء بالفداء، أو بمبادلتهم بأسرى الكفار، أو بإعلان النفي العام؛ لاستخلاصهم، وعدم تركهم يُفْتَنُونَ، ويُعَذِّبُونَ في سجون الأعداء، فقضية الأسرى في زماننا من الأولويات، كما كان في صدر الدعوة عتق العبيد ممن كانوا عند الكفار من الأولويات.

قال الشهيد سيِّدُ قُطْبٍ: «لقد كان أبو بكر رضي الله عنه يقتحم العقبة، وهو يعتق هذه الرقاب العانية لله، وكانت الملابس الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل

(١) البخاري، الصحيح الجامع، (١٤٥/٨)، كِتَابُ كَفَارَاتِ الْإِيمَانِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، وَأَيُّ الرِّقَابِ أَرْكَى، حديث ٦٧١٥، مسلم، الصحيح

الجامع، (١١٤٧/٢)، كِتَابُ الْعَتَقِ، بَابُ فَضْلِ الْعَتَقِ، حديث ١٥٠٩.

(٢) البخاري، الصحيح الجامع، (١٤٤/٣)، كِتَابُ الْعَتَقِ، بَابُ فِي الْعَتَقِ وَفَضْلِهِ، حديث ٢٥١٧، مسلم، الصحيح الجامع، (١١٤٧/٢)، كِتَابُ الْعَتَقِ، بَابُ فَضْلِ الْعَتَقِ، حديث ١٥٠٩.

(٣) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، (١٥١/١٠).

(٤) انظر: الشوكاني، فتح القدير، (٥٤٠/٥-٥٤١).

يُذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة في سبيل الله»^(١).

وفكاك الأسرى اليوم يجب أن يُذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبات الكأداء في الآخرة، قال الشيخ السعدي: «فكُّها من الرِّقِّ، بعثتها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار»^(٢).

المطلب السادس: اللطائف الدعوية والتربوية في الحديث:

١- على الدعاة أن يستفروا هم المؤمنين للجهاد في سبيل الله للدفاع عن الثوابت والحقوق واسترجاعها لا سيما المقدسات المسلوبة والبلاد المنهوبة من قبل أعداء الله اليهود.

٢- فيه ما كان عليه النبي ﷺ من علو الهمة والتشوف نحو الدرجات العلى وتمنيه الشهادة في سبيل الله تعالى.

٣- على المؤمن أن يرتقي بأمنيته، فلا يتمنى إلا ما يقربه من الله ويرفع درجاته في أعالي الجنان، وعليه أن يجتنب الأمنيات الرخيصة التي تنسيه الآخرة وتصدّه عن سبيل الله، فإن الله يحب معالي الأمور ويغض سفاسفها.

٤- استحباب طلب الشهادة والتعرض لها والسعي نحوها ابتغاء وجه الله تعالى.

٥- على المسلم أن يجمع بين أبواب الخير كلها، فيكون له نصيب منها قدر المستطاع، فقد كان أحد رواة الحديث خالد بن معدان كذلك، كما جاء في ترجمته: عابداً زاهداً مجاهداً عالماً عاملاً.

٦- أهمية إعتاق الرقاب وفكاك الأسرى، وأثر ذلك في لحمة المسلمين، والتكافل بينهم.

٧- على المسلم دائماً أن يستحضر نية الخير في كل شئونه حياته، فلا يزال المرء بخير ما دام ينوي الخير، والله سبحانه يثيب على ذلك.

٨- فيه إثارة الصالحين من الصحابة والتابعين الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، كما فعل عليُّ ابن الحسين عندما أعتق عبداً له، قد أعطاه به ابن جَعْفَرٍ عَشْرَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ أَوْ أَلْفَ دِينَارٍ.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/٣٩١٢).

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩٢٥.

الخاتمة

﴿رزقنا الله حُسْنَهَا وَزِيَادَةً﴾

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي أنعم عليّ وأعانني على إتمام هذا البحث، فأسأله ﷺ أن يكتب له القبول في الدنيا والآخرة، وأن يجعله من الأعمال المبلّغة إلى دار السلام، والموجبة للفوز بحسن الختام، أمّا بعد:

فبعد خوض غمار هذا البحث والعيش معه في رحاب الشهادة وفضائل الشهيد وأمنيّاته، أضع بين يدي القراء الكرام ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات:

أولاً: النتائج:

١. لقد التزم الإمام النسائي في تخريج هذا الحديث بشرطه الذي وضعه لسننه، فلا يوجد في إسناده أحد من الرواة المختلطين الذين ترك حديثهم لعلّة الاختلاط من جهة، ومن جهة أخرى جميعهم ثقات سوى شيخ النسائي عمرو بن عثمان فإنه صدوق حجة لا ينزل عن الثقة كثيراً، علماً أن النسائي خرّج هذا الحديث شاهداً لحديث أبي هريرة ﷺ في ذات الباب.

٢. من منهج الإمام النسائي في هذا الحديث الاختصار في أسماء شيوخه، وكذلك تقسيم متن الحديث الواحد إلى جمل بإسناد واحد.

٣. من لطائف إسناده هذا الحديث أنه يعدّ مثلاً لرواية الوجدان، حيث إن الصحابي ابن أبي عميرة ﷺ لم يرو عنه أحد مطلقاً غير جبير بن نفير.

٤. يصح أن نطلق على هذا الحديث بأنه رواية مجاهدين؛ إذ إن أحد رواته كان كثير الجهاد، وهو خالد بن معدان، وصحابيه ابن أبي عميرة قد نزل الشام مرابطاً مجاهداً.

٥. فيه فضل الهجرة إلى الشام؛ للرباط فيها وحماية ثغور المسلمين، ولذلك فإن راوي الحديث الصحابي ابن أبي عميرة، وغيره من الصحابة قد نزلوا الشام وأقاموا فيها.

٦. سُمّي الشهيد بذلك لعدة أسباب، منها: أن الله تعالى وَمَلَأْنَا كَتَمَهُ شَهِدُوا لَهُ بِالْجَنَّةِ، ولقيامه بِشَهَادَةِ الْحَقِّ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى قَتَلَ، وَلِأَنَّهُ يَشْهَدُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ بِالْقَتْلِ... إلخ.

٧. اعلم أن التمني قسمان؛ أحدهما مذموم والآخر محمود، فأما المذموم فهو ما يجعل صاحبه متعلقًا في الدنيا، غافلاً عن الآخرة، وهو الذي يسمى بطول الأمل، وأما النوع المحمود فهو الذي يكون في أبواب الخير، وترتب عليه الأجر والمثوبة عند الله تعالى، ومنه تمنى الشهادة والقتل في سبيل الله.

٨. لم يُذكر في آية أو حديث أن أحدًا من أهل الجنة يتمنى الرجوع إلى الدنيا سوى الشهيد، أما الفجار والكفار وأهل النار فقد ورد أنهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا ويتوبوا ويتزودوا للآخرة.

٩. السر في تمنى الشهيد الرجوع إلى الدنيا، وذلك ليقتل في سبيل الله تعالى مرات أخرى؛ لما يرى من الكرامة، وفضل الشهادة.

١٠. من هذه الكرامات التي أعدها الله للشهيد مما ثبت في السنة النبوية: أنه لا يجد ألم القتل، وأنه تُكفر عنه خطاياها إلا الدين، وأن رائحة دمه مسك يوم القيامة، وأنه يُرَوَّجُ باثنتين وسبعين من الحور العين، وَيُشَقَّعُ في سبعين من أهله، وَيُجَارُّ من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر... إلخ.

١١. السرُّ في تأمين الشهيد من الفزع؛ أنه لا يجتمع للعبد فزعان، فمن فزع في الدنيا فلا يفزع في الآخرة.

١٢. الذي يظهر من الأحاديث الصحيحة أنَّ الكرامات والفضائل لا تقتصر ولا تنحصر فيمن قُتل شهيدًا، بل تشمل كل من قصد الشهادة وسعى لها وإن مات على فراشه.

١٣. جاء في أحاديث كثيرة، أن الشهيد لا ينحصر فيمن قتل في سبيل الله، وإنما هناك أنواع أخرى من الشهداء، كالغريق والحريق والنفساء... إلخ.

١٤. يظهر من فوائد الحديث فضل الإعتاق وفكك الرقاب في سبيل الله تعالى؛ إذ جعل ذلك وسيلة للمقارنة مع فضل الشهادة.

١٥. يدخل في عتق الرقاب فكاك الأسرى من قبضة الأعداء، فإن لذلك أهميةً وأثرًا بالغًا في لحمة المسلمين، والتكافل بينهم.

ثانيًا: التوصيات:

١. يوصي الباحث المتخصصين في العلوم الشرعية، وطلبة الحديث خاصة بإظهار كنوز السنة النبوية، وإبراز معالمها، وذلك من خلال الدراسة التحليلية لأحاديثها.
٢. يوصي الباحث بدراسة الأحاديث التي تهتم بواقع المسلمين وهمومهم؛ لوضع الحلول المناسبة لهم.
٣. على الدعاة أن يستفzوا هم المؤمنين للجهاد في سبيل الله للدفاع عن الثوابت والحقوق واسترجاعها لا سيما المقدسات المسلوذة والبلاد المنهوبة من قبل أعداء الله اليهود.
٤. على ولاة أمور المسلمين، ومجاهديهم أن يسعوا إلى تحرير أسراهم من سجون الأعداء، وذلك بشتى الوسائل سواء بالفداء، أو بمبادلتهم بأسرى الكفار، أو بإعلان النفي العام؛ لاستخلاصهم، وعدم تركهم يُفتنون، ويُعدبُون في سجون الأعداء، ولذلك قضية الأسرى في زماننا من الأولويات، كما كان في صدر الدعوة عتق العبيد ممن كانوا عند الكفار من الأولويات.
٥. على المسلم أن يجمع بين أبواب الخير كلها، فيكون له نصيب منها قدر المستطاع، فقد كان أحد رواة الحديث خالد بن معدان كذلك، كما جاء في ترجمته: عابداً زاهداً مجاهداً عالماً عاملاً.
٦. على المسلم دائماً أن يستحضر نية الخير في كل شئون حياته، فلا يزال المرء بخير ما دام ينوي الخير، والله سبحانه يثيب على ذلك.

فهرس المصادر والمراجع:

١. ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٩، ١٤٠٨هـ.
٢. أبو الحجاج، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، جمال الدين ابن الزكي المزي (ت ٧٤٢هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط ١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
٣. أبو الحسن، علي بن أبي بكر الهيثمي، (ت ٩٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.
٤. أبو الحسن، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، (ت ٤٥٨هـ)، المخصص، المحقق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
٥. أبو الحسن، محمد بن عبد الهادي التتوي، نور الدين السندي، (ت ١١٣٨هـ)، حاشية السندي على سنن النسائي - مطبوع مع السنن - مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٦. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ = صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٧. أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (ت ٣٩٥هـ) معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.
٨. أبو السعادات، مجد الدين، المبارك بن محمد الشيباني، المشهور بابن الأثير الجزري، (ت ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٩. أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري الكناني الشافعي، (ت ٨٤٠هـ)، مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية - بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.
١٠. أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ت ٧٧٤هـ، تفسير القرآن العظيم، مصر، دار الحديث، ط ١، ١٤٠٨هـ.
١١. أبو الفرج، جمال الدين، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (ت ٥٩٧هـ)، غريب الحديث، المحقق: الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي، الكتب العلمية - بيروت - لبنان،

ط١، ١٤٠٥ - ١٩٨٥.

١٢. أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٣. أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس المشهور بـ «طبقات المدلسين، تحقيق: د. عاصم ابن عبد الله القريوتي، مكتبة المنار- عمان، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

١٤. أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، بيروت، دار القلم، ط٣، ١٤١١هـ.

١٥. أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد- سوريا، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

١٦. أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار الفكر- بيروت، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

١٧. أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٨. أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد الحميد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط٢، د.ت.

١٩. أبو القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ)، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ.

٢٠. أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، (ت ٢٨٧هـ)، الجهاد، تحقيق مساعد بن سليمان الراشد الجميد، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢١. أبو بكر، عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت ٢١١هـ)، المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. من منشورات المجلس العلمي، بدون معلومات عن الطبع.

٢٢. أبو بكر، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، (ت ٣٢٨هـ)، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢.

٢٣. أبو زكريا، أحمد بن إبراهيم بن محمد، محيي الدين الدمشقي ثم الدمياطي، المعروف بابن النحاس (ت ٨١٤ هـ)، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام، تحقيق: إدريس محمد علي، ومحمد خالد اسطنبولي. الطبعة الأولى، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٠ هـ.

٢٤. أبو زكريا، يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٢، ١٣٩٢ هـ.

٢٥. أبو سعيد، خليل بن كَيْكَلدي العلاني، (ت ٧٦١ هـ)، جامع التحصيل في أحكام المراسيل، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار عالم الكتب - بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٦. أبو طاهر، مجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ)، القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٧ هـ.

٢٧. أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، (ت ٣٠٣ هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٨. أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، (ت ٣٠٣ هـ)، سنن النسائي - المجتبى من السنن -، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط ٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٩. أبو عبد الرحمن، عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المروزي (ت ١٨١ هـ)، الجهاد، تحقيق: نزيه حماد. جدة، دار المطبوعات الحديثة.

٣٠. أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر، ط ١، ١٩٦٨ م.

٣١. أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١ هـ)، المسند، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٣٢. أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَازَ الذهبي، (ت ٧٤٨هـ)، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة، ط ١، ١٣٤١هـ- ١٩٩٢م.

٣٣. أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، ت ٦٧١هـ، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق: د. الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٥هـ.

٣٤. أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَازَ الذهبي، ت ٧٤٨هـ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٣م.

٣٥. أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري، (ت ٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة- بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.

٣٦. أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، ت ٢٥٦هـ، التاريخ الكبير، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن.

٣٧. أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن، المشهور بالحكيم الترمذي، (ت ٣٢٠هـ)، نوارد الأصول في أحاديث الرسول ﷺ، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل- بيروت.

٣٨. أبو عبد الله، محمد بن يزيد القزويني، الشهير بابن ماجه، (ت ٢٧٣هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٣٩. أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، ت ٤٦٣هـ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل- بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٤٠. أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى العلوي، ومحمد البكري، مكة، المكتبة التجارية، ط ٢، ١٤٠٢هـ.

٤١. أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، (ت ٢٧٩هـ)، جامع الترمذي المشهور بـ «السنن»، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الجيل- بيروت، ودار العرب الإسلامي- بيروت، ط ٢، ١٩٩٨م.

٤٢. أبو محمد، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، زكي الدين المنذري (ت ٦٥٦هـ)،

- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ضبط وتعليق: مصطفى عمارة. الطبعة الثالثة، مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، عام ١٣٨٨هـ.
٤٣. أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ.
٤٤. أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، (ت ٤٣٠هـ)، معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٤٥. أبو يوسف، يعقوب الفسوي، (ت ٢٧٧هـ)، المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤١٠هـ.
٤٦. أحمد مختار عبد الحميد عمر، (ت ١٤٢٤هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٤٧. أحمد يوسف أبو حليبة، الكشاف المبين في مناهج المحدثين، كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة - فلسطين.
٤٨. باسم الجوابرة، تفريج الكرب بفضائل شهيد المعارك والحرب، الطبعة الأولى، الرياض: دار الراية، عام ١٤١٣هـ.
٤٩. سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، (ت ١٣٨٥هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت - القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ.
٥٠. صديق حسن خان القنوجي، العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، تحقيق: محمد السعيد زغلول. الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.
٥١. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (ت ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويح، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٥٢. علاء الدين مغلطاي بن قليج الحنفي، ت ٧٦٢هـ، إكمال تهذيب الكمال، تحقيق: أبي عبد الرحمن، عادل بن محمد، وأبي محمد أسامة بن إبراهيم، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٥٣. علي نايف بقاعي، مناهج المحدثين العامة والخاصة (الصناعة الحديثية)، دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
٥٤. مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت ١٧٩هـ)، الموطأ، تصحيح وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٥. محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، إخراج: دائرة المعاجم في مكتبة لبنان. بيروت، مكتبة لبنان، عام ١٩٩٢م.
٥٦. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١٤، ١٤٠٧هـ.
٥٧. محمد بن علي الشوكاني اليمني، (ت ١٢٥٠هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ.
٥٨. محمد مرتضي الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: إبراهيم التريزي. بيروت، دار إحياء التراث العربي، عام ١٣٨٥هـ.
٥٩. محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف - الرياض، السعودية، ط ٥، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٦٠. محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، د. ط، د. ت.
٦١. محمد ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز وبدعها، الطبعة الأولى، بيروت، المكتب الإسلامي، عام ١٣٨٨هـ.
٦٢. محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقها وفوائدها، مكتبة المعارف - الرياض، ١٤١٥هـ.
٦٣. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الموسوعة الفقهية الكويتية - ٤٥ جزءًا: الأجزاء (١ - ٢٣)، ط ٢، دار السلاسل - الكويت، الأجزاء (٢٤ - ٣٨)، ط ١، مطابع دار الصفوة - مصر، الأجزاء (٣٩ - ٤٥)، الطبعة الثانية، طبع الوزارة، (من ١٤٠٤ - ١٤٢٧هـ).

معالم النظر المقاصدي في آي الكتاب عند الإمام عبد السلام ياسين منهجا وموضوعا

أ.د محمد رفيع*



الملخص:

يروم هذا البحث تتبع معالم النظر المقاصدي في تفسير آيات القرآن عند الإمام عبد السلام ياسين، وذلك من خلال مبحثين: أحدهما يتتبع منهج الإمام الذي اعتمده في التفسير، والثاني يتتبع نماذج من القضايا المعرفية التي استمدها بمنهجه من القرآن.

Abstract:

This research aims to trace consideration Milestones of Maqasid in the interpretation of Quran at IMaM AbdessaLaM yassine through two topics: the first: foLLow iMaM yassine's Method in his interpretation of the Quran; the second is foLLow ModeLs of cognitive issues.

* أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة ورئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس - المغرب تاريخ وصول البحث ٢٠٢١\٢\٢٨م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠٢١\٣\١٣م.

مقدمة:

لما كان القرآن خطابا ربانيا ختاميا للإنسان قصد هدايته في حياته التي هي أقوم، التزمه المؤمنون تلاوة وتدبرا واهتبل به العلماء تفسيرا وتأويلا واستنباطا من أجل الاستهداء بنوره في حياة الناس أفرادا وجماعة، فتفاوت الناس في الاستمداد من هذا المعين الرباني الذي جمع فأوعى، إنه ﴿كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فتفاوت الناس في الاستمداد من هذا الكتاب بتفاوتهم فيما توسلوا به من مناهج التزموها، فمنهم سابق لزمانه فيما استمده غير منحصر في تفاصيل فتن زمانه، ومنهم مقتصر على مدلولات ألفاظه أفرادا لا تركيبا ظاهرة وباطنة، ومنهم دون ذلك . ولعل من الأعلام المعاصرين الذين تميزوا في الاستمداد من كتاب الله تعالى على نحو غير معهود في كثير من استمداداته الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله الذي كان يصدر في كل اجتهاداته التفسيرية والتأويلية والتنظيرية عن نظر مقاصدي نافذ، فريد من خلال هذا البحث التحقق من دعوى صدور هذا الإمام في تفسير القرآن عن نظر مقاصدي، خصوصا وأن الموضوع بكر غير مطروق فيما أنجز من أبحاث ودراسات علمية في فكر هذا الإمام.

ومن أجل الإحاطة بإثباتات هذه الدعوى اخترنا أن نعالج الموضوع في مبحثين اثنين: أحدهما منهجي والثاني معرفي، وذلك وفق منهج يجمع بين استقراء المادة العلمية من مظانها الأصلية في كتابات الإمام ياسين، ومن مظان أخرى تبعية عند الموجب، وبين تحليل القضايا وتعليل الآراء ومقارنتها بغيرها في سياق التصور العام للموضوع.

المبحث الأول: معالم النظر المقاصدي منهجيا

تتميز منهج الإمام ياسين في النظر في آيات كتاب الله تعالى بالجمع دون تفريق تمثل الموضوع والقول فيه، وذلك في سياق رؤية مقاصدية مبصرة للموضوع وناظمة للمنهج، يمكن رصد هذا المنهج في النظر في الكتاب من المعالم الآتية:

الاحتكام والامتثال للقرآن حالاً ومقالاً

من المداميك الأولى المؤسسة لمنهج الإمام ياسين في النظر في القرآن تدبراً وتفسيراً واستدلالاتاً واستنباطاً تحقق حالة قلبية وعقلية من التفاعل الإيماني مع القرآن للناظر في القرآن امتثالاً لمقتضياته واحتكاماً لتكاليفه حتى يفتح باب الفهم والعطاء، يقول: «إنما يحتكم إلى القرآن، ويرقي فهمه إلى التلقي عن القرآن، ويحفظ حرمة القرآن، من كان القرآن ربيع قلبه، والنظر فيه قرّة عينه، والامتثال له راحة روحه»^(١).

قد يستغرب البعض من عد هذا النوع من الحالة الذاتية الروحية الممزوجة بالعاطفة قاعدة منهجية في البحث والتفسير، ذلك إن كنا نروم تسطيح معنى المنهج، أما إن كنا نتوخى روح المنهج وعمقه المفضي إلى الإبداع، فلا يمكن تجاوز حالة التفاعل القلبي والعقلي للباحث مع الموضوع، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالخطاب الإلهي للإنسان عبر الزمان والمكان وفي كل الأحوال، فتلقي الخطاب الإلهي غير تلقي الخطاب البشري من حيث لزوم الإيمان والامتثال في الأول دون الثاني، لذلك ظل الإمام ياسين يلح على هذه القاعدة الإيمانية في تلقي الخطاب القرآني، لأنه أدرك من النص القرآني نفسه أن تفهيم معانيه عطاء من الله ابتداءً على شرط الافتقار والاضطرار إليه ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

كما أوجب من الخطاب القرآني أن اكتمال التلقي بقدر اكتمال التلقي عبودية وامتثالاً بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٨٢]، وقوله سبحانه في بيان مسالك التلقي: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

فأول خطوة منهجية في حسن التلقي عن القرآن إضمار قصد التبعيد حتى يكون العلم المتلقى نافعاً، فقيمة العلم من حيث هو وسيلة إلى التبعيد كما

(١) ياسين عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ: مطبعة فضالة، المحمدية، ط ١/٩٨٩م، ص ٢٣.

قال الشاطبي رحمه الله^(١)، فالإمام ياسين أدرك تماما أن قضايا العلم والمعرفة لا تخرج عن إطار التعبد الناظم للشرائع كلها، قال الشاطبي: «الشرع إنما جاء بالتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام»^(٢)، فكلما صح القصد صح العلم المتلقى ونفع، وهو لا يخرج عن كونه عملا ناشئا عن الإيمان، وعليه كان الكفر في نظره مانعا من موانع الفهم والتلقي^(٣).

استقراء المعاني الجزئية لبناء المعرفة الكلية

إن من معالم النظر المقاصدي في منهج الإمام ياسين رحمه الله إصراره على التماس المعارف الكلية الناضجة للمعارف الجزئية، وذلك استجابة منه لمقتضى حال واقع الأمة الذي بلغ من التعقيد والتركيب في حاجياته وأسلته ما تتعذر معه الإجابات الجزئية، وهذا ما أعلنه بوضوح في قوله: «لكن الذي نحن بحاجة إليه هو الفقه الكلي الذي يشمل كل العبادات الفردية والمعاملات الجزئية، في نسق واحد يؤدي وظيفة إحياء الأمة وإعادة لها إلى حضن الشريعة وصراف الله»^(٤).

من هذا المنطلق تعامل مع آيات كتاب الله تعالى ملتصقا منها على جهة الاستقراء الأجوبة الكلية الشافية لحال الأمة لتقوى على استئناف النهوض الحضاري، فلم يكن رحمه الله ممن يتتبع المعاني الجزئية من ألفاظ آيات كتاب الله تعالى، كما هو ديدان أهل المدونات التفسيرية الذين يتتبعون معاني القرآن آية آية من بدايته إلى نهايته وفق المنهج الجزئي، وإنما يستعرض آراء المفسرين من هذا القبيل في الآية أو المقطع القرآني لينتقل بعدها إلى الآفاق الدلالية للآيات في ضوء الكليات الشرعية الشاهدة.

فعند تدبره وتفسيره لما جاء في سورة البلد، ذكر بالمنهج الفقهي الجزئي في استنباط ما بالآيات من المعاني الجزئية الفردية، حيث قال: «فلا نقاش في أن فك الرقبة المؤمنة في الكفارات وغيرها قرينة، والصدقة على اليتيم والمسكين عمل

(١) ينظر الشاطبي، أبو إسحاق. الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ٣، ٢٠٠٣، ٤١/١.

(٢) الشاطبي، الموافقات ٤١/١.

(٣) ينظر ياسين عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ ص ٢٤.

(٤) ياسين، عبد السلام. المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا، طبعة ١٩٨٩/٢ بدون المكان،

صالح، وصحبة المؤمنين ومشاركتهم في الحق والصبر انضمام للجماعة مأمور به، الأحكام التفصيلية باقية على وجهها»^(١)، فهي جزء من مدلول الآيات وليست نهاية مدلول الخطاب الإلهي الحاكم المرجعي على الزمان والمكان والحال، يقول رحمه الله: «للفقيه أن يدرج فك الرقاب في باب الكفارات، ويديرج إطعام اليتيم والمسكين في باب الصدقات، ويديرج انضمام المؤمن للجماعة في باب الوعظ والرقائق.»^(٢)، لكن منشود الإمام من النظر الكلي المنهاجي لا يسعه «ما يسع الفقيه، لا يسعه أن يقف عند ذلك التصنيف. وإلا ضاعت من أمامه معاني النداء والاستجابة والعقبة والاقتحام»^(٣)، فقيمة المعاني الجزئية المستنبطة في نظر الإمام ياسين بمقدار اندراجها في سلك الفقه الكلي؛ حيث يقول: «وما فرعوا من الأحكام ثمرة مذكورة مشكورة إن لم يتعارض شيء منها مع منهاج السنة الكلي: الشورى والعدل والإحسان»^(٤).

وعند بيانه مفهوم «الدرجة» في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَىٰهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، ذكر أن التفسير الفقهي التاريخي لمفهوم الدرجة لا ينفك عن الشرط الاجتماعي والثقافي الذي يعيشه، وعن الحاصل والممكن في زمنه،^(٥) فهذا الحافظ ابن كثير يرى أن الدرجة في الآية «في الفضيلة والخلق والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة»، وذكر الإمام الطبري في معنى الدرجة «يطعن الأزواج الرجال، وليس الرجال يطعونهن»، وذكر القرطبي أقوالاً كثيراً منها: «الإمرة والطاعة»، ومنها «الliche»، وغيرها.

وعقب الإمام على تلك المحامل الجزئية لمفهوم الدرجة بقوله: «هذه «الدرجة» التي أعطاها الله عز وجل للرجال على النساء بصريح النص القرآني هي ترجيح لكيفة الرجال في ظاهر الأمر، وهي إنما هي تثقيف لميزان الرجل

(١) ياسين، عبد السلام. مقدمات في المنهاج ص ٥٧.

(٢) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ٥٨.

(٣) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٤) ياسين عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ ص ١٧.

(٥) ينظر ياسين، عبد السلام. تنوير المومنات ، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت،

بمناقيل المسؤولية، وتخفيف عن أعباء المرأة التي ندبها الشرع لمسؤولية عظيمة يصرح بها الشرع ويلوح إليها ويضمّن أحكام التوزيع للواجبات والمسؤوليات بين الرجل والمرأة»^(١).

وهذا نظر مقاصدي عميق في وضع الأحكام والمعاني الجزئية في سياق معانيها الكلية، إذ المعاني الجزئية مندرجة تحت معانيها الكلية، وإلا تناقضت الأحكام الشرعية التفصيلية في منظور النظرة الجزئية، خصوصا وأنها جعلت المرأة مواطنة من الدرجة الثانية^(٢) حسب تعبير الإمام ياسين، مع أن حديث القرآن عن الزوج والزوجة إنما جاء في سياق البناء الأسري تأسيسا وتدبرا. فالإمام يرى أن النظر في آيات الله يلزم أن يكون نظرا مقاصديا كليا للتمكن من استمداد معالم الهداية لواقع الأمة وحالها من خلال المفاهيم القرآنية الحبلى بالمعاني الشاملة الشافية، ومنها مفهوم «اقتحام العقبة» الذي عده مفهوما قرآنيا ناظما لمعاني مشروع نُحوض الأمة، حيث يقول: «اقتحام العقبة إذن تحرك إرادي تتعرض له العقبة فتمانعه ويغالبا حتى يتم الاقتحام. حركة الفرد المؤمن في سلوكه إلى الله عز وجل، وحركة الجماعة المجاهدة في حركتها التغييرية، وحركة الأمة في مسيرتها التاريخية»^(٣).

فالمفهوم مركب من شطرين أولهما الاقتحام بما هو سلوك إرادي جهادي في اتجاه مقام الإحسان والاستخلاف، وثانيهما العقبة التي تمثل الواقع الموضوعي الطبيعي والإنساني المطلوب اقتحامه، وبهذا الاقتحام يتقدم الإنسان في مقامات الإيمان إلى ذروة الإحسان^(٤)، ولذلك فالمعاني الكلية لمكونات العقبة وأبعادها الواردة في السورة عند الإمام ثلاثة: أولها: الرق الذي يستعبد الإنسان فإذا هو رهين بإرادة غير إرادته، وثانيها: العوز الذي يقعد بالمسكين واليتيم، تمنعهم المسغبة والاهتمام بالقوت عن كل خير. وثالثها: الانفراد عن جماعة المؤمنين الذين يتأتى السفر والاقتحام في كنفهم^(٥).

(١) ياسين، عبد السلام، المصدر السابق ١/٢٠٣.

(٢) ياسين، عبد السلام، المصدر السابق ١/٥٦.

(٣) ياسين، عبد السلام، مقدمات في المنهاج ص ١٦.

(٤) ينظر ياسين، عبد السلام، العدل الإسلاميون والحكم، مطبعة الأفق، البيضاء، ط

١/٢٠٠٠م. ص ٢٣.

(٥) ينظر ياسين، عبد السلام. مقدمات في المنهاج ص ٥٧.

بعد ذلك نجد الإمام يصوغ المعاني الكلية لمكونات مفهوم العقبة بلغة إجرائية معاصرة تجيب عن أسئلة الزمان، حيث يقول: «فك الرقبة تحرير الإنسان من العبودية لغير الله عز وجل، إطعام اليتيم والمسكين، تحرير لطاقاته لينتج ما به يستطيع أن يطعم المعوزين ابتداءً من إطعام نفسه، الكينونة مع الذين آمنوا تحرير للإنسان المؤمن الفرد من العزلة والخمول والانفراد، وإدماج له في الجماعة ليتحزب لله عز وجل. ثلاث مجالات: المجال النفسي، والمجال الاقتصادي، والمجال السياسي.»^(١).

وإشكال ضبط المعرفة الجزئية بالمعرفة الكلية الذي التزمه الإمام ياسين في منهجه هو الأهم الأعظم الذي بنى عليه الإمام الشاطبي مشروعه التجديدي في كتابه الموافقات حيث قال: «فمن الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكليات عند إجراء الأدلة الخاصة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس إذ محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها، فمن أخذ بنص مثلاً في جزئي معرضاً عن كليته فقد أخطأ، وكما أن من أخذ بالجزئي معرضاً عن كليته فهو مخطئ كذلك من أخذ بالكلي معرضاً عن جزئيه»^(٢).

قراءة التراث التفسيري في سياقه التاريخي

يميز الإمام ياسين بين نص القرآن التأسيسي ونص بيانه التفسيري، فالنص الأول إلهي المصدر، مرجعي أبدي شامل لكل الأزمنة والأمكنة والأحوال بخلاف النصوص التفسيرية التي ترجع إلى الاجتهاد البشري النسبي الذي لا يتجاوز حدود وعائه الزمني والمكاني ثقافة ومعرفة، فهذه النسبية للنصوص التفسيرية تقتضي منهجياً قراءته والاستئناس به وفق شروطه الزمانية والمكانية التي أنتج فيه، دون الانحسار في مذاهبه وحدود أفقه، لأن ذلك في نظر الإمام من شأنه أن يؤدي إلى آفة التقليد التي تحرم صاحبها من الاستفادة المباشرة من كتاب الله. فتقليد الرجال وتقديس اجتهاداتهم ونزع النسبية عنهم في نظر الإمام ياسين من شأنها أن تشكل حجبا معرفية ومنهجية بين المقلد ومصدر الهداية المعرفية

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٢) الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات ٥/٣.

في كتاب الله، يقول الإمام رحمه الله: «لا يستطيع التجرد لحاكمية القرآن المباشرة وتحكيمه المقلدة الذين رقدوا عند قدمي فحل من فحول العلماء الماضين إلى عفو الله إن شاء الله، جاهلين نسبية ذلك الفحل أو ذلك المذهب ومحدوديته في إطار تاريخه، وتاريخ الحكم في عهده، وملازمات اجتهاده السياسية والاجتماعية والشخصية والصراعية المذهبية التي خاضها»^(١).

فالنظر إلى التراث عموماً والتراث التفسيري خصوصاً في نسبيته يتمكن الباحث من النظر النقدي للتراث العلمي باكتساب القدرة على التمييز بمعيار القرآن بين أصيله ودخيله، وبين المفيد المناسب وبين غيره، فنفيد من تراث سلفنا ما ينفع واقعنا وقضايانا مما يشهد له القرآن، يقول الإمام: «في تجارب سلفنا الصالح من العلماء وفي محاولاتهم واجتهاداتهم ما هو حريّ بإثراء تجربتنا، وتقويم محاولتنا، وتوجيه اجتهادنا إن نحن وضعناها جميعاً أمام القرآن والقرآن يحكم، نفحصها على ضوءه، في نشوئها وتسلسلها، وتعاقب أشكالها ومناهجها، وتأثيرها بحركة الحياة العامة وتأثيرها فيها، وإقدامها وإحجامها، ونتائج صوابها وخطئها»^(٢).

فمن باب الإنصاف ومقتضى النظر المنهجي الكلي كان حرص الإمام ياسين على إبراز الواقع البئيس والظرف الخطير الذي عاشه علماء السلف وقاومه بعضهم بفقته العزيمة والاختيار وصانعه آخرون بفقته الترخص والاضطرار، لأن الكل مدفوع عن دائرة الشأن العام «فإن أبدى المجتهد رأيه في «السياسة الشرعية» فإنما هو أمر بالمعروف ناه عن المنكر من خارج وفي حدود لا ينبغي أن يتعداها»^(٣)، وهي الظروف التاريخية الاستثنائية التي تلت الانقلاب الأموي على الحكم الإسلامي، وتطورت سوءاً مع الزمان وازدادت قتامة مع الأحداث، فآل الأمر بعد طول مقاومة ومصابرة حسب الإمام ياسين إلى انحباس الإنتاج المعرفي بإعلان انسداد باب الاجتهاد نهاية القرن الرابع الهجري^(٤).

(١) ياسين عبد السلام، المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) ياسين عبد السلام، المصدر السابق ص ٣٣.

(٣) ياسين عبد السلام، المرجع السابق ص ٧٢.

(٤) ينظر ياسين عبد السلام، العدل، ص ٦٦.

التفسير وفق السياق المعاصر

انطلق الإمام ياسين في النظر في آيات كتاب الله تعالى من واقع حال الأمة وإشكالاته الكبرى ومطالبه الكلية لأنه المقصود الزماني بخطاب الله في كتابه، ومنه تستمد الهداية المطلوبة لهذا الواقع، من أجل الانتقال بالأمة من درك الفتنة تحت الحكم الجبري إلى التمكين الحضاري تحت الخلافة الثانية على منهاج النبوة، فجاءت نظراته التفسيرية بعيدة عن المقاربات النظرية المجردة، ومرتبطة بما يجيب عن أسئلة الزمان الحاضر التي منها انطلق أصلا في مشروعه التجديدي.

وقد أفصح الإمام ياسين بوضوح تام عن أصل مراعاة واقع الأمة في منهج نظره في التراث التفسيري حين قال: «نرجع إلى تأصيلاتهم ناظرين إليها من إزاء القرآن والسنة، ناظرين إليها أيضا من زاوية واقعنا وظروفنا»^(١).

فإدراك الواقع واستيعاب خصوصياته وحيثياته مقدمة لازمة عليها يتأسس إدراك وجه المصلحة المرجو جلبها أو المفسدة المطلوب درؤها من أحكام كتاب الله تعالى، وذلك بناء على أن «شرع الله أينما كانت مصلحة المسلمين. ومن لا يعرف واقع المسلمين ومنابع الفتنة في تاريخه، وحاضرهم في العالم وحضورهم، وطبيعة الصراع الدائر بين الإسلام والصليبية اليهودية، لا يستطيع أن ينزل شرع الله على واقع يستعصي، ويمتنع، وبماطل»^(٢).

ومقتضى القول بمراعاة الواقع وظروفه الانطلاق من إشكالاته وأسئلته في النظر إلى كتاب الله تعالى التماسا للهداية، خصوصا وأن المطلوب منا «تحليل مجتمعاتنا لتشخيص أمراضنا، وإعداد النظرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتنظيمية الكفيل تطبيقها بعلاج الأمة، ضرورة»^(٣)، كما أن زماننا له خصوصيات يفارق بها أزمنة المفسرين والفقهاء من علمائنا، فلزم النظر في كتاب الله بهذا المقتضى، يقول الإمام: «نحن في زماننا نقدر أن ما ضاع منا كثير وأن ما بقي آثل إلى ضياع إن لم نهض للطلب، طلب الإسلام كله، طلب الإيمان بشعبه، طلب الخلافة على منهاج النبوة، طلب الشورى والعدل والإحسان»^(٤).

- (١) ياسين عبد السلام، نظرات في الفقه والتاريخ ص ١٠٩.
- (٢) ياسين، عبد السلام. تنوير المؤمنات ص ٦٥.
- (٣) ياسين، عبد السلام. منهاج النبوي ص ٣٢٩.
- (٤) ياسين عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ ص ٩٦.

وبناء على هذا الاختلاف في الموضوع الذي اقتضى اختلاف المنهج، أو بالتعبير الأصولي اختلاف المناطات التي استوجبت اختلاف الأحكام، راح الإمام ياسين يتتبع مفاصد الواقع التي حلت بالأمة ليرتبها ترتيباً أولوياً ليلتمس لها من كتاب الله تعالى العلاج المنهجي الكلي المنظم، يقول الإمام مقررًا مراعاة الواقع في النظر في كتاب الله: «ولا يكون الاجتهاد فاتحة لعمل مجد إن كان المجتهدون والمقررون لا يعطون للمادة المراد الفعل فيها حقها من الاعتبار.»^(١).

المبحث الثاني: معالم النظر المقاصدي معرفياً

يعد ما تم رصد في المبحث السابق من معالم النظر المنهجي إطاراً حكم نظري الإمام ياسين في آيات كتاب الله تعالى الذي أثمر معارف نوعية تأصيلية اختط منها مشروع المنهاج النبوي، ويمكن تصنيف أهم تلك المعارف على النحو الآتي:

أولاً: المعارف القرآنية الكلية:

١) النظر إلى العدل والإحسان في القرآن مشروعاً حضارياً:

فقد ألفينا الإمام ياسين يقرر بالقطع كلية العدل في الشريعة^(٢)، فيقول: «العدل أم المصالح التي يقصد إليها الشرع. هو صُلب الدين، وحوله تُطَيَّفُ همومُ المسلمين، وبه بعث الله الرسل والنبیین، مبشرين ومنذرين»^(٣)، كما أن العدل في نظر الإمام أساس الصلاح «وركن ركين في صرح الدولة الإسلامية، وعلى إقامتهما مدار صلاح الحكم، والاقتصاد، والشورى، والإدارة، والأمر كله»^(٤)، فلا يحمي «الأمن الاقتصادي والعسكري، والاستقرار السياسي والاجتماعي، سوى العدل الذي يبني ما خربه الظلم، ويحيي ما أماته، ويجرك ما أخمده، وينير ما أظلمه»^(٥).

(١) ياسين عبد السلام. حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق، البيضاء، ط

١٩٩٤/١ م. ص ٥١.

(٢) فقد تحدث الإمام عن مفهوم العدل الشامل لنظام الحكم وللقضاء وللإقتصاد وللإقتصاد، ينظر دراستنا: مراجعة التراث الأصولي والمقصدي في ضوء الكليات القرآنية عند الأستاذ عبد السلام ياسين، أعمال المؤتمر الأول: مركزية القرآن في نظرية المنهاج النبوي عند عبد

السلام ياسين، استانبول ٢٠١٢ م، ص

(٣) ياسين عبد السلام. العدل ص ٢٠٢.

(٤) ياسين، عبد السلام. في الاقتصاد البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية، ط ٢/٢٠٠٣ م،

البيضاء، ص ١٩٠

(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ١٩٧.

كما تتبع الإمام موارد لفظة الإحسان في القرآن فوجدها «غاية الغايات ومحط نظر ذوي الهمم العالية»^(١)، فهي دالة على معاني متعددة شاملة، منها، المعنى الاجتماعي ممثلاً في تحسين العلاقة بخلق الله، ابتداءً بالوالدين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فالأقربين واليتامى والمساكين والناس أجمعين، كما أمر الحق سبحانه في قوله : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ومعنى المهارة والإتقان كما في قوله صلى الله عليه وسلم : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»^(٢)، ومنها وعلى رأسها المعنى التعبدي، وهو أعلى درجات الدين كما فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فقد أدرك رحمه الله أن العدل والإحسان ولازمتهما الشورى كليات ناظمة لتفاصيل الشريعة من جهة وإجابات كلية عن عمق الأزمة في واقع الأمة من جهة أخرى، فبالعدل يؤمن مصير الأمة في التاريخ، وبالإحسان يأمن الفرد على مصيره عند ربه.

وسيلة تحقيق هذا المشروع في نظر الإمام ياسين هو مفهوم «الصحبة والجماعة» الذي استقاه على سبيل الاستقراء والتتبع من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويفسر هذا المفهوم بقوله: «لقاء رجل يرييك وجماعة مؤمنة تؤويك تحضنك، حتى يسري بصحبة المرئي والجماعة إلى قلبك وسلوكك أول سلك من أسلاك نور الإيمان، وأول نفحة من عبيره، وأول فيض من مائه»^(٣)، فبذلك يندمج مفهوم الصحبة في مفهوم الجماعة ليشكلا مفهوما مركبا متكاملنا نظرا وعملا، تماما كما كان الأمر زمن التأسيس النبوي للجماعة الأولى وفق مقتضى الخطاب القرآني الموجه في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

(١) ياسين، عبد السلام. الإحسان: مطبعة الأفق، البيضاء، ط ١ / ١٩٩٨م. ١٨/١.

(٢) مسلم في الجامع الصحيح، كتاب الصيد والذبائح باب الأمر بإحسان الذبح والقتل.

(٣) ياسين، عبد السلام. المنهاج النبوي ص ١٢٣.

وموجب القول بمشروع الجمع بين الصحبة والجماعة تحقيق الجمع بين العدل والإحسان من حيث هو شرط لاقتحام العقبة^(١)، وقد جمع الإمام أبعاد هذه العقبة في أمرين: عقبة في الأنفس وفي آفاق الكون، فلزم الجمع في مشروع الاقتحام بين عقبة الأنفس وعقبة الآفاق لتجاوز سلوك الصوفية الذين زاغوا عن فتنة الآفاق حين اعتزلوا المجتمع^(٢).

أما قبلة المشروع الاستراتيجية فيحدددها الإمام في الخلافة الثانية على منهاج النبوة انطلاقاً من البشارة النبوية في حديث الخلافة على منهاج النبوة الذي اتخذته الإمام محور مشروعه ونظيره.

٢) وحدة الأمة أم المقاصد الآن

أصر الإمام ياسين على الدعوة إلى وحدة الأمة باعتبارها الفريضة العظمى التي ينبغي إقامتها ابتداء في الأذهان حتى يبسر الله قيامها في الأعيان، فقال: «وحدة دار الإسلام - بيت الإسلام - ضرورة ملحة وواجب شرعي وأمل عزيز على الأمة»^(٣)، لأنه السبيل لاستعادة القوة للأمة «ولا قوة إلا بوحدة المسلمين - عربياً ثم عربياً وعجمياً - ولا بقاء في عالم التكتلات لكيان هزيل»^(٤).

والوحدة في نظر الإمام ياسين هو السلك الناظم أصالة للمؤمنين في كل زمان، وأن التفرق داء يطرأ على وحدة المؤمنين لحظات ضعف تمسكهم بحبل الله المتين، يقول: «أمة النبيين والمرسلين أمة واحدة، وأمة المؤمنين لا افتراق بين أجزائها العضوية، لكن الناس في فترة ما بين المدكرين، وفي ضمور الإسلام في القلوب، يتقطعون أمرهم بينهم زُبراً. أي قطعاً خلافاً مذهبية قومية وطنية قبلية. إسلامها في حكم الدم لتلاشي عقيدة التوحيد عندها»^(٥).

فالوحدة خوطب بها المؤمنون خطاب تكليف منذ اللحظة التأسيسية الأولى لهذه الوحدة في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل

(١) يعد اقتحام العقبة المستفاد من سورة البلد مفهوماً مركزياً في الجهاز المفهومي للإمام ياسين، ينظر كتابه مقدمات في المنهاج.

(٢) ينظر ياسين، عبد السلام. الإحسان ١/٩٤.

(٣) ياسين، عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ ص ٤٧.

(٤) ياسين، عبد السلام. في الاقتصاد ص ٢٣٩.

(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ٢١٦.

عمران: ١٠٣]، حيث جمعت الآية - بين الأمر بالاعتصام بعمود الوحدة ومعقدها وهو الحبل القرآني الممدود من السماء إلى أرض - الواقع بعبارة الإمام ياسين^(١)، وبين النهي عن نقيض الوحدة ومنافيتها وهو التفرق، ولعل هذا النوع من الصيغة في طلب الوحدة يمثل أعلى درجة في الانحتمام والإلزام.

وما يؤكد ضرورة هذه الوحدة ورفعها إلى مصاف الأولوية المقاصدية العظمى عند الإمام حال واقع الأمة، وهو حال يختلف عن حال الأمة يوم تحدث علماءنا عن المقاصد دون أن يلحوا على مقصد الوحدة «فهم كانوا يعيشون وحدة شعوب جمعها الإسلام لا تكاد تشعر بالتفرقة التي فرقته الإمارات السَّيفية، واللغة والسحنة والقطر. لم يكن يقدر في وحدتهم تلك وجود خلافات مذهبية يعيشون صراعاتها الكلامية أو العنيفة داخل إطار الوحدة لا خارجه»^(٢).

وعليه فرسالة التوحيد إنما تبلغها أمة «واحدة تحمل رسالة للعالمين تبلغها وتجاهد عليها وتتوحد عليها وتحكم بمقتضاها»^(٣).

٣) تحكيم المصلحة الأخروية في الدنيوية:

من المعارف الكلية التي استثمرها الإمام ياسين من تأمله وتدبره في كتاب الله تعالى أن المصلحة العظمى النازمة لما سواها هي مصلحة الآخرة، يقول: «علة العَلَلِ في الشريعة وأم المصالح وآخرة الاجتهاد هي إخراج العباد من داعية الهوى ليكونوا عباداً لله، كما قال الله جلَّ اللهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤) [الذاريات: ٥٦]»^(٥).

والقول بتحكيم المصلحة الأخروية في الدنيوية عند الإمام ياسين هو من باب تحكيم المقصد في الوسيلة^(٦)، إذ لا تنال المصلحة الأخروية إلا بالمصلحة الدنيوية التي سماها القرآن النصيب في قوله تعالى على لسان قوم موسى لقارون

(١) ينظر ياسين، عبد السلام. العدل ص ٢١٨.
(٢) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ٩٦.
(٣) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.
(٤) ياسين، عبد السلام. العدل ص ١٥٠.
(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ١٦٥.
(٦) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ص ١٦٤.

الحريص على مصلحة الدنيا المنقطعة عن الآخرة: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، قال الإمام ياسين في تعليقه على هذه الآية: «وإن توفير هذا النصيب للعباد ضرورة لكيلا تفتنهم الدنيا بالفقر والمرض والجهل والحاجة عن مطلبهم الأخروي»^(١)

غير أن هذا النصيب إنما يكتسب معناه واعتباره إذا كان منتظما في سلك المقصد الأصلي في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧]، أما القصد التبعية المترتب عن هذا الترتيب المصلحي فهو ما عبر عنه الإمام ياسين بصفاء قلب العبد من هم الدنيا ومشغلة الرزق بحفظ النصيب من الأمن والعافية والقوت^(٢)، مستدلا على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: «من كانت الآخرة هممه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا هممه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قدر له»^(٣).

٤) النقد الأخلاقي للعولة المعاصرة

يقف الإمام مع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمِ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤]، ليستنبط منها معيارا قرانيا أخلاقيا في نقد منتج من منتجات الرأسمالية الغربية، وهي العولة المتوحشة التي تعيث في الأرض فسادا بالمال حرصا عليه واحتكارا واستكبارا في الأرض، ذلك أن «الشح والتعلق بالربح صفتان ملازمتان للفرد الفاسد الذي يقرعه القرآن الكريم، كما أن الخضوع للمال هو لب الرأسمالية التي تعيث في الأرض الفساد»^(٤).

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٢) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٣) الترمذي في السنن، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

باب ٣٠، رقم ٢٤٦٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٩٥٠.

(٤) ياسين، عبد السلام. الإسلام والحداثة، وجدة/المغرب: مطبوعات الهلال، طبعة ٢٠٠٠م،

وعلى مشرحة الحكم القرآني الخلفي من خلال الآية السابقة يعرض الإمام ياسين رحمه الله حالة الاستكبار الرأسمالي المتعظم المتمثل في العولمة، فيقول: «لا اختلاف بين مثال الرأسمالية الحديثة والأمثلة التي يسردها القرآن الكريم عن الأمم السابقة، فكل الشروط متوفرة: الاستكبار، الإفساد، السطوة والقوة، الادعاء. لذلك لن يلبث العقاب الرباني المناسب لفداحة الجرائم المعاصرة أن يصيب المسؤولين عن الفوضى المعاصرة والجور المعوم.»^(١).

فعله ما حاق من العذاب بتلك الأمم المسرودة في الآية السابقة في نظر الإمام ياسين هي الاستكبار والإفساد في الأرض والادعاء، وهي العلة نفسها التي قامت عليها العولمة، والحكم دائر مع علته كما يقول الأصوليون، والله تعالى يقرر هذه الجدلية بين الحكم السنني والعلة في غير ما آية، ومنها قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

ويذكر الإمام ياسين الرأسمالية ومنتجاتها محذرا من عموم الحكم الإلهي واطراده على جميع خلق الله، فيقول: «وعيد الله عز وجل موجه إلى العالمين في جميع الأزمنة أن يتراجعوا قبل أن ينهار بهم شفا الجرف في الهاوية. فهل تسترجع الرأسمالية المعاصرة وعيها بعد أن انسدت الآفاق في وجهها، وتغير وجهتها قبل أن يجل العقاب بسببها بالبشرية جمعاء؟ وهل هي قادرة على التحكم في ذاتها؟»^(٢)

ثانيا: المعارف القرآنية التفصيلية

من المعارف التفصيلية اللطيفة النبيهة التي ذكرها الإمام ياسين في سياق تناوله لتفسير جملة من الآيات القرآنية، نذكر على سبيل المثال:

١) ثنائية القوامة والحافظية

وقد استمد الإمام ياسين هذه الثنائية من قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، فلم ينظر الإمام إلى

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٢) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

تلك الثنائية نظرة تجزيي وتفريق بينهما، وإنما نظر إليهما نظرة مقاصدية من حيث هي ثنائية متعاضدة متكاملة، فحافظية المرأة حكما ووظيفة ومقصدا هي الوجه الداخلي لوحدة الأسرة، بينما وجهها الخارجي المكمل هو درجة القوامة للرجل، فلا تفهم الواحدة إلا في سياق الأخرى^(١).

أما الدرجة فقد كشف الإمام ياسين عن مقصدها الاجتماعي، فقال: «الدرجة» إمارة في القافلة الاجتماعية الزوجية السياسية. هي بمثابة أمير السفر الذي أوصت به السنة النبوية. إمارة بدونها تكون الفوضى في القافلة، فتضعف، فيجد العدو فيها مغمزا، فيعدو عليها ويمزقها.^(٢)

وأما الحافظية فتتظلمها في نظر الإمام مقاصد شرعية عظمى وكليات ضرورية عليا، أسماها مقصد العبودية لله تعالى الذي ينتظم الرجل في قوامته والمرأة في حافظيتها في سياق رحلتها من الدنيا إلى الآخرة، يقول: «مهمة كبيرة تلك التي تعدل بين قوامة الرجل وحافظية المرأة ليحمل الرجل والمرأة عبئها. هذه المهمة هي عبادة الله تعالى، تلك العبادة المعلولة بخوف العقاب الأخروي ورجاء الجنة ورضى المولى وقربه.»^(٣)

أما المقاصد الأخرى النازمة للحافظية، فمنها حفظ النوع البشري، وحفظ فطرته، وقد أسند الله هذه المهمة الجليلة للمرأة بمقتضى حافظيتها، يقول الإمام: «النساء بفطرتهن يحفظن استمرار الجنس البشري بما هن محضن للأجنة، وحضن للتربية.»^(٤)، ففي ذلك حفظ الدين والنفس والعقل، يقول الإمام: «الدين الذي هو رأس المقاصد وغاية الغايات، يُرَضَع من ثدي الأمهات الصالحات القانتات الحافظات. وتعهّدهن لجسوم الأطفال ونباتها وغذائها وصحتها كتعهدهن للعقل الناشئ، يأمرن بالحسن، ويزجرن عن القبيح، ويجبن عن الأسئلة، ويلقنّ اللغة»^(٥).

(١) في كتابنا قيد الطبع «مراجعات في التراث المقاصدي والأصولي والفقهي عند الإمام ياسين

كلام مفصل عن هذه الثنائية في الفصل الرابع.

(٢) ياسين، عبد السلام. تنوير المومنات ١/٢٠٣.

(٣) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ٢/٩٩.

(٤) ياسين، عبد السلام. تنوير المومنات ٢/٨٨.

(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ٢/٩٢.

ومن واجبات الحافظية في نظر الإمام حفظ النسب، وهو كلية من الكليات الضرورية الخمس، فأنفس «ما تحفظه نساء الأمة أنساب الأمة... الحفاظ عليها، والعفة، وحفظ الفروج، والتحصن من فاحشة الزنى، واجب مقدس في مقدمة واجبات الحافظية»^(١)، وتكتمل مقاصد الحافظية بمقصد المال المأخوذ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك»^(٢)، فقد رأى الإمام في نص الحديث ما يشير إلى كفاءة المرأة في تدبير الشأن المالي والاقتصادي للأسرة^(٣).

٢) مسألة تعدد الزوجات

نظر الإمام رحمه الله إلى المسألة وفق منهجه المقاصدي بإنصاف، فميز بين ممارسات الناس لمسألة التعدد في سياقاتهم الاجتماعية والثقافية، وبين ما تأصل في شريعة الله حكما ومقصدا، فلم يغض الطرف عن مآسي المرأة وظلمها عبر قرون من الزمان باسم مشروعية التعدد، حين كانت تستبدل المرأة كما تستبدل الأحذية^(٤)، ورأى أن في دعاوى أهل التغريب من الحدائين والعلمانيين في مناهضة تعدد الزوجات الكثير من الصواب الذي أريد به باطل، من حيث ما لحق المرأة من صنوف الظلم بسبب التعدد الظالم من الرجل المستهتر، لكن ليس ذلك من الشريعة، قال رحمه الله: «فإن استغل بعض الرجال هذه التوسعة الشرعية ليُشبعوا أنفسهم لذة ويشبعوا النساء ظلما فالحيث منهم لا من الشريعة»^(٥).

فتعدد الزوجات في نظر الإمام من حيث هو مباح^(٦) في الشريعة الإسلامية بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]، ومن حيث موقع المسألة في النسق التشريعي العام فهو حل استثنائي لحالات استثنائية، لما يمكن أن يلقاه الرجل، أو يعانیه المجتمع

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ٩١/٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩٥/٨ بسند فيه أبو معشر وهو ضعيف، لكن له شواهد

تقويه، منها ما ذكره الألباني في صحيح النسائي ضمن السلسلة الصحيحة.

(٣) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٤) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ٣٣/١.

(٥) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ١٨٩/٢.

(٦) ينظر ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ١٩٠/٢.

من مشاكل: كأن تقوى في الرجل «الحاجة فلا تكفيه امرأة واحدة، أو تمرض وهو صحيح، أو تعقم وهو يطلب الولد. والمجتمع يربو فيه عدد النساء على عدد الرجال، فتجيء شريعة التعدد لتصون حصّة منهن عن العنوسة والشارع. تكون شريعة التعدد هي الحل الوحيد إن حصدت الحربُ الرجال كما حدث في الحربين العالميتين في قرن العجائب والعنف»^(١).

وقد يرتقي حكم التعدد في نظر الإمام إلى مرتبة الضرورة «لحل مشاكل خاصة، ضرورة لوقاية النشء وكفالتة. إنه حفاظ على الذرية أن تضيع في حضن أم زانية مهما أصبحت الأم الزانية في المجتمع الدوايي محطاً للتكريم»^(٢)، وهذا خلاف لمن يجعل التعدد في الإسلام أصلاً وزواج الواحدة استثناء، فلا يعدل عن الأصل إلى الاستثناء إلا لضرورة^(٣)، وخلاف لمن يذهب إلى إنكار تقييد التعدد إلى حد اعتباره بدعة ضالة^(٤).

وهكذا عالج الإمام رحمه الله قضية التعدد معالجة مقاصدية تربوية بنائية على نحو غير مسبوق في حدود علمي، فأبان عن حكم المسألة فقهيًا، وعن وظيفتها في النسق الاجتماعي العام، وعن المقاصد الشرعية المرجوة منها.

٣ مفهوم البيعة:

لقد تتبع الإمام مفهوم البيعة المؤصل من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ومن خلال قوله صلى الله عليه وسلم في الحت على طاعة من نبايعه صادقين مختارين: «من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه ما استطاع»^(٥)، وغيرها من النصوص

(١) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق ١٨٩/٢.

(٢) ياسين، عبد السلام. المصدر السابق.

(٣) ينظر الطويل، محمد بن مسفر. تعدد الزوجات في الإسلام ص ٨.

(٤) ينظر أبو زهرة، محمد. تنظيم الإسلام للمجتمع، طبعة ١٣٨٥هـ، القاهرة، ص ٧٧-٧٩.

(٥) مسلم في الجامع الصحيح، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، رقم

القرآنية والأحاديث النبوية كثير، فألفى البيعة عقدا مقدسا متبادلا بين الحاكم والمحكوم، قال الإمام ياسين: «عقد مبادلة بشروط يقبلها الجانبان»^(١)، وهو عقد أسسه القرآن وفصلته ونفذته السنة من خلال المبايعة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة.

وميز بذلك الإمام بين المفهوم المؤصل في الشرع كتابا وسنة وسيرة، وبين المفهوم المبدل في التاريخ أحداثا ووقائع، فانتقد بعض الصور التطبيقية المعاصرة لمسألة البيعة، حيث أكد أن البيعة: «ليست شكلية من الشكليات، وإنما هي أمر يُبرم في غاية الجدية والصرامة»^(٢)، كما أنها «ليست مجرد عقد سياسي مدني، بل هي عهد بين ذمم مؤمنة تندرج فيها شروط بيعة النساء»^(٣) باعتبارها الشروط الأساسية، وتضاف إليها الشروط التنظيمية الأخرى، من ضمنها قول الحق في كل الظروف، أي معارضة المنكر. ففي مقابل واجب الطاعة الذي تحمّله المبايع واجب آخر يوازنه هو واجب قول الحق»^(٤).

(١) ياسين، عبد السلام. المنهاج النبوي ص ٩٨.

(٢) ياسين، عبد السلام. العدل ص ١٠٨.

(٣) وهي الشروط الواردة في سورة الممتحنة في قوله تعالى: «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات

يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرفن ولا يزينن ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين بهتان

يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف، فبايعنهن واستغفر لهن الله إن الله

غفور رحيم» (الممتحنة: ١٢)

(٤) ياسين، عبد السلام. العدل ص ١٩٧.

خاتمة

في ختام هذه البحث في فضاء النظر المقاصدي الذي يصدر عنه الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله في تفسير وتأويل آيات كتاب الله تعالى، أود أن أقرر ما خلص إليه البحث من نتائج على النحو الآتي:

- لم يكن للإمام تفسير كامل للقرآن بالمعنى المعهود عند المفسرين، لكن كل ما كتبه في صياغة مشروع نظرية المنهاج النبوي إنما استمدته من القرآن أصالة ومن السنة تبعاً، بعد معايشة دائمة للقرآن تلاوة وتدبراً وتمثلاً واستمداداً، إيماناً منه وبقيناً أن هدى الله في القرآن هو الهدى.

- مما ميز الله به الإمام رحمه الله أنه كان ينظر في كتاب الله نظر مفتقر مضطر إلى عطاء مولاه لا نظر مستظهر يستطرد معارفه، مدركاً أن الاستمداد من معين الله إنما يحصل من باب العبودية والافتقار، لا من باب الاعتداد بالمعارف والأفكار، لذلك ألقيناه يلح على الامتثال والاحتكام للقرآن في كل شيء مع التحرر من الوسائط المعرفية والحجب العقديّة، فذاك هو شرط التلقي والعطاء، وإلا كان الاستظهار وحصل الادعاء.

- كان الإمام رحمه الله ممن يعظم كتاب الله مبنياً ومعنى يبحث عن المعاني الكبيرة والمقاصد العظيمة الثابوية في ألفاظه وجمله، ولا يقف عند ظواهر النصوص ما لم تكن مرادة، وذلك بحثاً عن الأجوبة الشافية الوافية للأسئلة الحارقة المنبعثة من واقع الأمة المقهور المنفصل عن مستقبلها المطلوب، فوفق رحمه الله في استمداد معارف وقضايا نوعية شافية لكثير من أدواء الأمة.

- لم يكن الإمام رحمه الله في استمداده من كتاب الله من أهل التجريد في فضاء تأويل النصوص بعيداً عن سياق واقعه، وإنما كان يبحث عن الهداية المطلوبة لحال الأمة ومشاكل الإنسانية أفراداً ومجموعاً، فكان يستمد من مباني القرآن المفاهيم المفتاحية في التحليل والتعليل كالمنهاج واقتحام العقبة والعدل والإحسان وغيرها، كما يستمد من معانيه المقاصد الكبرى، وعلى رأسها مشروع العدل والإحسان على سكة المنهاج النبوي الذي يمثل استئناف النهوض الحضاري للأمة في أفق الخلافة الثانية الموعودة.

والحمد لله رب العالمين

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، رياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط ١/٢٠٠٢.

الترمذي، أبو عيسى محمد، الجامع الصحيح للترمذي، بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٢م.

رفيع، محماد.

- مراجعة التراث الأصولي والمقصدي في ضوء الكليات القرآنية عند الأستاذ عبد السلام ياسين، أعمال المؤتمر الأول: مركزية القرآن في نظرية المنهاج النبوي عند عبد السلام ياسين، استانبول ٢٠١٢م.

- مراجعات في التراث المقاصدي والأصولي والفقهية عند الإمام ياسين، كتاب قيد الطبع.

أبو زهرة، محمد. تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة: طبعة ١٣٨٥هـ.

الطبري جامع البيان في تفسير آي القرآن، بيروت: دار الفكر ١٤٠٥هـ بدون رقم.

الطويل، محمد بن مسفر. تعدد الزوجات في الإسلام، إدارة الدعوة والإعلام.

مسلم، أبو الحسين بن الحجاج. الجامع الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي بدون تاريخ ولا رقم الطبعة.

الشاطبي، أبو إسحاق. الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ٣، ٢٠٠٣م.

ياسين عبد السلام:

- الإحسان، البيضاء: مطبعة الأفق، ط ١/١٩٩٨م.

- تنوير المومنات، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ط ١/٢٠٠٣م.

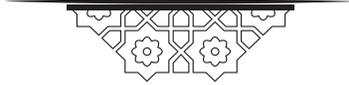
- الحوار مع الفضلاء الديمقراطيين، البيضاء: مطبوعات الأفق، ط ١/١٩٩٤م.

١٦٨ معالم النظر المقاصدي في آي الكتاب عند الإمام عبد السلام ياسين

- المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا، ط ١٩٨٩/٢.
- مقدمات في المنهاج، المغرب: مطبعة الأمة، طبعة ١٩٨٩/١ م.
- نظرات في الفقه والتاريخ، المحمدية: مطبعة فضالة، ط ١٩٨٩/١ م.
- العدل الإسلاميون والحكم، البيضاء: مطبعة الأفق، ط ٢٠٠٠/١ م.
- في الاقتصاد البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية، البيضاء: ط ٢٠٠٣/٢ م.

أثر مكملات مقاصد الشريعة في معاملات المصارف دراسة تأصيلية تطبيقية

رزق «محمد غازي» الغرابلي* د. حسن بن إبراهيم هنداوي**



الملخص:

تناول هذا البحث موضوع مكملات مقاصد الشريعة، وأثرها في الاجتهاد. ولأجل بيان هذا الأثر؛ تعرض البحث لمسائل من معاملات المصارف. واتبع الباحثان المنهج الاستقرائي؛ والمنهج التحليلي من أجل تحقيق أهداف البحث، الذي كان من أهم نتائجه أن لمكملات مقاصد الشريعة دوراً مهماً في تشريعات أحكام المعاملات المصرفية، وظهر أثر ذلك جلياً عند النظر في مآلات المعاملات الحديثة التي تجري بين الناس.

Abstract

This research deals with the topic of complementing the objectives of Sharia, and its effect on Ijtihad. In order to clarify this effect, the research review examples from bank transactions. The researchers used the inductive approach and the analytical approach in order to achieve the objectives of the research. One of the most important results of which was that the complementary objectives of the Sharia play an important role in the legislation of the provisions of banking transactions. The effect of this was evident when looking at the events of modern transactions that take place between people.

* طالب دكتوراه، قسم الفقه وأصوله، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور، ماليزيا. البريد الإلكتروني: rezpress3@gmail.com

** أستاذ مشارك في قسم الفقه وأصوله، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور، ماليزيا. البريد الإلكتروني: hhasan@iiium.edu.my

مقدمة:

تلعب المقاصدُ دورًا مهمًّا في الاجتهاد؛ حيث تعيّنت أهميتها في حفظ مصالح العباد، ومصالح العباد في الدنيا جاريةً مع تغيّر الأماكن والأزمان، مما يستدعي إعمال المقاصد عند النظر في الأحكام المستجدة. ويتصل بعلم المقاصد اتصالًا وثيقًا فقه مكمّلات مقاصد الشريعة. وهذه المكمّلات هي التتمّات من المقاصد والأحكام، التي تخدم المقاصد الأصلية وتدور في جملها مزينةً ومحسنةً ومكمّلة، وهي منضمةٌ للمقاصد - وإن كانت لا تدخل في أصلها مباشرة - بحيث لا يكون لها اعتبار حين تستقل بذاتها^(١). وتكمن أهمية فقه المكمّلات في الاجتهاد في الدور الذي تؤديه في تمكين المقاصد الأصلية الثابتة المنصوص عليها أو المستقراة من عموم أحكام شريعتنا، وصيانتها من كل ما يسبب لها الاعتلال والاختلال، بل وجعلها على أتم الأحوال. وقد تحيّر الباحثان في الشق التطبيقي من البحث مسائل متعلقة بالجمال المصري، وهو من أبواب المعاملات الماليّة المعاصرة التي هي بابٌ من أبواب الشريعة التي تبدو فيها الحاجة ماسّة إلى تفعيل مكمّلات المقاصد وإعمالها عند الاجتهاد، ويُعدّ باب المعاملات الماليّة من الأبواب المهمة التي تلتفت لها الأنفس وتميل إليها في مرحلة التطور المالي والاقتصادي والتكنولوجي الكبير الذي اخترق العالم المعاصر، وتشغل بال المجتهدين المشتغلين بها، وتعيّن أهميتها أيضًا؛ لصلتها الوثيقة بالاقتصاد الذي يعدّ قوام حياة الناس وعمارة الأرض.

وقد جاءت الدراسة في ثلاثة مباحث؛ تناول المبحث الأول تعريف المكمّلات وتقسيماتها ومسالك الكشف عنها، وتطرق المبحث الثاني إلى دور المكمّلات في الاجتهاد وشرط اعتبارها، فيما تناول المبحث الثالث تأثير مكمّلات المقاصد في بعض معاملات المصارف.

إشكالية البحث:

تروم هذه الدراسة إلى كشف اللثام عن إشكالات متعلق بغياب فقه المكمّلات أو عدم تبين ضوابطه وكيفية إعماله في الاجتهاد لدى بعض المفتين في القضايا (١) انظر: الشاطبي، أبو إسحق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز (القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م) ج ١، ص ٢٦٨، ص ٢٧١.

المعاصرة، الأمر الذي أحدثَ قصورًا في بعض التصورات والفتاوى. ويبرز هذا الخلل جليًا في القضايا الفقهية المتعلقة بالمعاملات الماليّة المعاصرة، ومن بينها المعاملات المصرفية. لذلك أراد الباحثان من هذه الدراسة تنزيل فقه مكملات المقاصد على بعض مسائل المعاملات المصرفية المعاصرة، وتجلية أثر المكملات في استنباط أحكامها وتحقيق المناط فيها.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا الموضوع في أنه:

- يُعدّ مفتاحًا للفقهاء والمجتهدين لإعمال فقه مكملات مقاصد الشريعة في فتاواهم واجتهاداتهم، سيّما في عصرنا الذي اشتبكت فيه المسائل، ودخل ميدانَ الإفتاء غيرُ المتخصصين، الأمر الذي سبّب آثاره في تحقيق الاتّزان في الفتوى والتصوّرات.

- يُظهر الآثار الفقهية والأصولية لفقه المكملات وأهميته في تصورات المسائل واستنباط أحكامها بما يتوافق مع مقاصد الشريعة الإسلامية.

- يبيّن البحث أثر فقه مكملات مقاصد الشريعة في بناء الأحكام الواسطة المنسجمة مع مقاصد الشارع في مجال المعاملات المصرفية المعاصرة.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

- بيان تعريفٍ وتقسيمٍ جامعٍ للمكملات، ومسالك الكشف عنها.
- الكشف عن دور مكملات الشريعة في الاجتهاد واستنباط الأحكام.
- مناقشة تطبيقاتٍ فقهيةٍ متعلقة بباب المعاملات الماليّة المعاصرة، وإعمال فقه مكملات الشريعة فيها.

منهج البحث:

من أجل تحقيق أهداف هذا البحث، اتبع الباحثان المنهج الاستقرائي؛ وذلك من خلال تتبّع المادة العلميّة لموضوع المكملات؛ للوصول إلى تعريفٍ وتقسيمٍ جامعٍ لها، وإبراز مسالك الكشف عنها، ودورها في الاجتهاد، والمنهج

التحليلي الذي سيستخدمه الباحثان في تحليل تأثير هذا الفقه ومناقشته في التطبيقات الفقهية المتعلقة بالمعاملات المصرفية المعاصرة.

الدراسات السابقة:

من الدراسات ذات العلاقة بموضوع بحثنا: كتاب «فقه المقاصد» لجاسر عودة، و«مقاصد الشريعة الإسلامية الثلاثة ومكمّلات كل منها» لإبراهيم الرابعة، و«مقاصد الشريعة وتطبيقاتها في المعاملات المصرفية المعاصرة» لعبد الودود السعودي، و«مكمّلات مقاصد الشريعة: تأصيلاً وتطبيقاً على بعض المسائل المعاصرة» لغازي العتيبي. وهذه الدراسات عدا الدراسة الأخيرة، تناولت جانب المقاصد عمومًا دون تركيز خاص على مكمّلات المقاصد. أما بحث العتيبي فقد تناول مكمّلات مقاصد الشريعة لكن دون توسع. والإضافة التي يقدمها بحثنا أنه يتوسع في بيان تعريف المكمّلات وتقسيماتها، ومناقشة أثر هذه المكمّلات في المعاملات المصرفية، وهو الجانب الذي لم تتناوله أي دراسة سابقة حسب اطلاع الباحثين.

المبحث الأول: تعريف مكمّلات مقاصد الشريعة ومسالك الكشف عنها

المطلب الأول: تعريف مكمّلات مقاصد الشريعة

أولاً: المكمّلات لغة: جمع مُكَمِّل، وهو من كَمَّلَ الشيء، وكَمَّلَ وكَمَّلَ كَمالاً وكَمولاً فهو كَامِلٌ: أي تَامٌ، وأكملت الشيء: أي أجملته وأتممته، ويُقال كمل إذا تمت أجزاؤه وكملت محاسنه، وعلى هذا فقد دارت معانيها في معاجم اللغة على التمام والجمال^(١).

وإذا عرفنا هذا تبين لنا أهميتها في اعتبارها والالتفات إليها عند استنباط الأحكام، إذ إنّ الحكم الشرعي قد ينتابه شيءٌ من القصور أو الجنوح أو النقصان إذا لم تتم مراعاة المكمّلات عند استنباطه.

(١) انظر: ابن منظور، محمد جمال الدين، لسان العرب (الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج ٧، ص ١١٨؛ الفيروزآبادي، محمد، القاموس المحيط، ضبط وتوثيق: يوسف البقاعي (بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص ٩٥٠؛ ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون (مصر: مكتبة اليازجي، ط ٣، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م)، ج ٥، ص ١٣٩؛ الفيومي، أحمد، المصباح المنير (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص ٣٢١.

ثانيًا: مكملات المقاصد في اصطلاح الأصوليين

افتقرت كتب الأصوليين الأوائل لتعريف مكملات المقاصد، تعريفًا حديثًا، وإن كانت قد وردت إشارات في ثنايا المصنّفات حول سماتٍ عامّةٍ للمكملات أو شيءٍ من خصائصها، وسنبيّن بإيجاز المكملات في تعبيرات الأصوليين المتقدمين والمعاصرين.

١- المكملات في تعبيرات الأصوليين المتقدمين:

يُحسب للإمام الغزالي أنه أوّل من ذكر المكملات لفظًا ومعنى، حيث قال: «ويتعلق بأذيال كل قسم من الأقسام ما يجري مجرى التكملة والتتمة لها»^(١). ويقصد بالأقسام؛ الضرورية والحاجية والتحسينية، التي تحدث عنها شيخه في البرهان^(٢). وهذا بيانٌ صريحٌ في أنّ كلّ مقصدٍ من المقاصد الثلاثة له متممات ومكملات له. يقول الأبياري: «المكملات لا تراعى إلا إذا لم يُفَضَّ اعتبارها إلى إبطال المهمات، وهي المقاصد الأصلية، فإن أفضى إلى ذلك وجب الاعتراض على التتمة؛ تحصيلًا للأمر المهم»^(٣).

وبالتالي فالمكملات نوعان: منها ما يجب مراعاته والالتفات إليه، وهو الذي يساهم في حفظ المقصد المهم، وما لا يجب مراعاته والالتفات إليه بل يجب إبطاله والاعتراض عليه، وهو ما يسهم في إبطال المقصد الأساس أو تعطيله.

يقول الأمدي: «المكملات: ما ليس أصلًا مقصودًا»^(٤). فتمّة فرق بين المقصد والمكمل، وهو أن المقصد وقع له من اسمه نصيب، وهو أنه مقصود للشارع أصالةً، أما المكمل، فلا يمكن القول إنه ليس مقصودًا أصلاً، فالله ما شرع شرعًا أو حكم حكمًا إلا وفيه ما يحقق مصالح العباد أصالةً أو تبعًا، فيكون المكمل مقصودًا من الشارع تبعًا.

(١) الغزالي، أبو حامد، المستصفى من علم الأصول (بيروت: دار الفكر، د ط، د ت)، ج ٢، ص ٤٨١.

(٢) الجويني، عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه، تحقيق: عبد العظيم الديب (قطر): ط ١، ١٣٩٩هـ)، ج ٢، ص ٩٢٣-٩٢٦.

(٣) الأبياري، علي، التحقيق والبيان في شرح البرهان في أصول الفقه، تحقيق: علي الجزائري، (الكويت: دار الضياء، ط ١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ج ٣، ص ٤٠٤.

(٤) الأمدي، علي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي (الرياض: دار الصميعي، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج ٣، ص ٣٤٣.

يقول الإمام الشاطبي: «كل مرتبة من هذه المراتب - يقصد مراتب المقاصد الثلاث - ينضم إليها ما هو كاللثمة والتكملة، مما لو فرضنا فقداه لم يخلّ بحكمتها الأصلية»^(١).

وتعبير الضم يوحى بعدم الاستقلال بالذات، وهذا من أبرز سمات المكمّلات، فلا عبرة للمكمّل مستقلاً دون المكمّل، بينما يمكن أن يستقل المقصد الأساس بنفسه ولا تحتلّ حكمته، وإن غابت عنه مكمّلاته أو بعضها. يقول الفتوحى: «ومعنى كونه مكمّلاً له أنه لا يستقلّ ضرورياً بنفسه، بل بطريق الانضمام، فله تأثير فيه، لكن لا بنفسه، فيكون في حكم الضرورة مبالغة في مراعاته»^(٢).

وهذا يتفق مع ما أصّله الشاطبي، فالمكمل يؤثر في المقصد ولا بد، تجميلاً وتتميمًا، لكن هذا التأثير يبقى مجمداً دون الانضمام.

٢- المكمّلات في تعبيرات الأصوليين المعاصرين:

عند الأصوليين المعاصرين، وقف الباحثان على جملة من التعريفات المتعلقة بمكمّلات مقاصد الشريعة، نعرّج على أهمها.

فقد عبّر الإمام الطاهر بن عاشور عن المكمّلات بمصطلح «الوسائل»، وقال: «وأما الوسائل فهي الأحكام التي شرعت؛ لأنّ بما تحصيل أحكام أخرى، فهي غير مقصودة لذاتها، بل لتحصيل غيرها على الوجه المطلوب الأكمل، إذ بدونها قد لا يحصل المقصد، أو يكون معرّضاً للاختلال والانحلال»^(٣).

يقول د. محمد اليوبي: «يمكن أن يوضع ضابط للمكمّل بأنه: ما يتم به المقصود أو الحكمة من الضروري، أو الحاجي، أو التحسيني على أحسن الوجوه وأكملها، سواء بسدّ ذريعة تؤدي إلى الإخلال بالحكمة بوجه ما، أم

(١) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج ٢، ص ٢٤.
(٢) الفتوحى، محمد، شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، (الرياض: مكتبة

العيكان، ط ١، ١٤١٣هـ)، ج ٤، ص ١٦٣

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية (تونس: دار النفائس، ط ٢،

١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ص ٤١٧.

بتكميله بحكمٍ يظهر به المقصود ويتقوى»^(١).

ولم يستقصِ اليوبي في تعريفه كل ما من شأنه أن يكون مكملًا، بل إنه ذكر ما ذكر على سبيل المثال لا الحصر، لذلك كان الأولى أن يضيف في نهاية التعريف لفظتي «أم غيرها»؛ ليبقى الباب مفتوحًا لأشياء أخرى قد تدخل فيه. يقول د. غازي العتيبي في المكملات: «هي الأمور الخادمة لمقاصد الشريعة»^(٢).

وقد اهتدى د. العتيبي إلى أن يطلق عليها وصف: الأمور، حتى تشمل الأحكام والوسائل والتوابع والأوصاف والجزئيات وغيرها، ولا يهضم حق أيٍّ منها، وهو محقٌّ في هذا.

تعقيب الباحثين على تعريفات المعاصرين للمكملات:

يُلاحظ وجود تفاوتٍ بين ما أورده من تعريفات لدى العلماء المعاصرين في تحقيق مدلول مكملات مقاصد الشريعة، لكنها جميعًا تنفق على أنّ المكملات هي خوادم للمقاصد تجملها وتتممها، لا تستقل بذاتها، وإنما تعتبر بطريق^(٣) الانضمام إلى المقاصد الأصليّة.

وبعد ما ظهر لنا من مدلولها الفعلي ووظيفتها الحقيقية، يمكن أن نعرّف المكملات بأنها: «الأحكام والوسائل التي تُعمَل تقويةً للمقصود أو تُحمَل حفاظًا على المقصود».

قلنا: «الأحكام والوسائل» حتى تستوعب كل المكملات، فالمكملات لا تقتصر على الوسائل كما أورد بعض الأصوليين، لكنها تستوعب أيضًا جميع الأحكام التي شرعها الله تعالى؛ لتكميل المقاصد الأصليّة، وهذه الأحكام منها ما يسبق الفعل، ومنها ما يقارنه، ومنها ما يتبعه كما سيتبيّن في المطلب التالي.

(١) اليوبي، محمد، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة (الرياض: دار الهجرة، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ص ٣٣٩.

(٢) انظر: العتيبي، غازي، مكملات مقاصد الشريعة - تأصيلًا وتطبيقًا على بعض القضايا المعاصرة (السعودية، مجلة الأصول والنوازل، س ٣، ٥٤، ٢٠١١م)، ص ٥٣.

وهذه المكملات يتم إعمالها واعتبارها والالتفات إليها إذا كان مؤداها تقوية المقصود الأصلي وتتميمه وتجميله وتحسينه، كما يتم إهمالها وإسقاطها إذا كان مؤداها إبطال المقصود الأصلي، حتى وإن كانت في أصلها وسيلة مشروعة؛ وذلك للمحافظة على المقصود الأصلي من الاختلال أو الاعتلال، وسيتبين ذلك بوضوح عند الحديث عن شرط اعتبار المكمل في المبحث الثاني.

المطلب الثاني: مسالك الكشف عن مكملات مقاصد الشريعة

لا يستقيم أن نطلق على أي حكم أو وسيلة أو وصف أو غيره مكملًا لمقصودٍ هكذا دون مسالك ناظمة وطرق معلومة. إذن كيف يمكن معرفة مكملات المقاصد وتعيينها؟ إنَّ الحكم على أي أمر أو وسيلة أو وصف أو غيرها بأنه مكمل أو غير مكمل، يُعرف بطرق معيّنة نذكر منها ما يأتي:

أولاً: النصوص

ونقصد بها النصوص الواردة في كتاب الله أو في سنة النبي ﷺ. ومثالها القصاص، فهو مقصود لحفظ النفس، والتمائل فيه خادم لهذا المقصود ومقوِّ له، فهو مكمل له، والتمائل في القصاص هو رأي جمهور العلماء الذي استنبطوه من قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ومن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، ومن الحديث الثابت الذي أخرجه الشيخان عن أنس رضي الله عنه: «أن يهودياً قتل جارية على أوضاع لها فقتلها بحجر، فجيء بها إلى النبي ﷺ وبها رمق فقبل لها: أقتلك فلان؟ فأشارت برأسها أن لا، ثم قال لها الثانية، فأشارت برأسها أن لا، ثم سأها الثالثة فقالت: نعم، وأشارت برأسها، فقتله رسول الله ﷺ بحجرين»^(١).

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب: الديات، باب: من أقاد بالحجر، رقم الحديث: ٦٨٧٩، ج ١٢، ص ٢١٣؛ ابن الحجاج، مسلم، صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره من المحددات والمنقلات، رقم الحديث: ١٦٧٢، ج ٣، ص ١٣٠٠.

ومثالها أيضاً الطهارة، فهي شرط لصحة الصلاة، والشرط مكمل للمشروط، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]. وفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»^(١). وهذا المكمل هنا حكمه الوجوب، لأنه شرط لصحة الصلاة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثانياً: النظر والتجارب.

فكل ما تتحقق فيه صفات المكمل وشروطه فهو مكمل وإن لم يكن منصوصاً عليه. وإنّ العلم الحديث والتطور التكنولوجي قد أفرز لنا وسائل كثيرة جداً يمكن أن تساهم إيجابياً في تحقيق مقصود الشارع من الأحكام، وتنسجم مع كليات الشريعة ومقاصدها العامة..

فإذا كانت الدعوة الفردية ومجالس العلم التي كانت تجمع عشرات أو مئات الطلبة في العصور السالفة هي الدارجة في سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن الإذاعة والتلفاز اليوم هي من الوسائل التي تحقق مثل هذا المقصود بأيسر مما كان يتحقق في العصور الأولى وأسرع منه وأشمل..

وإنما أدركت هذه المصلحة بالنظر والتجربة، وبعض المحققين على أن العقل يستطيع أن يحكم على الأشياء بالحسن والقبح، ومعلوم أننا مدعوون للنظر والتأمل والتفكير، شرط عدم الإعراض عن الوحي، كما فعل بعض الفلاسفة والمتكلمين. ولولا أن العقل قد يدرك مصلحة الفعل أو مفسدته لما نهض إليه أو ابتعد عنه، ولما دعي الإنسان إلى التأمل والنظر، ولما كُرِّمَ بالعقل مناطاً للتفكير وجعله مناطاً للتكليف أيضاً، فالتكليف يدور مع العقل وجوداً وعدمًا..

فأي وسيلة أو مكمل، يمكن أن توضع على ميزان المكملات، فإذا انطبقت عليها صفاتها من حيث تكميل المقصود وتحميله وتحسينه دون أن تصل إلى (١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الخيل، باب: في الصلاة، رقم الحديث: ٦٥٥٤، ج ٦، ص ٢٥٥١؛ ابن الحاج، صحيح مسلم، كتاب: الطهارة، باب: وجوب الطهارة للصلاة، رقم الحديث: ٢٢٥، ج ١، ص ٢٠٤.

درجة القواطع أو الضرورات، فثمة المكمّلات التي ينبغي أن يلتفت إليها ويتم إعمالها في الاجتهاد..

أما التجربة فهي أصل كبير وبنيت عليه عديد العلوم، وهي شديدة الصلة بما يسميه الأصوليون مسلك الدوران، وهو أن «يوجد الحكم عند وجود الوصف، وينعدم عند عدمه»^(١)، فيعلم بذلك كون الوصف علة للحكم، ومثلها دوران التحريم مع وصف الإسكار^(٢).

المبحث الثاني: أثر المكمّلات في الاجتهاد وشرط اعتبارها المطلب الأول: أثر المكمّلات في الاجتهاد

المكمّلات ميدان رحب للاجتهاد فيها؛ ذلك أنها ليست كلها منصوّباً أو متفقاً عليها، وليست كلها على درجة واحدة من القوة في تحقيق المقصود أو خدمته أو تميمه وتجميله، وهي متفاوتة تفاوت المقاصد ذاتها، ويقدم أحدها على الآخر وفقاً لضوابط مقاصدية ليس هذا مكانها.

وهذا التفاوت في المرتبة والقوة والقطعية وغيرها يقتضي اجتهاداً ونظراً مصلحياً يفضي إلى تقديم المكمّلات الأقوى والأحسن على ما دونها، فيقدم المجتهد ما حقه التقديم، ويؤخر ما حقه التأخير، ويُنزل كل شيء منزلته، بحيث يتحقق مقصود الشارع على أحسن الأحوال وأتمها وأكملها، وبما يمكنها من تحقيق مصالح العباد التي أرادها الله تبارك وتعالى.

وتكمن أهمية فقه المكمّلات في الاجتهاد في الدور الذي تؤديه في تمكين ما يصطلح عليه بالقواطع من المقاصد، وهي الثابتة المنصوص عليها أو المستقرأة من عموم أحكام شريعتنا الغراء، وصيانتها من كل ما يسبب لها الاعتلال والاختلال، بل وجعلها على أتم الأحوال.

ويقع جزء من دور المجتهد على تمييز ما هو مكمل مما ليس كذلك، فلا

(١) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الموسوعة الفقهية، (الكويت: مطابع دار

الصفوة، ط ١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ج ٢٨، ص ٣٤١.

(٢) انظر: مخدوم، مصطفى، قواعد الوسائل في الشريعة الإسلامية (الرياض، دار اشبيليا، ط ١،

١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص ١٣٥-١٣٦.

يمكن أن يكون الباب مواربًا لكل أحد ليدخل إلى المكملات ما يجوز في خاطره من الوسائل أو الأحكام أو غيره دون أن يسلك مسالكها، بل يتأكد تعيين المكملات عبر المسالك الشرعية؛ للكشف عنها.

كما أنّ الاجتهاد في معرفة مكملات مقاصد الشريعة وتفعيلها عند استنباط الأحكام يقي من الوقوع في الخلل عند تصوير المسألة، ويضمن أحكامًا خالية من التشدد أو التميع.

هل العلم بالمكملات من شروط المجتهد؟

لم أجد عند الأصوليين ما يحسم الجواب عن هذا السؤال، لكن بالبناء على ما اشتراطه في المجتهد ولصحة الاجتهاد، يلوح للباحث أن العلم بفقهاء المكملات شرط للمجتهد، فإن معرفة المجتهد بالقواعد الكلية للشريعة وبمقاصدها العامة قد يكون كافيًا لبلوغه رتبة الاجتهاد مع تحقق الشروط الأخرى المعلومة.

لكن العلم بمكملات الشريعة شرط لصحة الاجتهاد، حيث إن إهمالها الناتج عن عدم العلم بها قد يؤدي إلى اعتلال الفتوى أو خروجها على حالٍ منافية لمقصود الشارع.

لذلك فإنه إذا كانت صحة النظر في المسألة يتوقف على العلم بمكملات المقاصد، وكان لها أثر قوي في الفتوى؛ فحينها ينبغي العلم بفقهاء المكملات؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا يتحقق النظر الصحيح إلا بالمكمل، فيكون العلم بالمكمل واجبًا.

المكملات واجتهاد النوازل:

إنّ التطور الهائل في شتى مجالات الحياة، الذي أفرزته التكنولوجيا الحديثة واختراعات الإنسان التي فاقت خيال المتقدمين والمتأخرين، حقيق معها أن يفتح باب الاجتهاد على مصراعيه، وأن يُجتهد في المسائل المتشابكة المسالك، ومنها المعاملات المالية المعاصرة.

فقد حفلت الدول اليوم بمؤسسات مالية لم تكن عند من كانوا قبلنا، وكل مؤسسة فيها من الأنظمة ما يولد عشرات المسائل الفقهية التي تحتاج اجتهادًا لمعرفة حكم الله فيها، ويدخل في هذا؛ المجال المصرفي.

وينبغي للمجتهد في مسائل النوازل عمومًا أن ينظر في الوسائل والمكملات التي لم ينص عليها الشارع؛ ليحدد أقواها في تحصيل المصالح، وينظر حتى في المكملات والوسائل التي حددها الشارع الحكيم، ويرى إن كانت هي وسائل ظرفية أريدت في مرحلة معينة ويمكن أن تكون بعض الوسائل المستجدة أقوى منها في التأدية إلى مقصود الشارع، أم إنحًا لا تزال على قوتها وتحقيق مقصودها الذي أراده الشارع^(١).

ولعلّ العدول عن فقه المكملات عمومًا أو ضعف الالتفات إليه أو قصور اعتباره عند الاستنباط، سيما في مسائل النوازل، يولّد خللاً وآثارًا سلبية يمكن أن تمتد لحياة الأمة برؤيتها، ومن أبرزها: تقديم المفضل على الفاضل، وجعل المقاصد مكملات والمكملات مقاصد، واستعمال المكملات المشروعة في غير ما وضعت له، واعتبار المكملات التي تؤدي إلى إبطال المقاصد الأصلية، وربما الأخذ بالمكملات غير المشروعة لغير ضرورة، وغيرها^(٢).

المطلب الثاني: شرط اعتبار المكملات

المكملات في تأثيرها في الاجتهاد تبغ لتأثير المقاصد، فالمكملات بالنسبة للمقاصد كالجزء بالنسبة للكل، ولا يمكن أن تنفك المكملات عن مقاصدها في الدور الذي تؤديه في الترجيح، بغض النظر إن كان هذا الدور أصليًا أو تابعًا. وهذا يؤصل لأثر خاص للمكملات في الترجيح في بعض الأحيان، فلا يُهمل المكمل مثلاً إذا كان سيعود على أصله بالتحسين والتكميل والتجميل، كما إنه لا يُعمل بالمكمل إذا كان سيعود على أصله بالإبطال مثلاً.

فالإذن من ولي الأمر العادل للخروج إلى الجهاد مكمل لمقصد حفظ الدين، ويعود على أصله بالتكميل والتتميم والتحسين، لكن انتظار الإذن من أئمة الجور للخروج إلى الجهاد مكمل معطل للمقصد الأساس، فالأول يجب إعماله، والثاني يجب إهماله..

(١) انظر: القرضاوي، يوسف، دراسة في فقه مقاصد الشريعة، (القاهرة: دار الشروق، ط ١،

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص ١٧٤-١٨٩.

(٢) مخدوم، قواعد الوسائل في الشريعة الإسلامية، ص ١١١.

وفي هذا يقول الأبياري رحمه الله: «والتكميلات إنما تراعى إذا لم يُفرض اعتبارها إلى إبطال المهمات، فإذا أفضى إلى ذلك وجب الاعتراض على التتمة؛ تحصيلاً للأمر المهم»^(١)..

ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله: «كلّ تكملة فلها من حيث هي تكملة شرط وهو: ألا يعود اعتبارها على الأصل بالإبطال»^(٢)..

وهذا يشبه كلام إمام الحرمين في برهانه حين أثبت أنّ القياس الجزئي إذا جاء على خلاف المصالح الضرورية يترك من أجلها، وتقدّم القاعدة الكلية عليه^(٣).

ويُستخلص من ذلك أنه لا يعتدّ بالمكمل إذا ترتب على الالتفات إليه إبطال الأصل، وإذا أدى الاعتداد بالمكمل إلى إبطال الأصل ألغينا المكمل؛ محافظة على مقصود الشارع الذي هو الأساس..

ومن أمثلة ذلك: أنّ حفظ النفس مقصدٌ ضروري، وتحريم أكل النجاسات مكمل لحفظ المروءة الذي هو مقصود تحسيني، فلو دعت ضرورة إلى إحياء نفس بتناول النجاسة كان تناول النجاسة أولى؛ لأنه بذلك يحفظ المقصد الضروري، وحينها يتوجب إبطال المكمل، إذ إن اعتبار المكمل في هذه الحالة مؤداه إبطال الضروري، وهذا لا يستقيم مع مبادئ الشرع^(٤).

المبحث الثالث: تأثير مكملات المقاصد في بعض معاملات المصارف.

يتناول الباحثان في هذا المبحث أثر مكملات مقاصد الشريعة في متعلقات خمسة من الخدمات المصرفية الحديثة، وهي: خطاب الضمان، والاعتماد المستندي، والودائع المصرفية، والحوالات النقدية، والمرابحة للآمر بالشراء. **المطلب الأول: خطاب الضمان.**

ويتكون هذا المطلب من فرعين، يتناول الفرع الأول مفهوم خطاب الضمان، ويتناول الفرع الثاني مسائل مكملات المقاصد في متعلقات خطاب الضمان.

(١) الأبياري، التحقيق والبيان، ج ٣، ص ٤٠٤.

(٢) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج ٢، ص ٢٦.

(٣) انظر: الجويني، البرهان، ج ٢، ص ٩٢٧.

(٤) انظر: علي، محمد، المقاصد الشرعية وأثرها في الفقه الإسلامي (القاهرة: دار الحديث،

الفرع الأول: مفهوم خطاب الضمان

الخطاب لغة: من خطب يخطب مخاطبةً وخطابًا، وهو الحديث بين متكلم وسامع، وخطابه في الأمر: أي حدّثه بشأنه وكامله، والخطاب هو الكلام والرسالة^(١).

الضمان لغة: من ضمن الرجل ونحوه ضمانًا: أي كفله والتزم أن يؤدي عنه ما قد يقصر في أدائه. وضمن الشيء: جزم بصلاحيته وخلوه مما يعيبه. وضمنه احتواه. والضامن الكفيل أو الملتزم أو الغارم. والضمان: الكفالة والالتزام^(٢).

الضمان اصطلاحًا: استعمل الفقهاء هذا المصطلح بمعنى الكفالة، وبمعنى ضم ذمة الضامن إلى ذمة المضمون في المطالبة بحق. واستخدم بمعنى العُرم مطلقًا. واستخدم بمعنى الالتزام بالقيام بعمل ما^(٣).

خطاب الضمان في القانون التجاري:.

هو تعهدٌ نهائي يصدر من البنك بناءً على طلب عميله بدفع مبلغ نقدي معين، أو قابل للتعيين بمجرد أن يطلب المستفيد ذلك من البنك خلال مدة محددة^(٤).

وهذا التعهد ضمانٌ لوفاء هذا العميل بالتزامه تجاه الطرف الثالث خلال مدة معينة، على أن يدفع البنك المبلغ المضمون عند أول مطالبة خلال سريان الضمان، بغض النظر عن معارضة المدين أو موافقته في ذلك الوقت، حال فشل العميل بالوفاء بالتزاماته تجاه الطرف الثالث أو إخلاله بشروط التعاقد معه^(٥).

(١) أنيس، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط (مصر: مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص ٢٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٤٤.

(٣) انظر: حماد، نزيه، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، ص ٢٩١-٢٩٣؛ قلعجي، محمد رواس، وقنيبي، حامد، معجم لغة الفقهاء (بيروت: دار النفائس، ط ٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٢٨٥؛ القاري، أحمد عبد الله، مجلة الأحكام الشرعية (جدة: تامة، ط ١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص ٣٥٤.

(٤) انظر: عوض، علي جمال الدين، عمليات البنوك من الواجهة القانونية (القاهرة: دار النهضة الحديثة، ط ١، ١٩٩٨م)، ص ٣٥٧؛ الزحيلي، وهبة، أصول الفقه الإسلامي (دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٤١٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص ٤٦٨.

(٥) انظر: البعلي، عبد الحميد، الاستثمار والرقابة الشرعية (القاهرة: مكتبة وهبة، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ص ٤٧ (نقلًا عن فتاوى هيئة الرقابة الشرعية لبنك فيصل السوداني، ص ٦٣ والمصري ص ٣٦ وما بعدها).

ويتضح من ذلك أنّ المقصود من استصدار خطاب الضمان تحقيق غاية تأمينية هدفها مساعدة العميل في تقوية مركزه الائتماني تجاه المكفول له أو المستفيد^(١).

الفرع الثاني: أثر مكملات المقاصد في متعلقات خطاب الضمان

المسألة الأولى: مشروعية خطاب الضمان ذاته

يستمدُّ خطاب الضمان دوره من اسمه، فهو ضامن للحكومات والشركات والمؤسسات والأفراد؛ لمنع ممانلة المشتري في دفع المستحقات، أو التقصير التنفيذي أو الزمني في أدائها، أو التخلف عنها.

والتقصير أو التخلف عن دفع المستحقات دون عذر غشٍّ وسرقة، والممانلة نوع من الظلم المنهي عنه سيما في حق الغني. قال ﷺ: «من غشنا فليس منا»^(٢). وقال: «مطل الغني ظلم فإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع»^(٣).

وبالتالي فإنَّ خطاب الضمان بهذا الاعتبار يعدّ حامياً للمال من التلف أو الضياع أو الغش أو الممانلة، ويكون بذلك مكماً لمقصود حفظ مال البائع، ومقصود حفظ دين المشتري. ولهذا عدّه الفقهاء من عقود الإرفاق والإحسان، إذ به مصلحة راجحة لكليهما.

هذا عن خطاب الضمان إجمالاً. وعند التفصيل فإنَّ خطاب الضمان تم تكييفه على صورتين بحسب الغطاء؛ فإذا كان مغطى كلياً فهو وكالة، وإذا كان غير مغطى مطلقاً فهو كفالة، وإذا كان جزء منه مغطى وجزء غير مغطى، فالمغطى يكيّف على أنه وكالة، وغير المغطى كفالة.

والكفالة والوكالة كلتاهما من مكملات مقصد تيسير التعاملات بين الناس من جانب، وتحفظ مال الدائنين وأصحاب الحقوق من جانب آخر، وبهذا تظهر أهميتهما في سياق تحقيق مقاصد الشارع في رفع الحرج عن المكلفين.

(١) انظر: حمود، سامي، تطوير الأعمال المصرفية (القاهرة: مطبعة الشرق ومكتبها، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ٢٩٤.

(٢) ابن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، رقم الحديث: ٩٣، ج ١، ص ٤٤١.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحوالة، باب في الحوالة وهل يرجع في الحوالة، رقم الحديث ٢٢٩٩، ج ٣، ص ٢٧٧.

لذلك لا غرو أن تُجمع الأمة من غير إنكار، على مشروعيتها^(١).
وبهذا فإنّ خطاب الضمان مستندٌ مشروعٌ، وهو مكملٌ يُعمل ويُعتبر؛
لتقوية مقصود حفظ المال إذا خلا مما يداخله من شروط أو اعتبارات أخرى
غير مشروعة.

المسألة الثانية: الشرط في خطاب الضمان

خطاب الضمان هو عقد شبيه بعقد الرهن، وهو من عقود الإحسان
والإرفاق، فالضامن دخل هذا العقد متطوعاً راضياً بما يترتب عليه، وفي
ذلك تحقيق لمقصود حاجي؛ لتيسير التعامل المالي بين الناس وحفظ حقوقهم
وصيانتها من الضياع، وهذا مكمل لحفظ المال.

لذلك كان هذا العقد لازماً في حقّ الضامن دون المضمون، واشتراط الخيار
فيه باطل؛ لأنه يتنافى مع حقيقة معناه. فالشرط هنا مبطل للضمان نفسه، إذ
من خصائص الضمان نشوؤه على حالة الإحسان والإرفاق، والشرط مكمل
لمشروطه، والمكمل يسقط إذا عاد على أصله بالإبطال.

جاء في شرح منتهى الإرادات: «وإن شرط خيار في ضمان أو في كفالة
بأن قال: أنا ضامن بما عليه، أو كفيل ببدنه ولي الخيار ثلاثة أيام مثلاً؛ فسد
الضمان والكفالة؛ لمنافاته لهم»^(٢).

المسألة الثالثة: إصدار خطاب الضمان لعملية محرمة

إذا كان إصدار خطاب الضمان مكماً لمقصود حفظ المال، فإنّ إصداره
للحصول على قرض ربوي أو عملية محرمة معينٌ على الإثم، وبالتالي مبطلٌ
لمقصود حفظ الدين. فعن جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله
وكاتبه وشاهديه»^(٣). والكفيل أقوى من الكاتب والشاهد^(٤).

(١) انظر: الزحيلي، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٨٩ و ٩٤.
(٢) البهوتي، منصور، شرح منتهى الإرادات (القاهرة: عالم الكتب، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)،

ج ٥، ص ٢٧٨.

(٣) ابن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب لعن آكل الربا وموكله، رقم الحديث

١٦٣٦، ج ٤، ص ٢٩٥.

(٤) هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، المعايير الشرعية، (البحرين: هيئة

المحاسبة، د ط، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م)، ص ١٤٦.

ولا يمكن العمل بمكملٍ يحفظ مقصودًا ضروريًا ويُطل مقصودًا آخر مقدّمًا عليه، سيّما مع انعدام الضرورة. وفي حالة إصدار خطاب الضمان ليس ثمة ضرورة تدفع لإباحته ضمن عملية محرمة.

وقد جاء في المعايير الشرعية: «لا يجوز للمؤسسة إصدار خطاب ضمان لمن يطلبه للحصول على قرض ربوي أو عملية محرمة»^(١).

المسألة الرابعة: أخذ الأجرة على خطاب الضمان

خطاب الضمان بنوعيه: الابتدائي والنهائي، إما أن يكون بغطاء أو بدونه، فإذا كان دون غطاء فقد كيّفه الفقهاء على أنه كفالة، والكفالة عقد تبرع ومعروف يُقصد به الإرفاق والإحسان والمعروف، وقد تقرر في الفقه الإسلامي عدم جواز أخذ الأجرة عليها؛ ولأنها استعداد للإقراض، والإقراض نفسه لا يجوز أخذ عوض عنه وهو ربا^(٢).

فإذا دفع العميل مبلغًا مقابل هذا الضمان تحولت عملية الضمان إلى قرضٍ جرّ نفعًا على المقرض، والقرض الذي يجز نفعًا ربا، والربا محرّم. ومن هنا حرّم أخذ الأجرة على صورة خطاب الضمان هذه تكميلاً لمقصود حفظ المال.

وقد علل ابن عابدين المنع بأن الكفيل مقرض في حق المطلوب، وإذا شرط له الجعل مع ضمان المثل، فقد شرط له الزيادة على ما أقرضه فهو باطل؛ لأنه ربا^(٣).

جاء في قرار مجمع الفقه الإسلامي ١٢ (٢/١٢) في دورة انعقاد مؤتمره الثاني بجدة ديسمبر ١٩٨٥، وكذلك في المعايير الشرعية؛ أنّ خطاب الضمان لا يجوز أخذ الأجر عليه لقاء عملية الضمان - والتي يُراعى فيها عادة مبلغ الضمان ومدته - سواءً أكان بغطاء أم بدونه^(٤).

(١) المعايير الشرعية، ص ١٤٦.

(٢) انظر: الزحيلي، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٣٥٤؛ المعايير الشرعية، ص ١٣٤.

(٣) عابدين، محمد أمين، منحة الخالق على البحر الرائق، تحقيق: زكريا عميرات (بيروت: دار

الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ج ٦، ص ٣٧٢-٣٧٣.

(٤) انظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي، منظمة المؤتمر الإسلامي، العدد الثاني (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)،

ج ٢، ص ١٢١٠؛ المعايير الشرعية، ص ١٤٦.

وتكميل حفظ المال في هذه المعاملة مُرَجِّحٌ للحكم بتحريم أخذ الأجرة لقاء عملية الضمان، وإهمال هذا المكمل يحوّل هذه المعاملة إلى معاملة ربوية، وهذا مما يدفعه الشرع.

المطلب الثاني: الاعتماد المستندي.

ويتكون هذا المطلب من فرعين، يتناول الفرع الأول مفهوم الاعتماد المستندي، ويتناول الفرع الثاني مسائل مكملات المقاصد في متعلقات الاعتماد المستندي.

الفرع الأول: مفهوم الاعتماد المستندي

الاعتماد لغة: من اعتمد الشيء يعتمده اعتماداً، بمعنى اتكأ. واعتمد الرئيس الأمر إذا وافق عليه وأوعز بإنفاذه^(١).

المستند لغة: من سند يسند سُنوذاً، بمعنى ركن إليه واتكأ واعتمد عليه، وأسند إليه الأمر: وَكَلَهُ إِلَيْهِ^(٢).

الاعتماد المستندي في القانون التجاري:

ويطلق عليه أيضاً «خطاب اعتماد»، وهو التسهيل المالي الذي تمنحه المصارف لعملائها المستوردين، حيث يمكنهم من فتح اعتمادات لحساب المصدرين في الخارج، حيث بإمكان هؤلاء الحصول على ثقة المصارف^(٣). فإذا رغب شخص في شراء بضاعة من مورد أجنبي، ولا يريد أن يدفع للبائع قبل أن يستلم البضاعة ويتأكد من ملاءمتها للشروط المتفق عليها، لكنه بنفس الوقت يريد أن يُطمئن البائع بجديته وقدرته على أداء حقه، فيستصدر هذا الاعتماد من بنك محلي في بلده بالمبلغ اللازم، فإذا تسلم البائع هذه الوثيقة أمكنه أن يسحب على أحد البنوك المذكورة في الاعتماد شيكاً بالمبلغ المستحق، فيدفع له البنك بعد استلام الوثائق التي تثبت شحن البضاعة

(١) أنيس، المعجم الوسيط ص ٦٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥٣-٤٥٤.

(٣) قسطو، جليل، معجم المصطلحات التجارية الفني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١،

واستلام المشتري. ثم يرسل البنك الأجنبي هذه المستندات وصورة الشيك للبنك الأول؛ كي يتولى تحصيل القيمة مع المصاريف من المشتري^(١).

الفرع الثاني: أثر مكملات المقاصد في متعلقات الاعتماد المستندي المسألة الأولى: مشروعية الاعتماد المستندي ذاته

تظهر أهمية الاعتماد المستندي من خلال دوره في تمكين البائع أو المصدر من استلام ثمن البضاعة فور تقديم المستندات التي تثبت شحنها ومطابقتها للشروط المتفق عليها مع المشتري. وهو بذلك يُطمئن البائع على تحصيل ماله، والمشتري على تحصيل بضاعته بالشروط التي طلبها^(٢).

والاعتماد المستندي بهذه الصورة فيه تسهيل بينّ للتعاملات المالية والتجارية بين الناس، ورفع للحرص الناتج عن بعد المسافات، وصعوبة تسليم الأموال باليد، وتأخر تسليم البضاعة وربما تلفها، أو تسليم البضاعة على غير الشروط المتفق عليها. وفي هذا مصلحة للبائع والمشتري، أو المورد والمصدر، سواءً بسواء، فتتحقق مصالح الجميع بلا تلف أو خلل.

ومن هذه الناحية فإنّ الاعتماد المستندي يعدّ مكملًا لمقصد التيسير، وهو من المقاصد الحاجية في البيع والشراء والتعاملات المالية والتجارية. ولقد استقرت قواعد التعامل بهذه الاعتمادات بالأعراف والعادات التجارية^(٣).

بالإضافة إلى ذلك فإنّ التكليف الفقهي للاعتماد المستندي في المصارف الإسلامية لا يخلو أن يكون وكالة بأجر، أو مراجعة للأمر بالشراء، أو على أساس المشاركة^(٤)، وهذه التعاملات مشروعة؛ تيسيرًا للتعامل المالي بين الناس، والاطمئنان على تحصيل الحقوق، ورفعًا للحرص المتولد عن قلة المال في العاجل،

(١) انظر: شبير، محمد، المعاملات المالية المعاصرة (الأردن: دار النفائس، ط٦،

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م)، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢) انظر: أبو النصر، عصام، المعاملات المالية المعاصرة في ميزان الفقه الإسلامي (القاهرة: دار

النشر للجامعات، ط١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م)، ص ١٥٤.

(٣) انظر: الزحيلي، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٤٦٤.

(٤) انظر: شبير، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٢٨٤؛ الزحيلي، المعاملات المالية المعاصرة،

وعن بعد المسافات أو ضرورة الاستيثاق من تحقق الشروط أو غيرها. وبهذا فإنّ الاعتماد المستندي مشروعٌ، وهو مكملٌ يُعمل ويُعتبر؛ لتقوية مقصود حفظ المال إذا خلا مما يداخله من شروط أو اعتبارات أخرى غير مشروعة.

المسألة الثانية: أخذ الأجرة على الاعتماد المستندي

يجوز للمصرف الإسلامي أخذ أجرة على خطاب الاعتماد إذا كان التاجر المستورد مالاً لقيمة الخطاب؛ لأن العلاقة بين العميل والمصرف في هذه الحالة تكون علاقة وكالة بأجر، وقد قال الفقهاء بجواز الأجرة للوكيل^(١). وهذا الأمر جارٍ في المصارف التجارية والإسلامية. وعند ذلك فلا حرج في تحصيل البنك أجرًا على الوكالة.

لكن الفقهاء المعاصرين اشترطوا أن يُراعى في هذه الأجرة التخفيف عن الناس وما هو متبع حسب العرف التجاري^(٢). وهذا الشرط مكمل لمقصد التيسير ورفع الحرج عن الناس، وحمایتهم من استغلال المصارف لحاجتهم.

وإذا كان التاجر المستورد لا يملك قيمة الخطاب جزئياً أو كلياً، فإن المعاملة تتم في البنوك التجارية على أنها قرض، ويأخذ المصرف فوائد على هذا القرض، مخفضة من تاريخ السداد في الخارج وحتى وصول المستندات، ونسبة أعلى إذا تأخر العميل في الدفع، وكل ذلك لا يجوز؛ لأنه ربا؛ تكميلاً لمقصود حفظ المال^(٣).

أما المصارف الإسلامية فإنها تقيم المعاملة في هذه الحالة على أساس المراجعة للأمر بالشراء أو المضاربة، وإن أقامتها على أساس القرض فبلا فوائد ربوية، إنما تأخذ فقط بدل أتعاب عن هذه العملية بصفتها وكيلاً^(٤). إذ إن أي معاملة يترتب عليها فوائد ربوية أو ذريعة لها فهي ربا محرم؛ تكميلاً لمقصود حفظ المال.

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، ج ٤٥، ص ٩١.

(٢) أجاز مؤتمر المصرف الإسلامي في دبي عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م أخذ المصرف أجرة على فتح الاعتماد على سبيل الوكالة، بشرط مراعاة التخفيف عن الناس، ومراعاة ما هو متبع حسب العرف التجاري. (انظر: مجموعة من الباحثين، الفتاوى الاقتصادية، ص ٢٨٩).

(٣) انظر: السالوس، علي، معاملات البنوك الحديثة في ضوء الإسلام (قطر: دار الحرمين للنشر، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٧٣.

(٤) انظر: شبير، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٢٨٤؛ الزحيلي، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٤٦٦.

وبما أن الاعتماد المستندي هو أحد تطبيقات الضمانات، فقد جاء في «المعايير الشرعية» ضرورة ألا يؤخذ بالاعتبار جانب الضمان عند تقدير الأجرة، وعليه فلا يجوز للمؤسسة أن تأخذ زيادة على المصروفات الفعلية في حال تعزيزها لاعتماد صادر من غيرها؛ لأن تعزيز الاعتماد ضمان محض^(١). وخطاب الاعتماد من هذه الجهة يعدّ مكماً لمقصود حفظ مال البائع ومقصود حفظ دين المشتري. وتكميل حفظ المال في هذه المعاملة مُرَجِّحٌ للحكم بتحريم أخذ الأجرة لقاء الاعتماد ذاته، وإهمال هذا المكمل يحوّل هذه المعاملة إلى معاملة ربوية، وهذا مما يدفعه الشرع.

المسألة الثالثة: العلاقة بين البنك الإسلامي والبنك المراسل

في عملية الاعتماد المستندي ينبغي أن تكون العلاقة بين المصرف الإسلامي وبين البنك المراسل «الأجنبي» خالية من شبهات الحرام وفي مقدمتها الفوائد الربوية، وذلك تكميلاً لمقصود حفظ المال والدين^(٢).

والمخرج الشرعي من ذلك يكون ببناء العلاقة على أساس دائن بمدين مع اجتناب الربا. بحيث يقام التعامل بين البنكين من خلال الودائع المتبادلة، كأن يودع المصرف الإسلامي مبلغاً لدى بنك أجنبي دون فائدة مع الإذن باستعمالها في عملية الاعتماد المستندي. وإذا كان مبلغ الاعتماد أكبر من الوديعة دفعها البنك المراسل دون فائدة ربوية^(٣).

واختلف في مسألة دفع البنك الإسلامي فوائد ربوية على الأموال التي يدفعها البنك المراسل كقرض. فقال بعض الفقهاء بالجواز بدعوى الضرورة التجارية، كأن تكون البلاد في حاجة ماسة إلى البضائع المطلوب فتح الاعتمادات المستندية لها^(٤). وقال آخرون: إنه لا ضرورة تبيح ذلك، فضلاً

(١) المعايير الشرعية، ص ٤٠٢.

(٢) انظر: شبير، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٢٨٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٤) أجاز بعض المتخصصين، مثل د. عوف الكفراوي، محمد عبد الله العربي، أحمد النجار، هذه الصورة بدعوى الضرورة التجارية. (انظر: الكفراوي، عوف، النقود والمصارف في النظام الإسلامي (مصر: دار الجامعات المصرية، ط ١، د ت)، ص ٧٨؛ العبادي، عبد الله، موقف الشريعة من المصارف الإسلامية (مصر: دار السلام، ط ٢، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م)، ص ٣٠١.

عن إمكانية بناء التعامل مع البنوك الأجنبية على أسس خالية من الربا^(١). ويرى الباحثان أنّ الضرورة في هذه المسألة غير متحققة، بحكم انفتاح العالم اليوم، وتعدد الفرص التي تتيح إمكانية استيراد السلع من أماكن متعددة في العالم وبطرق مختلفة ومشروعة. ولا يُعتمد إلى الطرق الملتوية؛ تمسكاً بمكملات المقاصد من قبيل اجتناب الربا، وتقوية للأصول المقصودة ومحافظة عليها.

المسألة الرابعة: إصدار الاعتماد المستندي لعملية محرمة

أشرنا في المسألة الأولى من هذا المطلب إلى أنّ الاعتماد المستندي ينطوي على مصلحة للبائع والمشتري، فتتحقق مصالح الجميع بلا تلف أو خلل. وبهذا يعدّ مكملًا للمقاصد الحاجية في التيسير ورفع الحرج، وتجاوز المخاطر المحتملة، والاطمئنان إلى استلام المستحقات.

لكن إن صدر الخطاب للحصول على قرض ربوي، أو لتوريد بضائع محرمة أو كان ضمن عملية تعود بالمضرة على الأمة، أصبح الاعتماد مبطلاً لمقصود حفظ الدين، وحينها يهمل هذا المكمل محافظة على الأصل المقصود؛ فإنه لا يمكن العمل بمكمل يحفظ مقصوداً حاجياً، ويبتل مقصوداً ضرورياً، ناهيك عما إذا انعدمت الضرورة، وهو الغالب الأعم.

ويتبين دور هذا الخطاب في رعاية المقاصد وتتميمها وتكميلها إذا خلا من شبهات الحرام، وتمت إجراءاته بما يتوافق مع أحكام الشريعة الإسلامية، وروعي فيها مقصد التيسير ورفع الحرج.

المطلب الثالث: الودائع المصرفية.

ويتكون هذا المطلب من فرعين، يتناول الفرع الأول مفهوم الودائع المصرفية، ويتناول الفرع الثاني مسائل مكملات المقاصد في متعلقات الودائع المصرفية.

الفرع الأول: مفهوم الودائع المصرفية

الوديعة لغة: تُجمع على ودائع. من أودع الشيء إذا صانه. وأودع فلاناً الشيء دفعه إليه؛ ليكون عنده وديعة. والإيداع: وضع البضائع في مخازن.

(١) انظر: شبير، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٢٨٦.

والوديعة: ما استودع، والمستودع هو مكان حفظ الوديعة^(١).

الودائع المصرفية في القانون التجاري:

الودائع المصرفية نوعان: عينية ونقدية. العينية أشياء مادية محسوسة كالذهب والفضة، أو الوثائق والمستندات.

أما الودائع النقدية، فهي مبالغ من النقود يعهد بها أفراد أو هيئات إلى المصرف، ويتعهد الأخير بردها لدى الطلب، أو بالشروط المتفق عليها^(٢).

الفرع الثاني: أثر مكملات المقاصد في متعلقات الودائع المصرفية

المسألة الأولى: مشروعية الإيداع ذاته

الأصل في جواز الإيداع الكتاب والسنة وإجماع العلماء^(٣). وهو نوع من أنواع الحفظ والائتمان. وهو مشروع من باب الإعانة والتيسير، وتحقيق مصلحة المسلمين، ودفع الضرر والخرج عنهم، فهم في حاجة ماسة لاستعانة بعضهم ببعض؛ لحفظ المال وصيانة الأمتعة.

وفي تشريع الإيداع تكميل لحفظ المال من الضياع والتلف، ورفع للخرج عن الناس، وتيسير عليهم. وتكميل لمقصود حفظ الدين إذ بها يتحصل المودع عنده على الأجر، وفي حفظ الودائع ثواب جزيل في الدنيا والآخرة، فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

فقد يكون لدى أحدهم مال ولا يكون عنده موضع أمين يحفظه فيه، أو يكون عاجزاً عن دفع الأيدي الآثمة عنه، وقد يريد أحد سفراً لقضاء حاجة ولا يأمن أن يترك ماله دون إشراف، وقد يقبني سلعة قد لا يحتاجها الآن لكنه يحتاجها في قادم الأيام فيريد حفظها، وهكذا^(٤).

(١) انظر: أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ص ١٠٢١.

(٢) انظر: الأمين، حسن عبد الله، الودائع المصرفية النقدية (السعودية: دار الشروق، ط ١،

١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٢٠٨.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٣٣-٣٤.

(٤) انظر: الخن وآخرون، الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي (دمشق: دار القلم، ط ٢،

١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص ٢٤٢-٢٤٣.

المسألة الثانية: اشتراط الأجر على حفظ الوديعة

اختلفت المذاهب الفقهية في حكم حفظ الوديعة بأجرة^(١). ذهب الحنفية والشافعية إلى جواز اشتراط الوديع أجرًا على حفظ الوديعة، واعدوا شرطه صحيحًا ملزمًا. وقد جاء في المادة (٨١٤) من مرشد الحيران: ليس للمستودع أن يأخذ أجرًا على حفظ الوديعة ما لم يشترط ذلك في العقد^(٢).

بل إنَّ الشافعية نصوا على حق الوديع في أخذ الأجرة على الحفظ والحرز حيث يكون قبول الوديعة واجبًا على الوديع؛ لتعيّنه، قالوا؛ لأنَّ الأصح جواز أخذ الأجرة على الواجب العيني، كإنقاذ الغريق، وتعليم الفاتحة، ونحو ذلك^(٣). ويرى الباحثان رجحان هذا الرأي، فاشتراط الأجرة على الوديعة مكمل لمقصود حفظ مال المودع، وبه يتقوى المقصود، إذ يكون الوديع أكثر حرصًا على الحفظ والصون، فضلًا عن كونه وسيلة من وسائل الكسب الحلال التي يمكن أن يعتاش منها الإنسان، وفي هذا تكميل لحفظ ماله أيضًا.

المسألة الثالثة: مشروعية الإيداع في المصارف

أسلفنا أنّ الإيداع استئمان ينطوي على التيسير والإرفاق إجمالًا، فماذا عن الإيداع في المصارف؟ هل يسري عليه ما يسري على الإيداع المعتاد بين الأفراد؟ بالنسبة للودائع العينية؛ فلا حرج فيها إذ إنّ البنك يحتفظ بعينها ويردها كما هي، ولهذا جاز للمصرف الإسلامي أن يؤجر خزائنه لمن أراد الانتفاع بها^(٤). وهذا فيه تكميل لمقصود حاجي لحفظ المال من التلف والضياع.

أما بشأن الودائع النقدية، فالحق أنّ ثمة فرق مهم؛ وهو أنّ المصرف لا يأخذ الودائع النقدية كأمانات يحتفظ بعينها ثم يردها إلى أصحابها عند الطلب، إنما يستهلكها في أعماله الاستثمارية أو التجارية، ويلتزم للمودع بردّ المثل. يقول

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ج ٣، ص ١٤٤.

(٢) باشا، محمد قدرى، مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان في المعاملات الشرعية، تحقيق:

مجدي باسليم (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠١٧م)، ص ٨٦٦.

(٣) الهبتمى، ابن حجر، تحفة المحتاج بشرح المنهاج (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، د ط، د

ت)، ج ٧، ص ١٠٠.

(٤) شبير، المعاملات المالية المعاصرة، هامش ص ٢٦٤.

فقهاء القانون إنَّ هذا الفرق يخرجها من كونها وديعة لتصبح قرصاً^(١).

وعلى هذا التكييف فإنَّ الودائع المصرفية جائزة إذا خلت من الفوائد الربوية كما في الودائع الجارية. أما الودائع الاستثمارية والادخارية فهي ربا؛ لأنها تؤخذ بفوائد محددة مسبقاً، ويعطيها البنك لآخرين بفوائد أعلى ويربح الفرق^(٢)، وهذه زيادة واضحة في عقد القرض، لا تصح تكميلاً لحفظ المال وحفظ الدين.

المسألة الرابعة: مشروعية الإيداع في البنوك الربوية

جواز الإيداع في المصارف مشروطٌ بالخلو من الربا. لكن ماذا لو اضطر المسلم أن يحفظ أمواله وممتلكاته في بنك ربوي؛ لعدم وجود بنك إسلاميٍّ في محلِّ إقامته أو كان البلد الذي يعيش فيه لا يسمح بوجود البنوك الإسلامية، ولا يستطيع الانتقال إلى بلدٍ آخر يوجد فيه بنكٌ إسلامي، ويخشى على ماله وممتلكاته؟

يرى فريقٌ من العلماء أنَّ حفظه لأمواله وممتلكاته في بنكٍ ربويٍّ يكون حينذاك جائزاً^(٣)؛ لأنَّ حفظ المال ضروريٌّ، واجتناب الربا مكملٌ له، وإذا كان الامتناع عن إيداع المال في بنك ربوي يترتب عليه ضياع المال وفساده بالسرقة أو السطو أو نحوهما، فإنه يراعى حفظ المال ويُهمل مكملُه؛ لأنَّ من شرط اعتبار المكمل ألا يعود على أصله بالإبطال.

وعلى الرغم من ذلك فإنه متى أمكن المسلم الإيداع في بنكٍ لا يتعامل بالربا وجبَّ سحب المال من البنك الربوي فوراً؛ تكميلاً لمقصد حفظ المال وتقويةً له^(٤).

(١) انظر: السالوس، علي، حكم ودائع البنوك وشهادات الاستثمار (مصر: مكتبة دار القرآن، ط ١٤٢٤، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م)، ص ٨٣.

(٢) شبير، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٢٦٦.

(٣) انظر: مكي، محمد، فتاوى الشيخ مصطفى الزرقا (دمشق: دار القلم، ١٤٢٠هـ)، ص ٥٩٧-٥٩٨؛ السالوس، علي، الاقتصاد الإسلامي والقضايا الفقهية المعاصرة (بيروت: مؤسسة الريان، د. ط، ١٤١٨هـ)، ج ١، ص ١٥٧؛ الندوي، علي، موسوعة القواعد والضوابط الفقهية الحاكمة للمعاملات المالية (الرياض: دار عالم المعرفة، د. ط، ١٤١٩هـ)، ج ١، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٤) انظر: العتيبي، مكملات مقاصد الشريعة - تأصيلًا وتطبيقًا على بعض القضايا المعاصرة، ص ٩٢.

المسألة الخامسة: التصرف بالفوائد الربوية التي يدفعها المصرف الربوي

إذا اضطر المسلم لإيداع ماله في بنك ربوي كما ذكرنا في المسألة السابقة، فإنه يتدافع مكملان بالنسبة للفوائد التي يدفعها له المصرف الربوي، ويكون المودع واقفًا بين خيارين:

الأول: ترك الفوائد الربوية وعدم أخذها؛ تكميلاً لحفظ المال من الربا. والثاني: أخذها ودفعها للفقراء والمساكين أو إنفاقها على المصالح العامة كبناء المستشفيات؛ تكميلاً لحفظ النفوس، ولحرمان المصارف من التصرف بها على المؤسسات التبشيرية أو استخدامها في محرمات أخرى، وذلك تكميلاً لحفظ مقصود الدين^(١).

وعند تعارض مكمل حفظ المال مع مكملات حفظ النفس والدين، قدمت الأخيرة؛ فالمكمل تبع لما كمله، ومرتبة حفظ المال دون مرتبة حفظ النفس أو الدين. وبهذا فإنَّ المسلم يأخذها ويدفعها للمحتاجين أو يصرفها على مصالح عامة تخدم المسلمين.

المسألة السادسة: الإيداع في البنوك على سبيل المضاربة

نادى بعض الباحثين بتكييف ودائع البنوك على أنها مضاربة، فربُّ المال هو المودع، والبنك هو المضارب^(٢).

لكن هذه المعاملة حين تتم في المصارف فإنه يتم اشتراط ضمان رأس المال، ويتم اشتراط دفع مبلغ مقطوع من الربح، وهذان الشرطان لا يجوزان في عقد المضاربة، واشتراطهما يُبطل هذا العقد إذ من خصائص المضاربة احتمال الربح والخسارة على المضارب، والاتفاق على نسبة من الربح وليس مبلغًا مقطوعًا.

ومعلوم أنَّ الشروط مكمل لما اشترطت فيه، وعليه فإن هذه المكملات - وهي الشروط الموجودة في معاملة البنوك في هذه الحالة - تسقط ولا تعتبر؛ لأنها تفضي لإبطال أصل العقد وخصائصه. وقد أسقطت البنوك الإسلامية هذه الشروط، وأجرت المضاربة بالطريقة الإسلامية المشروعة، بحيث يوقع العميل - عند الإيداع - على عقد مضاربة خالية من الشروط المذكورة.

(١) انظر: المرجع السابق ص ٩٢.

(٢) ممن نادى بذلك شوقي الفنجري، ومفتي مصر الأسبق محمد سيد طنطاوي. ١٩٩٥ م. نقلًا

عن: شبير، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٢٦٦.

المطلب الرابع: الحوالات المصرفية

يتكون هذا المطلب من فرعين، يتناول الفرع الأول مفهوم الحوالات المصرفية، ويتناول الفرع الثاني مسائل مكملات المقاصد في متعلقات الحوالات المصرفية.

الفرع الأول: مفهوم الحوالات المصرفية

الحوالة لغةً: اسم من أحال الغريم إذا دفعه عنه إلى غريم آخر. وهي من حال الشيء إذا تغير، ومن حال الشيء إذا نقله، وحال العمل إلى فلان إذا ناطه به. وحوّل الشيء إذا نقله من مكان إلى مكان آخر^(١).

الحوالة في اصطلاح الفقهاء: «نقل الدين والمطالبة من ذمة المحيل إلى ذمة المحال عليه»^(٢).

الحوالة المصرفية في القانون التجاري: هي أمر صادر من مصرف لآخر، أو لفرع من فروع المصرف نفسه لدفع مبلغ معين لشخص معين بناءً على طلب عملائه. ويميزه تفصيل عرفت بأنّها: «عملية نقل النقود أو أرصدة الحسابات من حساب إلى حساب، أو من بنك إلى بنك أو من بلد لآخر، وما يستتبع ذلك من تحويل العملة المحلية بالأجنبية أو الأجنبية بأجنبية أخرى»^(٣).

الفرع الثاني: أثر مكملات المقاصد في متعلقات الحوالات المصرفية

المسألة الأولى: مشروعية الحوالة ذاتها

الحوالة عملية مشروععة بالقرآن والسنة والإجماع والمعقول؛ لأنها عقد إرفاق، وهذا العقد قائم بذاته، وقد شرعت؛ لتكون وسيلة من أجل تيسير الاستيفاء والإيفاء بين المتعاملين. ومن خلال تعريفها يمكن أن نستنتج أن فيها نفعًا يعود على الدائن، وتخفيفًا يلحق بالمدين^(٤).

(١) انظر: أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ص ٢٠٨-٢٠٩.
(٢) باشا، مرشد الحيران، ج ١، ص ٢٧٩، المعايير الشرعية، ص ١٧٩.
(٣) عوض، محمد هاشم، دليل العمل في البنوك الإسلامية (الخرطوم): فال للإعلان والطباعة، ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص ٧١.
(٤) انظر: المعايير الشرعية ص ١٧٩.

والحوالة وهي تقوم بهذه الأدوار تعدّ من مكملات مقصد التيسير ورفع الحرج، وهو من المقاصد الحاجية المكملة للضرورة. ويتأكد هذا إذا علم أنّ الحوالة المصرفية تكيف على أنها وكالة بأجرة، والوكالة من مكملات المقاصد الحاجية؛ لتيسير التعاملات بين الناس من جانب، ولحفظ مال الدائنين وأصحاب الحقوق من جانب آخر. وبهذا فإنّ الحوالة المصرفية عملية مشروعة، وهي مكتملٌ يُعمل ويُعتبر؛ لتقوية مقصود حفظ المال إذا خلا مما يداخله من شروط أو اعتبارات أخرى غير مشروعة.

المسألة الثانية: اجتماع الوكالة بأجر والصرف في الحوالة المصرفية

الحوالات الخارجية التي تتم بين البنوك في أكثر من بلد وتختلف العملات بينهما، تتضمن أكثر من معاملة، فبالإضافة إلى كونها وكالة بأجرة، فإنها تشتمل على عملية صرف.

وعملية الصرف في الفقه الإسلامي لها شروط، من بينها تقابض البدلين قبل تفرق العاقدين من مجلس العقد باتفاق الفقهاء، سواء كان القبض حقيقياً أو حكماً^(١). وهذا الشرط غير متحقق في الحوالات الخارجية.

والمخرج الشرعي لذلك بأن يُجري البنك القيود المحاسبية المتعلقة بعملية التحويل بمجرد الاتفاق مع العميل، ويسلم العميل في مجلس العقد إشعاراً بذلك يقوم مقام القبض، وجرى العرف التجاري على اعتباره مُلزماً لمن أصدره، وبهذا يتحقق القبض الحكمي^(٢)، ومن خلال ذلك تزول آثار الربا تكمياً لمقصود حفظ المال.

جاء في المعايير الشرعية: يجوز إجراء حوالة مصرفية بعملة مغايرة للمبلغ المقدم من طالب الحوالة، وتتكون تلك العملية من صرف بقبض حقيقي أو حكمي بتسليم المبلغ لإثباته بالقيود المصرفي، ثم حوالة (تحويل) للمبلغ بالعملة المشتراة من طالب الحوالة^(٣).

(١) انظر: الزحيلي، المعاملات المالية المعاصرة، ص ١٦٤.

(٢) انظر: شبير، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٢٧٨.

(٣) المعايير الشرعية، ص ٦٠.

فإجراء القيود المحاسبية وفق ما بيّنا مكملاً ينبغي إعماله؛ تقوية لمقصود حفظ المال من شبهة الربا، وإهمال هذا المقصود يقلب المعاملة إلى معاملة ربوية يدفعها الشرع.

المسألة الثالثة: تحصيل الأجرة على الحوالة

في الحوالات الداخلية يتم نقل النقود من مكان لآخر بنفس الدولة، وذلك بنفس العملة في الغالب، وعليها يتقاضى البنك أجرة أو عمولة نظير قيامه بالوكالة عن المحيل في تسليم المبلغ للمُحال إليه. وتحتسب هذه الأجرة بالنظر للتكلفة التقديرية للمصروفات الفعلية التي يقوم بها البنك لإتمام التحويل^(١).

أما في الحوالات الخارجية، فإنَّ البنك يستفيد في عملية الصرف من فرق العملات الحاصل بين يوم العقد ويوم التحصيل والحاصل من فرق بيع العملة وشرائها. وهذه الفائدة ربا، يحرم تحصيلها تكميلاً لمقصود حفظ المال.

لكن إن تم إجراء القيود المحاسبية المتعلقة بعملية التحويل بمجرد الاتفاق مع العميل، وتسليمها له في مجلس العقد إشعاراً بذلك، فإن هذا يقوم مقام القبض، ويتحقق به القبض الحكمي، وحينها يجوز للمؤسسة أن تتقاضى من العميل أجرة التحويل^(٢).

فإجراء القيود المحاسبية وفق ما بيّنا مكملاً ينبغي إعماله تقوية لمقصود حفظ المال من شبهة الربا، وإهمال هذا المقصود يقلب المعاملة إلى معاملة ربوية يدفعها الشرع. وفي هذا العملية تكميل لحفظ المال من الربا.

المسألة الرابعة: ضمان مبلغ الحوالة

جاء في قرارات مجمع الفقه الإسلامي (١ / ٨٨) الدورة التاسعة: إذا كان القائمون بتنفيذ الحوالات يعملون لعموم الناس فإنهم ضامنون للمبالغ، جرياً على تضمين الأجير المشترك^(٣)..

وقد اتفق الفقهاء على أنّ الأجير المشترك إذا تلف عنده المتاع بتعدّد أو تفريط جسيم: يضمن. أمّا إذا تلف بغير هذين ففيه تفصيل في المذاهب^(٤).

(١) انظر: شبير، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٢٧٦ و ٢٧٧.
(٢) انظر: المعايير الشرعية، ص ٦٠. انظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي (العدد التاسع، ج ٦٥).
(٣) انظر: قرار مجمع الفقه الإسلامي التاسع المنعقد بأبي ظبي في أبريل ١٩٩٥، برقم (١/٨٨/٩٥).
(٤) السالوس، علي، وآخرون، موسوعة فقه المعاملات المالية المعاصرة (القاهرة: دار السلف الصالح، ط ١، ١٤٤٠هـ)، ج ١، ص ١٢٢.

والذين يقولون بتضمينه، أرجعوا الأمر إلى تحقيق مقصود الشارع في حفظ أموال الناس، سيما مع فساد الناس وخيانة الأجراء. وبهذا يكون التضمن هنا مكماً لحفظ المال.

ويرى الباحثان أنّ ضمان المبالغ مكتملٌ يجب إعماله تكمياً لحفظ أموال الناس، وأن إهمال هذا المكمل ربما يدفع ضعاف النفوس والإيمان إلى استسهال أكل أموال الناس أو بعضها بغير حقّ سيما في هذا الزمان الذي ظهرت فيه مؤسسات كاملة أشبه بالعصابات لا يهتمها سوى التربح ولو على حساب أموال الناس دون مراعاة لمبادئ الشرع.

المطلب الخامس: المراجعة للأمر بالشراء

يتكون هذا المطلب من فرعين، يتناول الفرع الأول مفهوم المراجعة للأمر بالشراء، ويتناول الفرع الثاني مسائل مكملات المقاصد في متعلقات المراجعة للأمر بالشراء.

الفرع الأول: مفهوم المراجعة للأمر بالشراء

المراجعة لغةً: من ربح يربح بمعنى كَسَبَ، والرِّبْحُ هو المكسب، وقيل ربح بمعنى زاد ونما. وراجحه على بضاعته إذا أعطاه ربحاً. وبيع المراجعة: البيع برأس المال مع زيادة مشروطة، يقال أعطاه مالاً مراجعةً على الربح بينهما^(١).

المراجعة في اصطلاح الفقهاء (قديمًا): وتحدث هنا عن المراجعة بصيغتها القديمة. فقد جاء في كشف القناع: هي أن يبيعه بثمنه المعلوم، وربح معلوم، فيقول: رأس مالي فيه مائة بعته بها، وربح عشرة^(٢). وقيل هي البيع بزيادة على الثمن الأول^(٣)، كأن يشتري الشيء بعشرة دنانير ويبيعه بربح دينار، ربحاً مقطوعاً، أو بنسبة عشرية مثل ١٪^(٤).

(١) انظر: أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ص ٣٢٢.

(٢) البهوتي، منصور، كشف القناع عن متن الإقناع (بيروت: عالم الكتب، د ط،

١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ج ٣، ص ٢٣٠.

(٣) ابن المناوي، عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد حمدان

(القاهرة: عالم الكتب، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص ٣٠٢.

(٤) انظر: الزحيلي، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٦٧.

المراجحة للآمر بالشراء في المصارف (حديثاً): وتحدث هنا عن المراجحة كما تجرّيها المصارف في الوقت الحالي. هي طلب الفرد أو المشتري من شخص آخر (أو المصرف) أن يشتري سلعة معينة بمواصفات محددة، وذلك على أساس وعد منه بشراء تلك السلعة اللازمة له مراجحة، وذلك بالنسبة أو الربح المتفق عليه، ويدفع الثمن على دفعات أو أقساط تبعاً لإمكاناته وقدراته المالية^(١).

الفرع الثاني: أثر مكملات المقاصد في متعلقات المراجحة للآمر بالشراء المسألة الأولى: مشروعية المراجحة ذاتها من حيث المبدأ

المراجحة على صورتها القديمة عدّها الفقهاء من بيوع الأمانة؛ لأنّ المشتري يأتمن البائع على إخباره بالثمن الأول الذي اشترى به السلعة. واتفق الفقهاء في كل العصور على جوازها من غير نكير^(٢).

وهذه المعاملة التي تتم حالياً بعقود مركبة في المصارف، فيها -من حيث المبدأ- إرفاق وإحسان بالمشتري، فهو لم يسع إليها إلا لأنه لا يستطيع أن يجلب السلعة بنفسه؛ إما لصعوبة توريدها من بلد آخر، وإما لعدم امتلاكه المال الكافي لشرائها دفعة واحدة، والمراجحة وسيلة يمكن من خلالها للمؤسسة المالية أن تجلب له السلعة وأن يقسط له الثمن، وفي هذا تكميل لمقصد التيسير. وهذه المنفعة التي يتحصلها المشتري تكون في مقابل زيادة معلومة في الربح للبائع، بمبلغ مقطوع أو نسبة مئوية من ثمن الشراء، ويتم هذا التحديد بالاتفاق والتراضي بينهما.

وعلى هذا فإن المراجحة بهذه الصورة، تعدّ مكملًا يُعمل تقوية لمقصود حفظ المال، ويُهمّل إن انطوت المعاملة على أي شروط غير مشروعة، وذلك؛ للمحافظة على المقصد الأصلي وهو حفظ المال.

(١) انظر: القرضاوي، يوسف، بيع المراجحة للآمر بالشراء (الكويت: دار القلم، ط ١، ١٩٨٤م)، ص ٢٧ وما بعدها.

(٢) الكاساني، علاء الدين، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ج ٥، ص ٢٢٠؛ ابن جزّي، محمد بن أحمد، القوانين الفقهية، تحقيق محمد مولاي (د.ت، د.ط، دون سنة النشر)، ص ١٧٤.

المسألة الثانية: الوعد من العميل بشراء السلعة في المراجعة للآمر بالشراء

العنصر الأول في بيع المراجعة للآمر بالشراء هو الوعد الملزم الذي يقدمه المشتري للمصرف بعزمه على شراء السلعة.

وفي هذا الوعد نوع من الطمأنة إلى عزم الشراء من جانب المشتري بعد تملك المؤسسة للسلعة، وهذه الطمأنة مقصود تحسيني مكمل لمقصد رفع الحرج. ولذلك لم يكن هذا الوعد من لوازم المراجعة، لكن إن تمَّ فقد أصبح ملزماً.

والوفاء بالوعد من جانب العميل للمؤسسة فيه تكميل لمقصد حفظ الدين؛ لأن الوفاء بالوعد واجب ديانة، وإخلاف الوعود من صفات المنافقين، قال ﷺ: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(١).

كما إن الإلزام بالوعد فيه تكميل لحفظ مقصود مال المؤسسة من التلف أو الضياع، فالمصرف الذي اشترى سلعة معينة ونكث المشتري وعده بشرائها، سيتضرر إذا لم يجد من يشتريها بعده؛ لعدم حاجة الكثيرين لها، كمثل جهاز طبي نادر أو لوحة فنية نادرة، كما ستتضرر المؤسسة أيضاً؛ لأن مالها الذي اشترت به السلعة سيُحجب عن التشغيل والاستثمار مدة بقاء السلعة دون بيع، وفي الشريعة «لا ضرر ولا ضرار»^(٢).

وعلى هذا، فإنَّ الباحثين يرجحان مشروعية هذا الوعد؛ بوصفه مكملٌ يُعمل تقوية لمقصد حفظ الدين وحفظ المال، ولا يُهمَل؛ لأنه لا يعود على أصله بإبطال ولا إخلال.

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم الحديث: ٣٤، ج ١، ص ٢١٣؛ ابن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب: ليس من الإيمان أخلاق المنافقين، رقم الحديث: ٥٠، ج ١، ص ٤١١.

(٢) بن ماجه، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، ج ٢، ص ٧٨٤، حديث رقم ٢٣٤١، قال الألباني: صحيح (الألباني، محمد ناصر الدين، إرواء الغليل في تخریج أحاديث منار السبيل (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٥هـ)، ج ٣، ص ٤٠٨).

المسألة الثالثة: المواعدة الملزمة للطرفين في بيع المراجعة للأمر بالشراء

لم يُجز الفقهاء أن تشتمل وثيقة الوعد أو ما في حكمها على مواعدة ملزمة للطرفين (العميل والمؤسسة)، فالمواعدة الملزمة تشبه في هذه الحالة عقد البيع نفسه قبل التملك^(١). وفي هذا تكميل لمقصود حفظ المال؛ لأن البيع قبل التملك بيع ما ليس عنده، وهذا ينطوي على كثير من الغرر.

وتجوز المواعدة الملزمة بين الطرفين إذا اشترط الخيار لأحد الطرفين أو كليهما. جاء في قرار مجمع الفقه الإسلامي الدولي رقم ٤١ (٥/٣): «المواعدة - وهي التي تصدر من الطرفين - تجوز في بيع المراجعة بشرط الخيار للمتواعدين، كليهما أو أحدهما، فإذا لم يكن هناك خيار فإنها لا تجوز؛ لأنَّ المواعدة الملزمة في بيع المراجعة تشبه البيع نفسه، حيث يشترط عندئذ أن يكون البائع مالكاً للمبيع حتى لا تكون هناك مخالفة لنهي النبي ﷺ عن بيع الإنسان ما ليس عنده»^(٢).

والخيار في هذه الحالة يمكن أحد المتعاقدين من فسخ العقد إذا ثبت له عدم موافقة المبيع للشروط المتفق عليها، أو إذا طرأت ظروف منعت أحدهما من الالتزام بالوعد، وهذا مكمل لحفظ المال من الغرر أو التلف.

ويترجح عدم جواز المواعدة الملزمة في هذه الحالة؛ لأنَّ الواجب أن يُهمل هذا المكمل للمحافظة على المقصود الأصلي من البيع من الاختلال.

المسألة الرابعة: الزيادة في الثمن إذا دُفع على أقساط

يجوز في عقد المراجعة زيارة ربح معلوم ومحدد مسبقاً على سعر السلعة الأصلي، ويتم هذا بالتوافق والتراضي. فماذا عن الزيادة الثانية في الثمن إذا اتفق الطرفان على سداد ثمن السلعة على دفعات مؤجلة؟.

الذي عليه جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة جواز بيع السلعة بأكثر من سعر يومها؛ لأجل الأجل^(٣)، وممن ذهب إلى هذا كثير من

(١) المعايير الشرعية، ص ٢٠٥.

(٢) قرار مجمع الفقه الإسلامي الدولي رقم ٤١ (٥/٣).

(٣) المرغيناني، علي، الهداية شرح بداية المبتدي، تحقيق: طلال يوسف (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٩٩٥م)، ج ٣، ص ٥٨؛ الدسوقي، محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، تحقيق: عبد الحميد هندواي (بيروت: المكتبة العصرية، ط ١، ٢٠٠٧م)، ج ٣، ص ١٦٥؛

المعاصرين، من بينهم الشيخ عبد العزيز ابن باز، والشيخ يوسف القرضاوي.. ويتجلى تكميل بيع التفسير لمقاصد الشريعة في كونه وسيلة مرغوبة لكثير من الناس من أجل توفير الحاجات، وتيسير الحصول على الخدمات، سيما في المجتمعات الفقيرة أو لدى الفئات ذات الأجور المتدنية. ولا يقصد منها المراهبة أو الربح غير المشروع، وهذا يصلح بديلاً مشروعاً عن القروض الربوية تكميلاً لمقصود حفظ المال^(١).

وفي الزيادة على الثمن في بيع التفسير أيضاً تكميلٌ لمقصود حفظ مال البائع، إذ إنه ضحى بشيء من الزمن من أجل التيسير على المشتري، وكان بإمكانه أن يستغله في استثمار ماله وربما ربح مبلغ أكبر خلال هذه المدة، وللزمن قيمة اقتصادية مهمة في العقود والمعاملات المالية وأنظمة التجارة ينبغي مراعاتها. **المسألة الخامسة: أخذ العربون أو الرهن أو هامش الجدية في عمليات المراهبة**

من مخرجات مؤتمر المصرف الإسلامي في الكويت عام ١٤٠٣ هـ، الموافق ١٩٨٣ م، أن أخذ العربون في عمليات المراهبة وغيرها جائز^(٢)، وفي هذا الحكم تكميلٌ لحفظ مال المؤسسة، إذ إن العربون يحقق شيئاً من الضمان والاطمئنان إلى التزام العميل بالشراء.

لكن المؤتمر اشترط بأنه لا يحق للمصرف أن يستقطع من العربون المقدم إلا بمقدار الضرر الفعلي المتحقق عليه من جراء النكول^(٣). وهذا الشرط مكملٌ لمشروطه، ولا يجوز إهماله؛ محافظةً على الأصل.

وجاء في المعايير الشرعية أنه يجوز للمؤسسة في حالة الإلزام بالوعد أن تأخذ مبلغاً نقدياً يسمى هامش الجدية، يدفعه العميل بطلب من المؤسسة من

الخطيب الشريبي، محمد بن أحمد، معني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (بيروت: دار الكتب العلمية، ١، ٤١٥ هـ/١٩٩٤ م)، ج ٢، ص ٧٩؛ ابن مفلح، إبراهيم، المدع في شرح المقنع (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨ هـ/١٩٩٧ م)، ج ٤، ص ١٠٥.

(١) انظر: الزحيلي، المعاملات المالية المعاصرة، ص ٦٠.
(٢) مجموعة من الباحثين، الفتاوى الاقتصادية، ج ١، ص ١٦٧؛ وجاء في المعايير الشرعية أنه يجوز للمؤسسة أخذ العربون بعد إبرام عقد بيع المراهبة للأمر بالشراء مع العميل، ولا يجوز ذلك في مرحلة الوعد (المعايير الشرعية ص ٢٠٩).
(٣) مجموعة من الباحثين، الفتاوى الاقتصادية، ج ١، ص ١٦٧.

أجل أن تتأكد من القدرة المالية للعميل، وكذلك؛ لتطمئن إلى إمكان تعويضها عن الضرر اللاحق بها في حال نكول العميل عن وعده الملزم^(١).

بل شجّع الفقهاء المؤسسات النقدية أن تطلب من العميل ضمانات مشروعة في عقد بيع المرابحة للآمر بالشراء، مثل كفالة طرف ثالث أو رهن وديعة استثمارية للعميل، أو رهن أي مال منقول أو عقار، أو تقديم شيكات أو سندات لأمر قبل إبرام عقد المرابحة للآمر بالشراء ضماناً للمديونية التي ستنشأ بعد إبرام العقد^(٢). وفي كل هذه الضمانات تكميل لحفظ مال البائع من التلف أو الضرر.

والضمانات المذكورة السابقة تختلف عن عمولة الارتباط التي منعها الفقهاء، وهي رسوم معينة تفرض على الوعد. فقد جاء في المعايير الشرعية: «لا يجوز حصول المؤسسة من العميل على عمولة ارتباط»، و«مستند المنع هو أنها مقابل حق التعاقد، وهو إرادة ومشئئة، وليس محلاً للمعاوضة»^(٣).

المسألة السادسة: الزيادة في الثمن حال تأخر العميل عن السداد

لم يجوّز الفقهاء الزيادة في الثمن المتفق عليه إذا تأخر العميل في سداد الأقساط المتفق عليها؛ وعدوا هذه الزيادة رباً، ومنعوه؛ تكميلاً لحفظ المال. ورأوا أن يُصار إلى تلافي الضرر الواقع على الدائن أو المصرف بأحد طرق التوثيق التي تمكنه من استيفاء حقه دون التورط في الربا.

وكمخرج شرعي لذلك، أجازوا أن ينصّ في عقد المرابحة للآمر بالشراء على التزام العميل المشتري بالتصدق بمبلغ أو نسبة من الدين تُصرف في الخيرات في حال تأخره عن سداد الأقساط في مواعيدها المقررة، على أن تُصرف في وجوه الخير بمعرفة هيئة الرقابة الشرعية للمؤسسة، ولا تنتفع بها المؤسسة^(٤).

(١) المعايير الشرعية، ص ٢٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٦، و ٩٤٦.

(٤) المعايير الشرعية، ص ٢١٦. الزحيلي، المعاملات المالية المعاصرة، ص ١٧٨. عملت به هيئة

الرقابة الشرعية وبيت التمويل الكويتي وبنك المؤسسة العربية المصرفية الإسلامي، وغيرهم (مجموعة من الباحثين، الفتاوى الاقتصادية، ج ١، ص ١٣٩).

وفي هذا الصنف على وجوه الخير تكميل لمقاصد حاجية متعلقة بمرافق المسلمين العامة، كترميم الشوارع، أو بناء الحمامات العامة في الأماكن البعيدة، أو إنارة الطرقات، وبناء المظلات على أطراف المدن، وغيرها.

النتائج والتوصيات:

أولاً: النتائج

- مكمالات مقاصد الشريعة هي: «الأحكام والوسائل التي تُعمل؛ تقويةً للمقصود، أو تُهمل؛ حفاظاً على المقصود».
- مكمالات المقاصد أقسام متعددة، باعتبارات مختلفة؛ باعتبار طبيعتها، وباعتبار موقعها من المقصد الأصلي، وباعتبار قربها أو بعدها من المقاصد.
- لمكمالات مقاصد الشريعة دور مهم جداً في الاجتهاد واستنباط أحكام وسط خالية من الاعتلال. وقد ظهر أثرها عند النظر في مآلات المعاملات الحديثة التي تجري بين الناس.
- دور المجتهد أن يقدم المكمل الذي يقوي المقصد الأصلي، وأن يُهمل المكمل الذي قد يؤدي إلى اختلال المقصد الأصلي ولو بوجهٍ ما.
- فهم المجتهد لفقه المكمالات مظنة استنباط أحكام وسط خالية من الخلل، خاصة إذا تعلق الأمر بالمعاملات المالية الحديثة التي تمثل عصب حياة الناس الاقتصادية في الوقت الحاضر.

ثانياً: التوصيات

- يوصي الباحثان جميع المهتمين بالاقتصاد الإسلامي بالاهتمام بدراسة مكمالات المقاصد دراسة معمقة؛ لما لها من أثر في كل تفصيلات المسائل الاقتصادية المطروحة على الساحة اليوم، والمتعلقة بمجالات الاقتصاد كافة، المصرفية والاستثمارية والتجارية والتأمينية وغيرها.

المراجع والمصادر:

- ابن عاشور، محمد الطاهر. (١٤٢١هـ). مقاصد الشريعة الإسلامية، ط ٢، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، تونس: دار النفائس.
- ابن فارس، أحمد. (١٤٠٢هـ). معجم مقاييس اللغة، ط ٣، تحقيق: عبد السلام هارون، مصر: مكتبة اليازجي.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد. سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- ابن مفلح، إبراهيم بن محمد بن عبد الله. (١٤١٨هـ). المبدع في شرح المقنع، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن منظور، محمد جمال الدين. (١٤٢٤هـ). لسان العرب، د. ط، الرياض: دار عالم الكتب.
- أبو النصر، عصام. (١٤٢٨هـ). المعاملات المالية المعاصرة في ميزان الفقه الإسلامي، ط ١، القاهرة: دار النشر للجامعات.
- الألباني، محمد ناصر الدين. (١٤٠٥هـ). إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ط ٢، بيروت: المكتب الإسلامي.
- الأمدي، علي بن أبي علي بن محمد. (١٤٢٤هـ). الإحكام في أصول الأحكام، ط ١، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، الرياض: دار الصميعي.
- الأمين، حسن عبد الله. (١٤٠٣هـ). الودائع المصرفية النقدية، ط ١، السعودية: دار الشروق.
- باشا، محمد قدری. (٢٠١٧م). مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان في المعاملات الشرعية، ط ١، تحقيق: مجدي باسلوم، بيروت: دار الكتب العلمية.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (١٤٣٣هـ). صحيح البخاري، ط ١، القاهرة: دار التأصيل.
- البعلي، عبد الحميد. (١٤١١هـ). الاستثمار والرقابة الشرعية، ط ١، القاهرة: مكتبة وهبة.
- البهوتي، منصور بن يونس بن صلاح. (١٤١٤هـ). شرح منتهى الإرادات، ط ١، القاهرة: عالم الكتب.
- الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف. (١٣٩٩هـ). البرهان في أصول الفقه، ط ١، تحقيق: عبد العظيم الديب، قطر.

- حماد، نزيه. (١٤٢٩هـ). معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، ط ١، دمشق: دار القلم.
- حمود، سامي. (١٤٠٢هـ). تطوير الأعمال المصرفية، ط ٢، القاهرة: مطبعة الشرق ومكتبتها.
- الخن، مصطفى، وآخرون. (١٤١٦هـ). الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، ط ٢، دمشق: دار القلم.
- الدسوقي، محمد بن عرفة. (٢٠٠٧م). حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، ط ١، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، بيروت: المكتبة العصرية.
- الزحيلي، وهبة. (١٤٢٩هـ). المعاملات المالية المعاصرة، ط ٦، بيروت: دار الفكر.
- السالوس، علي. (١٤٠٥هـ). استبدال النقود والعملات، ط ١، الكويت: مكتبة الفلاح.
- السالوس، علي وآخرون. (١٤٤٠هـ). موسوعة فقه المعاملات المالية المعاصرة، ط ١، القاهرة: دار السلف الصالح.
- السالوس، علي. (١٤٠٣هـ). معاملات البنوك الحديثة في ضوء الإسلام، ط ١، قطر: دار الحرمين للنشر.
- السالوس، علي. (١٤١٨هـ). الاقتصاد الإسلامي والقضايا الفقهية المعاصرة، د. ط، بيروت: مؤسسة الريان.
- السالوس، علي. (١٤٢٤هـ). حكم ودائع البنوك وشهادات الاستثمار، ط ١٤، مصر: مكتبة دار القرآن.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد. (١٤٢٧هـ). الموافقات في أصول الشريعة، ط ١، تحقيق: عبد الله دراز، القاهرة، دار الحديث.
- شبير، محمد. (١٤٢٧هـ). المعاملات المالية المعاصرة، ط ٦، الأردن: دار النفائس.
- الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب. (١٤١٥هـ). مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- عابدين، محمد أمين. (١٤١٨هـ). منحة الخالق على البحر الرائق، ط ١، تحقيق: زكريا عميرات، بيروت: دار الكتب العلمية.
- العبادي، عبد الله. (١٤١٥هـ). موقف الشريعة من المصارف الإسلامية، ط ٢، مصر: دار السلام.

العتيبي، غازي. (٢٠١١م). مكملات مقاصد الشريعة- تأصيلا وتطبيقا على بعض القضايا المعاصرة، السعودية، مجلة الأصول والنوازل، س٣، ٥٤. علي، محمد. (٢٠٠٧م). المقاصد الشرعية وأثرها في الفقه الإسلامي، ط١، القاهرة: دار الحديث.

عوض، علي جمال الدين. عمليات البنوك من الوجهة القانونية (القاهرة: دار النهضة الحديثة، ط١، ١٩٩٨م)،

عوض، محمد هاشم. (١٤٠٦هـ). دليل العمل في البنوك الإسلامية، ط١، الخرطوم: فال للإعلان والطباعة.

الغزالي، أبو حامد. (د.ت). المستصفى من علم الأصول، د.ط، بيروت: دار الفكر. الفتوحي، محمد بن أحمد بن عبد العزيز. (١٤١٣هـ). شرح الكوكب المنير، ط١، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الرياض: مكتبة العبيكان. الفيروزآبادي، محمد. (١٤٢٤هـ). القاموس المحيط، ط١، ضبط وتوثيق: يوسف البقاعي، بيروت: دار الفكر.

الفيومي، أحمد. (١٤٢٤هـ). المصباح المنير، د.ط، القاهرة: دار الحديث. القاري، أحمد عبد الله. (١٤٠١هـ). مجلة الأحكام الشرعية، ط١، جدة: تامة. القرضاوي، يوسف. (١٩٨٤م). بيع المراجعة للأمر بالشراء، ط١، الكويت: دار القلم. قسطو، جليل. (١٩٧٧م). معجم المصطلحات التجارية الفني، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة.

قلعجي، محمد رواس وقتيبي، حامد. (١٤٠٨هـ). معجم لغة الفقهاء، ط٢، بيروت: دار النفائس.

الكاساني، علاء الدين. (١٤٠٦هـ). بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية.

الكفراوي، عوف. (١٩٩٨م). النقود والبنوك في النظام الإسلامي، د.ط، مصر: مركز الإسكندرية للكتاب.

مجمع الفقه الإسلامي بجمدة. (١٤١٨هـ). قرارات وتوصيات، الدورات من الأولى إلى العاشرة، تنسيق وتعليق: عبد الستار أبو غدة، دمشق: دار القلم.

مجمع الفقه الإسلامي. (١٤٢٣هـ). قرارات وتوصيات الدورات ١-٤، ط٤، قطر: وزارة

الأوقاف والشؤون الإسلامية.

المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة. قرارات، الدورات من الأولى إلى السابعة عشرة، طباعة رابطة العالم الإسلامي.

المجمع الفقهي الإسلامي بمكة. (د.ت). قرارات للدورات من الأولى إلى السابعة عشرة، ط ٢، مكة المكرمة، مطابع رابطة العالم الإسلامي بمكة.

مخدوم، مصطفى. (١٤٢٠ هـ). قواعد الوسائل في الشريعة الإسلامية، ط ١، الرياض، دار اشبيليا.

المرغيناني، علي بن أبي بكر بن عبد الجليل. (١٩٩٥ م). الهداية شرح بداية المبتدي، ط ١، تحقيق: طلال يوسف، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

مكي، مجد. (١٤٢٠ هـ). فتاوى الشيخ مصطفى الزرقا، د. ط، دمشق: دار القلم.

منظمة المؤتمر الإسلامي. (١٤٠٧ هـ). مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الثاني.

الندوي، علي. (١٤١٩ هـ). موسوعة القواعد والضوابط الفقهية الحاكمة للمعاملات المالية، د. ط، الرياض: دار عالم المعرفة.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج. (١٤٣٣ هـ). صحيح مسلم، ط ١، القاهرة: دار التأصيل.

الهيتمي، أحمد بن محمد بن محمد بن حجر. (د.ت). تحفة المحتاج بشرح المنهاج، د. ط، مصر: المكتبة التجارية الكبرى.

هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية. (١٤٣٩ هـ). المعايير الشرعية، د. ط، البحرين: هيئة المحاسبة.

اليوي، محمد. (١٤١٨ هـ). مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة، ط ١، الرياض: دار الهجرة.

التعريف بنسخة خطية من صحيح الإمام البخاري
قُرئت في بيت المقدس أربعة عشر عامًا تواليًا في العشر
الأواخر من رمضان من عام (٨٩٩ هـ - ٩١٣ هـ)

د. محمد خالد كلاب*



الملخص:

يتحدث البحث عن نسخة خطية من صحيح الإمام البخاري، هذه النسخة نسخت في مدينة تبريز - إحدى مدن إيران حاليًا - نسخها الشيخ الوسطاني في شهر شوال سنة (٨٣٣ هـ)، من نسخة مأخوذة عن نسخة محررة بقلم الشيخ: رضي الدين الحسن بن محمد الصعالي (ت ٦٥٠ هـ)، واستقرت آخر القرن التاسع الهجري في بيت المقدس بواسطة الشيخ المارديني - ساكن بيت المقدس - وقراها على اثنين من أساتذته في بيت المقدس، ثم قرأها في مجالس عديدة في آخر عشرة أيام من رمضان على مدار ١٤ عامًا على التوالي.

Abstract:

The search talks about a written copy of the Sahih of Imam al-Bukhari, this copy was copied in the city of Tabriz - one of the cities of Iran now - copied by Sheikh Al-Wasatani in the month of (Shawwal) in the year (833 AH), from a copy taken from a copy edited by Sheikh: Radhi Al-Din Al-Hasan bin Muhammad Al-Saghani (d.650 AH), and settled at the end of the (ninth) century AH in (Jerusalem) by Sheikh Al-Mardini - a resident of Jerusalem-, and he read it to two of his teachers in Jerusalem, then he read it in several councils in the last ten days From Ramadan for 14 years in a row.

* أستاذ الحديث المساعد، قسم الدراسات الإسلامية جامعة الأقصى - غزة، تاريخ استلام البحث ٢٩/٨/٢٠٢٠م،
وتاريخ قبوله للنشر ٢٥/٩/٢٠٢٠م.

المقدمة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَصَلَاةٌ وَسَلَامًا عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَأَتْبَاعِهِ صَحَابَهُ وَالْآلِ»،
أَمَّا بَعْدُ:

يُعَدُّ كِتَابُ «الْجَامِعِ الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ الْمُخْتَصَرِ مِنْ أُمُورِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَنِهِ وَأَيَامِهِ» الْمَشْهُورِ بَيْنَ النَّاسِ بِـ «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنَ الْكُتُبِ الْحَدِيثِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمَصَادِرِ السَّنَةِ الْمَشْرِفَةِ، الَّتِي لَمْ يَزَلْ يَتَعَجَّبُ الْمَرْءُ مِنَ الْقَبُولِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لِلْمُؤَلَّفِ وَالْمُؤَلَّفِ مَعًا فِي الْأَرْضِ، حَتَّى تَلَقَّنَهُ الْأُمَّةَ بِالْقَبُولِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْخَلْفُ؛ سَمَاعًا وَقِرَاءَةً، رَوَايَةً وَدِرَايَةً، إِسْمَاعًا وَإِقْرَاءً، فَلَا تَكَادُ تَجِدُ مَسْجِدًا عَامِرًا، أَوْ مَدْرَسَةً عِلْمِيَّةً، أَوْ زَاوِيَةً تَعْبُدِيَّةً قَدِيمًا وَحَدِيثًا إِلَّا وَحَفَلَتْ بِهِ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ؛ إِمَّا تَمَلِّكًا لِنَسْخَةٍ مِنْهُ أَوْ أَكْثَرَ، أَوْ قِرَاءَةً لَهُ فِي جَنَابَتِهَا الْمَعْمُورَةِ، أَوْ عَقَّدَ مَجَالِسَ سَمَاعٍ لَهُ يَحْضُرُهُ الْمُتَعَمِّقُونَ مِنَ الْأَلُوفِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَطُلَّابِهِ.

وَمِنَ الْأَمَاكِنِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي شَهِدَتْ عَنَايَةَ أَهْلِهَا بِـ «صَحِيحِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ» مَدِينَةَ بَيْتِ الْمَقْدَسِ الشَّرِيفِ، وَبِخَاصَّةِ مَسْجِدِهَا الْأَقْصَى الْمُبَارَكِ وَمَا جَاوَرَهُ مِنْ الْمَدَارِسِ وَالرِّبَاطَاتِ، وَكُتُبِ التَّرَاجِمِ وَالتَّوَارِيخِ حَافِلَةٌ بِنَمَاذِجِ مَشْرِفَةِ هَذِهِ الْعَنَايَةِ، وَطُرُقِ الْمَخْطُوطَاتِ وَطَبَاقِ السَّمَاعَاتِ مَلِيئَةٌ بِالْأَمْثَلَةِ التَّرَاثِيَّةِ الَّتِي تَثَبَّتْ عَنَايَةُ الْمَقَادِسَةِ الْمُبَكَّرِ بِصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ رَوَايَةً وَدِرَايَةً.

وَفِي هَذَا الْبَحْثِ تَسْلِيْطٌ لِلضُّوءِ عَلَى صَفْحَةٍ مَشْرِفَةٍ مِنْ عَنَايَةِ الْمَقَادِسَةِ أَوْ نَزْلَاءِ هَذَا الثَّغْرِ الْمُبَارَكِ بِـ (الصَّحِيحِ)، وَسَمَاعِهِمْ وَقِرَاءَتِهِمْ لَهُ سِنَوَاتٌ مُتتَالِيَةٌ، يَذْكَرُ فِيهِ الْبَاحِثُ رِحْلَةَ مَخْطُوطِ نَفِيسٍ تُسَيِّحُ فِي مَدِينَةِ الْمُوَحَّدِينَ تَبْرِيْزَ -إِحْدَى مَدَنِ إِيرَانَ حَالِيًّا- عَلَى يَدِ الْإِمَامِ الْعَلَامَةِ الْوَسْطَاطِيِّ أَوَاخِرِ شَوَالِ سَنَةِ (٨٣٣ هـ)، مِنْ نَسْخَةٍ مَنقُولَةٍ عَنِ نَسْخَةٍ مَحْرَرَةٍ بِحِطِّ الْإِمَامِ الْعَلَامَةِ: رَضِيِّ الدِّينِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ الصَّغَايِيِّ (ت ٦٥٠ هـ)، وَالَّتِي قَدَّرَ لَهَا الْاسْتِقْرَارَ أَوَاخِرَ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهَجْرِيِّ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ الْمَارْدِيْنِيِّ -نَزِيلِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ- وَالَّذِي قَامَ بِقِرَاءَتِهَا عَلَى شَيْخِيَّتِهِ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ، ثُمَّ قَرَأَتْهَا فِي مَجَالِسَ عَدَّةٍ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ عَلَى مَدَارِ أَرْبَعَةِ عَشَرَ عَامًا تَوَالِيًّا.

أهمية البحث وبواعث اختياره:

١. يؤرّخ صفحةً تاريخيةً مُشرّفةً من الحياة العلمية في بيت المقدس وأكنافه.
٢. يُظهِرُ عناية أهل فلسطين بصحيح البخاري، وتملّك نسخه الخطية النفيسة.
٣. يسلّط الضوء على مجالس القراءة والسماع للحديث النبوي في المسجد الأقصى وجنابته المباركة.

أهداف البحث:

١. تسليط الضوء على عناية المقادسة بصحيح الإمام البخاري، واختيار النسخ الخطية النفيسة لمجالس السماع والقراءة.
٢. تأريخ مرحلة مهمة من قراءة صحيح الإمام البخاري في بيت المقدس، وأكنافه وسماعه على أهل العلم النازلين في رُبُطه وزواياه، والمدرسين في مدارسه ومساجده.
٣. إبراز حرص أهل العلم في بيت المقدس على تملّك النسخ الخطية لـ (الصحيح)، وقراءتها سنواتٍ متتالية في مطلع القرن العاشر الهجري.

الدراسات السابقة:

لم يقف الباحث -بعد تتبّع واستقراء- على أحدٍ أفرد هذه النسخة ببحثٍ ودراسةٍ، وحسب هذه الدراسة أن تكون أول من تسلّط الضوء على هذه النسخة ودراستها وإبراز عناية المقادسة بها.

خطة البحث:

ورّع الباحث خطته على مبحثين وخاتمة على النحو الآتي:
المبحث الأول: التعريف بناسخ المخطوط، وقيمة نسخته الخطية.
المبحث الثاني: التعريف بالمارديني وجهوده في قراءة النسخة في بيت المقدس.
الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.
ولنشرع في بحثنا، سائلين الله التوفيق والإعانة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المبحث الأول: التعريف بناسخ المخطوط وقيمة نسخته الخطية.

المطلب الأول: التعريف بناسخ المخطوط الوُسْطَائِي.

أولاً: اسمه ونسبه.

لم يَقَع في حَلَدِ (الإمام العلامة) - كما نَعَتَهُ بذلك البقاعي^(١)، واقتصر السَّخَاوي على الثاني^(٢) - الشيخ: بدر الدين حسين بن عزّ الدين يوسف بن علاء الدين علي الخِلَاطِي^(٣) الأصل، الوُسْطَائِي^(٤)، ثم الدَّمَشْقِي^(٥)، المشهور بـ (قاضي الجزيرة)^(٦) وجدّه بـ (أخي عبد الله)^(٧)؛ أن تكون نسخته النفيسة التي دَجَّبَتْهَا يِرَاعُهُ، وَحَبَّرَتْهَا أَنَامِلُهُ، في مدينة الموحِّدين^(٨) (تبريز) - إحدى مدن أذربيجان المشهورة^(٩) - أواخر شوال سنة (٨٣٣ هـ)^(١٠) من نسخة منقولة عن نسخة محرّرة بخط الإمام العلامة: رضي الدين الحسن بن محمد الصَّعَّائِي أن تستقرّ أواخر القرن التاسع الهجري في بيت المقدس، وتُصَبَّح من النُّسخِ العريقة

(١) انظر: عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران للبقاعي (١٧٤/٢)، رقم (٢٠٧)، وعنه:

السخاوي في الضوء اللامع (١٥٩/٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) نسبة لمدينة (خِلاط) بلد بـ (أرمينية) غرب آسيا. انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي ص

(٦٦٦)، وعنه: ابن العجمي في ذيل لبّ الباب في تحرير الأنساب ص (١٢٢).

(٤) نسبة لمدينة (وَسْطَان) من مدائن العراق. انظر: الدرّ الكمين بذيل العقد الثمين لابن فهد

المكي رقم (٦٤٩)، والضوء اللامع للسخاوي (٢٣٣/١١).

(٥) انظر: إتحاف الوري بأخبار أم القرى لابن فهد المكي (٣٣٦/٤).

(٦) انظر: الدرّ الكمين بذيل العقد الثمين لابن فهد المكي رقم (٦٤٩).

والمقصود بـ (الجزيرة): جزيرة ابن عمر، بلدة فوق (الموصل). انظر: معجم البلدان للحموي

(١٣٨/٢).

(٧) انظر: الدرّ الكمين بذيل العقد الثمين لابن فهد المكي رقم (٦٤٩)، وعنوان الزمان بتراجم الشيوخ

والأقران للبقاعي (١٧٤/٢)، رقم (٢٠٧)، وعنه السخاوي في الضوء اللامع (٢٣٣/١١).

(٨) هكذا نَعَتَهَا النَّاسِخُ (الْوَسْطَائِي) في خاتمة النسخة، ويُفهم من خلال ترجمة البقاعي له

إشاعة بعض المغرضين وإذاعته عن هذه المدينة ما ليس صحيحاً؛ فقال البقاعي - وعنه

السخاوي في ضوئه (١٥٩/٣) - : «أخبرني - أي: الوُسْطَائِي - أنّ تبريز ليس بها دَئِيّ، بل

كلّ أهلها مسلمون لا يخالطهم غيرهم».

(٩) انظر: معجم البلدان للحموي (١٣/٢)، وهي الآن إحدى المدن الإيرانية.

(١٠) جاء في حاشية نهاية الجزء الأول من نسخة صحيح البخاري الخطية ما نصه: «اتفق

الابتداء بكتابة الصحيح المسند في غرة رمضان سنة (٨٣١ هـ)».

ذواتِ الشَّأن، يُعَوَّلُ عليها في قراءة الحديث النبوي في مجالس السماع في أروقة المسجد الأقصى - حرره الله - وبين جنباته المباركة - أعاد الله مجدها - ثم قدّر الله لها الاستقرار الآن في مكتبة (داماد إبراهيم باشا) بتركيا، وتحمل أجزاءها الأربعة الأرقام التالية: (٢٦٦-٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩).

تمتاز النسخة التي رَفَّسَهَا الوَسْطَائِيّ ووشَّاهَا بِيَدِهِ: أَنَّ رَاقِمَهَا «عالمٌ فاضلٌ» بارِعٌ^(١)، له مشاركةٌ متينةٌ في العلوم، يؤكِّده قولُ السخاوي بعد ذِكرِ تاريخ ميلاده في (وسطان) بعد سنة (٧٩٥ هـ): «حفظ بها القرآن، والحاوي، والطواع، والكافية لابن الحاجب، وتخليص المفتاح، وأخذ بها الفقه والحديث والنحو والصرف والمعاني والبيان عن الشيخ أحمد الكيلاني»^(٢).
ثانياً: نشأته العلمية وأهم شيوخه ورحلاته.

لا غَرَوَ أن ينشغل الوَسْطَائِيّ بالعلم منذ نعومة أظفاره، فهو سليل أعلامٍ كبارٍ، تَعَتَّ البقاعي والده بالإمام المفيد عز الدين^(٣)، وجدّه بالإمام علاء الدين^(٤).
وبعد أن فرغ الوَسْطَائِيّ مِنَ النَّهْلِ مِنْ عُلُومِ بلدِه؛ يَمَّمْ شَطْرَ مدينةِ الموحدين تَبْرِيزَ؛ «فلازم الشريف: وليّ بن شرف الدين حسين بن أحمد الحسيني الإردبيلي، حتى أخذ عنه الزهراوين من الكشاف، وجميع العضد، وحاشية الشيخ سعد الدين، وغير ذلك من المعاني والبيان والأصول، وقرأ عليه جميع «شرح المطالع» للقلب الرازي».

في هذه المدينة اغتنم الوَسْطَائِيّ وجودَ نُسخِ خَطِيئَةٍ نَفِيسَةٍ لصحيح البخاري؛ ينسخ عليها نسخة خاصة له يستفيد منها في رحلته العلمية إفادةً واستفادةً، فكانت هذه النسخة التي نُويِلُ الحديث عنها اهتماماً ورعايةً.

(١) وصفه بذلك: المؤرخ عبد الباسط الملطي في (نيل الأمل في ذيل الدول) - جعله ذيلاً لتاريخ الذهبي من سنة (٧٤٤ هـ) إلى (٨٩٦ هـ) - (٤١٣/٥).
(٢) الضوء اللامع للسخاوي (١٥٩/٣).
(٣) نقله السخاوي في الضوء اللامع (١٥٩/٣-١٦٠)، أما السيوطي في نظم العقيان رقم (٦٩) فأثبتته - دون نسبة إلى البقاعي - بقوله: «الإمام المقرئ عزّ الدين».
(٤) نقله السخاوي في الضوء اللامع (١٥٩/٣-١٦٠)، وانظر: نظم العقيان للسيوطي رقم (٦٩).

وبعد أن أقام الوُسْطَاطِيّ فِي تَبْرِيْزٍ مُدَّةً؛ «رَحَلَ إِلَى (الجزيرة)؛ فَوَلِيَ بِهَا تَدْرِيسَ (المجدية) و(السيفية)، وانتفع به أهلها، ثم وُلِيَ قَضَاءَهَا»^(١).

وَقَرَّرَ بَعْدَهَا الرَّحْلَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ؛ يَتَغَيَّرُ خِلَالَهَا لِقَاءَ شَيْخِ الدِّيَارِ وَعَالِمِ الْأَمْصَارِ الْحَافِظِ ابْنِ حَجْرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَوَصَلَهَا سَنَةَ (٨٤٣ هـ)، وَقَرَأَ بِهَا - كَمَا قَالَ السَّخَاوِيُّ - «عَلَى شَيْخِنَا - أَي: ابْنِ حَجْرٍ - الْبُخَارِيِّ مِنْ نَسَخَةٍ كَتَبَهَا مِنْ نَسَخَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَلَالِيِّ، وَهِيَ كُتِبَتْ مِنْ نَسَخَةٍ قُرِئَتْ عَلَى مُؤَلِّفِهِ، وَعَلَيْهَا خَطُّ الْفَرَبْرِيِّ».

وَحَتَمَ السَّخَاوِيُّ تَرْجُمَتَهُ قَائِلًا: «ثُمَّ حَجَّ، وَرَجَعَ مَعَ الرِّكْبِ الشَّامِيِّ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى (الجزيرة)، ثُمَّ رَحَلَ بِأَهْلِهِ إِلَى دِمَشْقٍ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ - أَي: وَثَمَانِيَةَ -، فَقَطَّنَهَا، وَانْتَفَعَ بِهَا أَهْلُهَا عِلْمًا وَدِينًا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْقَاهِرَةِ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ - أَي: وَثَمَانِيَةَ - قَاصِدًا الْحَجَّ، وَتَوَجَّهَ فِيهَا مَعَ الرِّكْبِ الْمِصْرِيِّ، فَحَجَّ، وَتَخَلَّفَ إِلَى أَنْ مَاتَ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةَ (٨٥٨ هـ)^(٢)»، وَ«صَلَّى عَلَيْهِ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَدُفِنَ بِالْمَعْلَاةِ»^(٣).

وَمِنْ جَمَلَةِ فَوَائِدِ لِقَائِهِ الْحَافِظَ ابْنَ حَجْرٍ: اِطَّلَاعُهُ عَلَى «فَتْحِ الْبَارِيِّ شَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، مَا زَاقَ لِلْوُسْطَاطِيِّ تَلْخِيصَ فَوَائِدِ هَذَا الشَّرْحِ عَلَى نَسَخَتِهِ الْخَطِيَّةِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ.

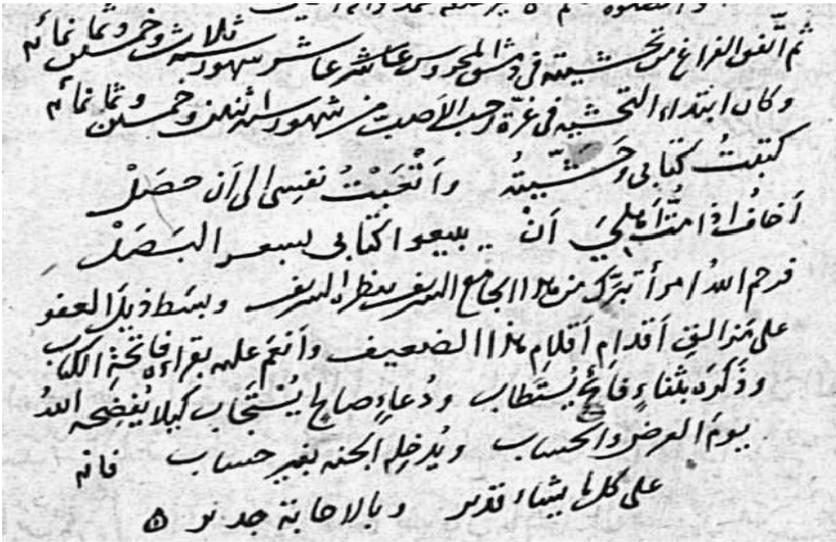
(١) الضوء اللامع للسخاوي (١٥٩/٣).

(٢) هكذا أثبتتها السخاوي، ومثله السيوطي في نظم العقيان - دون ذكر الشَّهْر -، وكذا ذكره المؤرخ عبد الباسط الملطي في (نيل الأمل في ذيل الدول) (٤١٢/٥ - ٤١٣) في أحداث ووفيات سنة (٨٥٨ هـ)، أما ابن فهد المكي فقد أثبت وفاته في الدرر الكمين بذيل العقد الثمين لابن فهد المكي رقم (٦٤٩) خلاف ذلك، قال: «أقام بر (مكة) إلى أن مات بها في يوم الثلاثاء، رابع عشرين ذي الحجة، سنة (٨٥٧ هـ)».

ثم ظهر لي أن السخاوي قد ترجم له في موضعين من الضوء اللامع؛ الأول هو في (١٥٩/٣ - ١٦٠) رقم (٦٠٨)، والثاني في (١٦٠/٣) رقم (٦١٠) قال: «حسين بن يوسف الدمشقي ويعرف بر (قاضي الجزيرة)، مات بر (مكة) في ذي الحجة سنة سبع وخمسين، ودفن بر (المعلاة). أرخه ابن فهد»، وبنحوه قال في (١٧٨/١١).

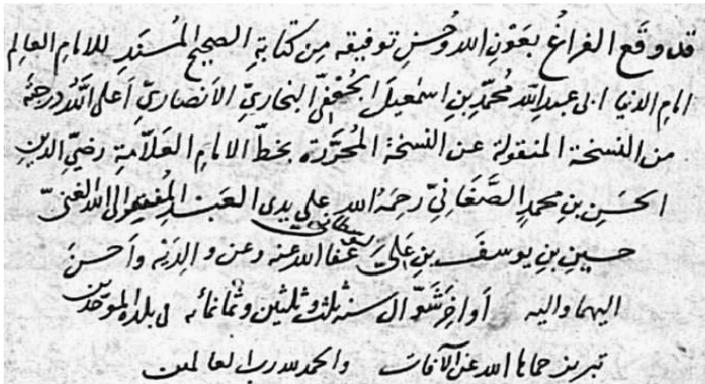
والصواب أنهما واحد؛ بدليل أن بقية ترجمته في الموضع الأول هي عين ما ذكره ابن فهد في ذيله. (٣) الدرر الكمين بذيل العقد الثمين لابن فهد المكي رقم (٦٤٩).

وكان ابتداء تحشيته نسخة (الصحيح) بعد عامٍ من إقامته بدمشق، وعلى وجه التحديد: «غرة رجب الأصب من شهور سنة (٨٥٢ هـ)»، والفراغ منه في «عاشر شهور سنة (٨٥٣ هـ)»^(١).



المطلب الثاني: التعريف بقيمة نسخه الخطية.

نصّ ناسخ النسخة الخطية من صحيح الإمام البخاري على الأصل الذي نسخ منه نسخه هذه، وهي نسخة الشيخ الفقيه المحدث اللغوي^(٢) رضي الدين الصّغاني - رحمه الله - وصورته^(٣):



(١) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٦/أ)].
 (٢) نعتة بهذا الفاسي في العقد الثمين (٤٠٧/٣).
 (٣) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٦/أ)].

والإمام الصَّعَّانِي؛ هو: أبو الفضائل رضيَّ الدين الحسن بن محمد بن الحسن البغدادي الصَّعَّانِي - ويكتبها بعضهم: الصَّاعَانِي^(١) - العُمَرِيُّ. ولد بمدينة (لاهور) من بلاد الهند^(٢) سنة (٥٧٧ هـ)^(٣)، وتوفي في بغداد سنة (٦٥٠ هـ)^(٤). قال تلميذه الديمياطي: «كان شيخًا صالحًا صدوقًا صموتًا عن فضول الكلام، إمامًا في اللغة والفقه والحديث»^(٥)، وقال الذهبي: «كان إليه المنتهى في معرفة علم اللغة، له مصنفات كبار في ذلك، وله بصر بالفقه والحديث مع الدين والأمانة»^(٦).

اعتنى بالسنة النبوية تصنيفًا وتأليفًا؛ من أعلاها: صحيح الإمام البخاري، فقد أُلِّف كتاب «مشارك الأنوار» في الجمع بين الصحيحين، وكتاب «شرح البخاري» في مجلد، وغيرها^(٧).

وكذا اعتنى بها سماعًا وقراءةً وروايةً؛ قال التقي الفاسي: «سمع صحيح البخاري على أبي سعد ثابت بن مشرف بقراءته عليه، والحافظ أبي الفتوح نصر بن محمد الحصري الحنبلي ما بين قراءة وسماع، وقراه على عبد العزيز بن أحمد بن مسعود الناقد»^(٨).

ومن عيون جهوده: نسخته النفيسة من صحيح الإمام البخاري - رحمه الله -. كتَبَهَا الصَّعَّانِي فِي بَغْدَادَ، وَاعْتَنَى بِتَصْحِيحِ مَتْنِهَا وَضَبَطَ حَدِيثَهَا عَلَى مَا يَسَّرُ اللَّهُ لَهُ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ مِنْ نَسْخِ الصَّحِيحِ الْمُتَقَنَةِ وَرَوَايَاتِهِ الْمُوثِقَةِ، فِي طَلِبَعَتِهَا: نَسْخَةٌ مَقْرُوءَةٌ عَلَى الْإِمَامِ الْفَرَزْدِيِّ - تَلْمِيزُ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ وَرَاوِي صَحِيحِهِ الْمَشْهُورِ - وَعَلَيْهَا خَطُّهُ، وَقَدْ أَثْنَى عَلَى هَذِهِ النُّسْخَةِ الْحَافِظُ الْكَبِيرُ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي أَعْظَمِ شَرْحٍ لِصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ «فَتْحُ الْبَارِي»؛ فَقَالَ بَعْدَ أَنْ

- (١) منهم: الفاسي في ذيل التقييد (٥١١/١).
- (٢) الأعلام للزركلي (٢١٤/٢).
- (٣) ذيل التقييد للفاسي (٥١٢/١).
- (٤) تاريخ الإسلام للذهبي (٦٣٧/١٤).
- (٥) تاريخ الإسلام للذهبي (٦٣٧/١٤).
- (٦) العبر في خبر من غير للذهبي (٢٦٥/٣).
- (٧) تاريخ الإسلام للذهبي (٦٣٧/١٤).
- (٨) ذيل التقييد للفاسي (٥١٢/١).

نعتها بـ «النسخة البغدادية»: «التي صحّحها العلامة أبو محمد ابن الصّعاني اللُّعويّ، بعد أن سَمِعَهَا من أصحاب أبي الوقت، وقابلها على عدّة نُسخٍ، وجَعَلَ لها علامات»^(١).

أبرز الصغاني مِيزة صنيعه في هذه النسخة - كما نقله عن الناسخ الوُسْطَاني في خاتمة الجزء الثاني - ما نصه:

«نَجَرَ النَّصْفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْجَامِعِ الصَّحِيحِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَمَّ الصَّالِحَاتِ، وَعَلَى رُؤْسِهِ الصَّلَوَاتُ الزَّكَايَاتِ، عَلَى يَدَيْ مَنْ أَوْبَقْتَهُ آثَامُهُ، وَأَوْثَقْتَهُ أَجْرَامَهُ، الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ حَيْدَرَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الصَّعَانِيِّ، عَيَّنَ اللَّهُ لَهُ بُقْعَةً يَتَّخِذُهَا مَتَعَبِدًا، وَاعْتَزَلَ عِبَادَةَ الْعِبَادِ وَعِمَارَةَ الْبِلَادِ مَتَزَهِّدًا، نَسَخَهُ مِنْ نُسخَةٍ كُتِبَتْ فِي زَمَانِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَعَلَيْهَا خَطَّ الْفَرَبْرِيُّ - تَعَمُّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ - إِلَّا ثَلَاثَةً أَجْزَاءٍ كَانَتْ قَدْ ضَاعَتْ مِنْ نَسَخَةِ الْفَرَبْرِيِّ وَنُسِخَ بِدَلْهَا، فَعَلَامَةُ الْفَرَبْرِيِّ (ف)، وَمَا خَالَفَ نَسَخَةَ الْفَرَبْرِيِّ مِنَ النُّسخِ الَّتِي قُبِلَتْ بِهَا نَقْطَةُ هَذِهِ صَوْرَتُهَا (O)، وَمَا وَافَقَ نَسَخَةَ الْفَرَبْرِيِّ مِنَ النُّسخِ نَقْطَةُ فَوْقَ الْفَاءِ الْمَمْطُوطَةِ وَهَذِهِ صَوْرَتُهَا (ف٢)، وَعَلَامَةُ رِوَايَةِ الْحَمَوِيِّ (ح)، وَعَلَامَةُ رِوَايَةِ أَبِي الْهَيْثَمِ (ه)، وَعَلَامَةُ رِوَايَةِ أَبِي إِسْحَاقَ الْمُسْتَمْلِيِّ (س)، وَعَلَامَةُ رِوَايَتِي الْمُسْتَمْلِيِّ وَأَبِي الْهَيْثَمِ (سَه)، وَصَحَّحْتُ مَوَاضِعَ الْأَشْتِبَاهِ وَالْإِتْبَاسِ»^(٢). وهذه صورته:

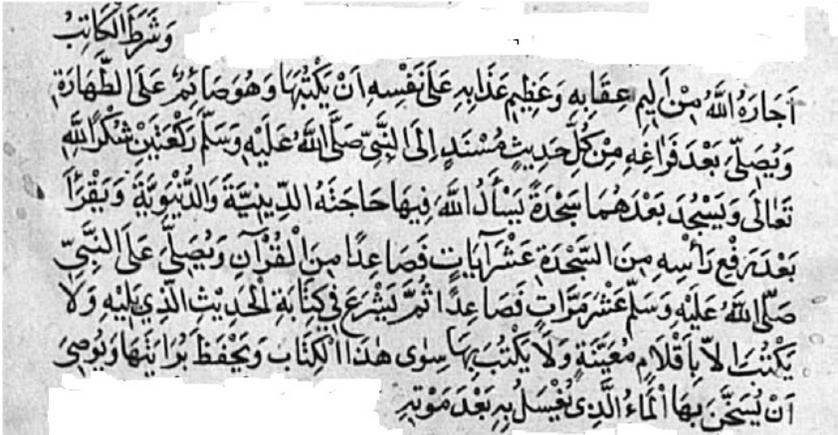


(١) فتح الباري لابن حجر (١/١٥٣).

(٢) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٧) - [مخطوط (جزء ٢، ٢٦٨/ب)].

ثم حكى الصَّغاني ما ألزم به نفسه من عبادةٍ قام بها بين يديِّ نسخه للصحيح، متغيِّياً بذلك استمطار البركة، وراجياً استنزال القبول لها من الله، وانتشارها بين الناس؛ قال:

«شَرَطَ الكاتب -أَجارَهُ اللهُ- من أَلِيمٍ عَقابِهِ، وعَظِيمٍ عَذابِهِ- على نَفْسِهِ أَنْ يَكْتُبَها وهو صائِمٌ على الطهارة، ويصليُّ بعد فراغِهِ من كلِّ حَدِيثٍ مُسْنَدٍ إلى النَبِيِّ ﷺ رَكَعَتَيْنِ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، ويسجدُ بعدهُما سَجْدَةً يسألُ اللهُ فيها حاجتَهُ الدنيويةَ والدنيويةَ، ويقرأ بعد رُفْعِ رأسِهِ من السجدةِ عَشْرَ آياتٍ فصاعداً من القرآن، ويصليُّ على النَبِيِّ ﷺ عَشْرَ مَرَّاتٍ فصاعداً، ثم يشرعُ في كتابَةِ الحديثِ الذي يليه، ولا يَكتُبُ إلا بِأَقْلَامٍ مَعِيْنَةٍ، ولا يَكتُبُ بها سِوَى هذا الكِتابِ، ويحفظُ بُرايَها ويوصي أن يَسْحَنَ بها المِاءَ الذي يُغسَلُ بِهِ بعد موتِهِ»^(١). وهذه صورته:

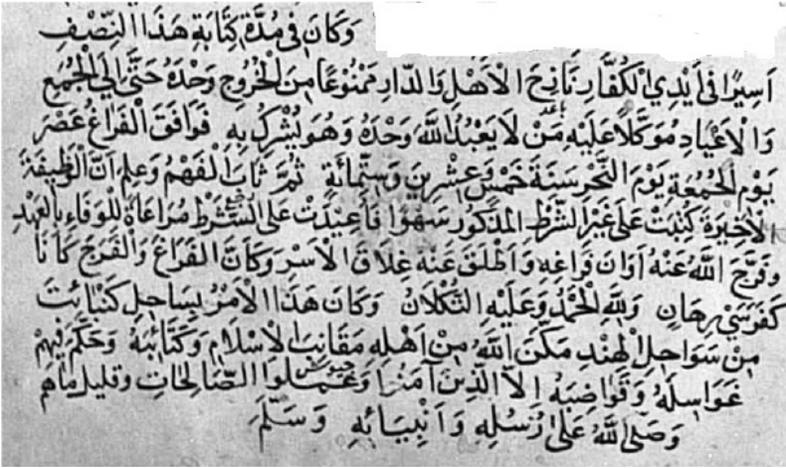


أما عن الظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بالصغاني أثناء نسخه للصحيح؛ فعبر عنها بما يبكي القلب ويدمع العين؛ قال:

«كان في مُدَّةِ كتابَةِ هذا النَّصْفِ أسيراً في أيدي الكفار، نازح الأهل والدار، ممنوعاً من الخروج وحده حتى إلى الجُمُع والأعياد، موكَّلاً عليه من لا يعبد الله وحده وهو يشرك به، فوافق الفراغُ عصر يوم الجمعة يوم النحر سنة خمسٍ وعشرين وستمائة، ثم ثاب الفهم وعلم أن الوظيفة الأخيرة كُتبت على غير الشرط المذكور سهواً فأعيدت على الشرط مراعاةً للوفاء بالعهد، وفرَّج الله عنه أوان فراغِهِ، (١) صحيح البخاري -نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٧)- [مخطوط (جزء ٢، ٢٦٨/ب)].

وأطلق عنه غلاق الأسر، وكان الفراغ والفرج كانا كفرسي رهان، والله الحمد وعليه التكلان، وكان هذا الأمر بساحل كُنْبَائِت من سواحل الهند، مكّن الله من أهله مقانب الإسلام وكتائبه، وحكّم فيهم غواسله وقواضيه، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وصلى الله على رسله وأنبيائه وسلم»^(١).

وهذه صورته:



وقد ذكر البحّثة المحقّق عبد الرحيم يوسفان - حفظه الله - في مقدّمة تحقيق كتاب «أسماء شيوخ البخاري» للصغاني^(٢) أبرز ما تميزت به نسخة الصغاني البغداديّة من صحيح الإمام البخاري، نذكرها باختصار:

١. زيادات على مثل الصحيح ليست في النسخ المتداولة، وهي على وجوه:

أ. أسانيد لمتون سبق أن ذكرها البخاري.

ب. زيادة معلّقات ليست في النسخ المتداولة.

(١) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٧) - [مخطوط (جزء ٢، ٢٦٨/ب)].
 (٢) أسماء شيوخ البخاري للصغاني - مقدمة التحقيق - ص (١٨-٢٠)، وهي مما ألحقها الأستاذ عبد الرحيم يوسفان على مقدّمة تحقيق صديقه حسين مهدي رحمه الله للكتاب، دون أن يذكر يوسفان اسمه عليه، وقد نشرها على الشبكة العنكبوتية باسمه مفردة، وأخيرني حفظه الله أنّها من إضافاته على مقدّمة التحقيق.

- ت. وصل حديثٌ جاء في النَّسخ المتداولة معلقًا.
- ث. زياداتٌ من كلام الإمام البخاري على الأسانيد، من بيانٍ مبهمٍ أو تميمٍ إسنادٍ.
- ج. زياداتٌ في شرح الحديث.
- ح. زياداتٌ فقهيةٌ بعضها من غير طريق الفربري.
- خ. زياداتٌ من نسخة الفربري تُعصّد تفرّدًا لراوٍ من الرواة للصحيح في النسخ التي بأيدينا.
٢. زياداتٌ في الهوامش، أغلبها في التوجيه اللغوي، ومنها في بيان المهمل من الرواة.
- المبحث الثاني: التعريف بالمارديني وجهوده في قراءة النسخة في بيت المقدس.

المطلب الأول: التعريف بالمارديني -مالك النسخة الخطية-

- بعد وفاة الشيخ الوسطائي؛ آلت نسخته الخطية -بطريقة ما- إلى الشيخ الفاضل: عملاء الدين علي بن الحسن المارديني ثم المقدسي.
- ولعلّ أول ظهورٍ لاسم المارديني -حسب ما وصلنا- كان في خاتمة نسخته كتاب «طبقات القراء» للحافظ الذهبي^(١)، أفاد في خاتمتها أمرين:
- نسبته لبيت المقدس: ممّا يعطي إشارةً تقريبيةً لتأريخ نزوله هذا الثغر المبارك.
- تأريخ الفراغ من النسخ: يوم السبت، (٢٢) ربيع الأول، سنة (٨٦٠ هـ).

(١) نسخة الخزنة الملكية بالرباط رقم (١١٥).

وصورته:

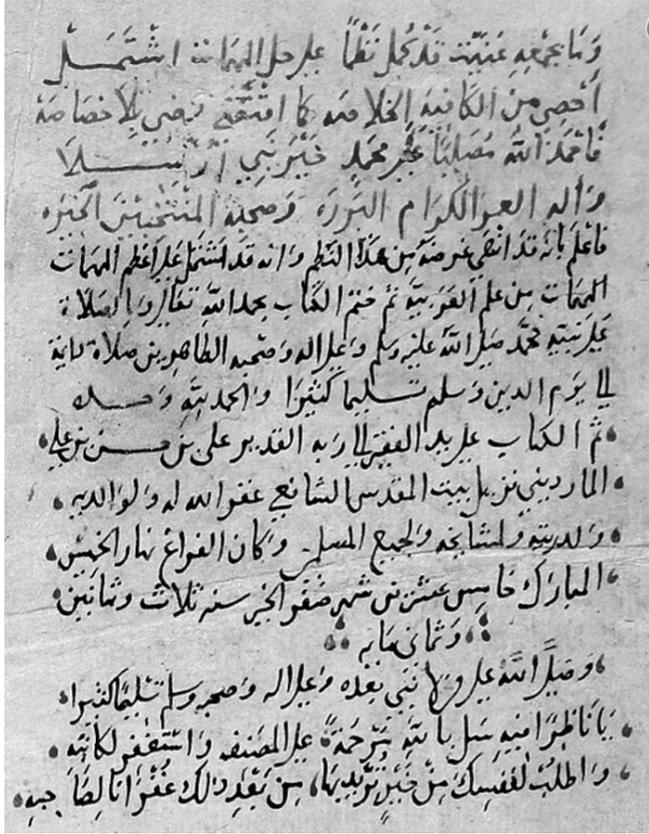


ثم واصل المارديني مهمته التراثية في نسخ المخطوطات، ففي يوم الإثنين، (١٣) من شهر صفر لعام (٨٦٩ هـ)؛ فرغ من نسخ كتاب «الأشباه والنظائر» للسبكي^(١)، وصورته:



(١) نسخة المكتبة الأزهرية رقم (١٣١٥٩٠).

وفي نهار يوم الخميس، (٢٥) من شهر صفر، لعام (٨٨٣ هـ)؛ فرغ من نسخ «شرح ألفية ابن مالك» لابن عقيل^(١)، وصورتها:



أما آخر ظهورٍ لاسمه -حسب ما وصلنا-: هو ما جاء على سماعات هذه النسخة النفيسة من صحيح البخاري التي قرأها في عدة مجالس في المسجد الأقصى عام (٨٩٩ هـ) وما بعده مدة أربعة عشر عامًا متتاليًا.

والمارديني: نسبة إلى (ماردين)^(٢)، وتمتاز بتعلق أهلها الكبير في المسجد الأقصى، بل بلغ عشقهم للقدس والأقصى أن أنشأوا رباطًا خاصًا لمن ينزل

(١) نسخة دار إسعاف النشاشيبي في القدس رقم: (٢٥٦/٥٤١ م).
 (٢) (ماردين) بكسر الراء والدال، بلدة من بلاد الجزيرة. انظر: معجم البلدان للحموي (٣٩/٥)، وهي الآن مدينة داخل تركيا على الحدود مع سوريا، وتقع في الجنوب الشرقي من الأناضول.

القدس من أهل (ماردين)، قال العليمي: «(رباط المارديني): باب حِطَّة، مُقَابِل (الكاملية)^(١)، وهي بجوار (التربة الأوحديّة)، وَفَّه مَنْسُوبٌ لِمَرَاتَيْنِ من عَتَقَاءِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ -صاحب ماردين-، وَشَرَطُهُ أَنْ يَكُونَ مَنْ يَرِدُ مِنْ ماردين، وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى مُحَضَّرٍ ثَابِتٍ بِوَقْفِهِ؛ تَارِيخُهُ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةَ»^(٢).

وهذا الرباط لم يزل موجودًا حتى الآن، وكتب إليّ الأخ الباحثة: يوسف الأوزيكي المقدسي -حفظه الله- من بيت المقدس^(٣) ما نصّه:

«إِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الْمُبَارَكِ مِنْ بَابِ حِطَّةٍ، فَعَلَى يَسَارِكِ:

أولاً: المدرسة الأوحديّة؛ وفيها تربة واقفها الملك الأوحّد الأيوبي^(٤).

ثانياً: مبنى الرباط المارديني؛ من وقف اثنتين من النساء على القادمين للمجاورة من أهل ماردين».

وأفادني -أفاده الله- أن اسم هذا الرباط تُوسِي الْآن، ولم يُعَد يُقَالُ لَهُ «رباط المارديني»، وتسكنه عائلة مقدسية أصولها ماردينية يقال لها: (الكاظمي)^(٥) أو (الكاظمي)، وهذه العائلة اسمها القديم في سجلات المحاكم الشرعية في القدس: (القندوس).

المطلب الثاني: التعريف بجهوده في قراءة النسخة في بيت المقدس.

أما (العلاء المارديني) الذي تملك هذه النسخة وقرأ منها على شيوخه، لم تصلنا من أخباره العلمية -غير ما سبق- إلا ما جاء في الإجازتين المشتملتين آخر الجزء الثاني والرابع، والسماعات المدونة آخر الجزء الرابع من هذه النسخة، تفصيلها على النحو التالي:

أولاً: إجازة العلامة شمس الدين أبي الجود محمد بن برهان الدين إبراهيم

(١) (المدرسة الكاملية): بخط باب حطة، بجوار [المدرسة] الكريمة من جهة الشمال، واقفها

الحاج كامل من أهل طرابلس. انظر: الأنس الجليل للعلمي (٤٢/٢)

(٢) الأنس الجليل للعلمي (٤٢/٢).

(٣) بتاريخ: (٢٦/١٠/٢٠١٩م).

(٤) عن هذه التربة انظر: الأنس الجليل للعلمي (٣٩/٢).

(٥) قال الباحث: لهذه العائلة فرعٌ في غزة يحملون الاسم نفسه.

الخليلي المقدسي الأنصاري الشافعي (ت ٩١٢ هـ)^(١) للعلاء المارديني.

جاء في أولها بعد البسملة والحمدلة:

«قرأ جميع هذا الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله البخاري - سقاه الله تعالى من صوب رضوانه الجاري - من هذا البتّر المبارك والثلاثة قبله على سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحّد الفهامة مفتي المسلمين أبي عبد الله محمد شمس الدين بن شيخنا المرحوم السعيد الشيخ الإمام العلامة أبي إسحاق إبراهيم برهان الدين بن أبي عبد الرحمن أحمد الأنصاري الخليلي المقدسي نفع الله تعالى بعلمه: الشيخ الفاضل الصالح الخير الورع الخاشع بركة المسلمين أبو الحسن علي علاء الدين بن الأمير حسن بن علي المارديني ثم المقدسي - شيخ السادة الفقراء الصمادية بالقدس الشريف، وأحد الفقهاء بالمدرسة الصلاحية بها-»^(٢).

(١) قال العليمي في ترجمته من الأنس الجليل (٢٠٧/٢) - بعد أن نعته بـ «الشيخ العلامة» -: «مولده بمدينة سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام في شعبان سنة (٨٤٥ هـ)، حفظ القرآن والمنهاج وألفيه ابن مالك والجزرية وبعض الشاطبية، واشتغل على والده، ثم أخذ عن جماعة من العلماء بالديار المصرية؛ أجالهم: شيخ الإسلام قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي، ومنهم: الشيخ كمال الدين إمام الكاملية، وأخذ العلوم عن الشيخ تقي الدين الشمتي الحنفي، وفُضِّلَ وتَمَيَّرَ، وأُجِيزَ بالافتاء والتدريس، وأعاد بالمدرسة الصلاحية في زمن شيخ الإسلام كمال الدين ابن أبي شريف، وله تصانيف؛ منها: شرح الآجرومية، وشرح المقدمة الجزرية، وشرح مقدمة الهداية في علوم الرواية للجزري، وشرح معونة الطالبين في معرفة اصطلاح المعربين، وقطعة من شرح تنقيح اللباب لشيخ الإسلام ولي الدين العراقي، وغير ذلك من التعليقات والفوائد، ودرّس وأفتى في حياة والده وبعده مع وجود أعيان العلماء، وهو مستمرٌّ على ذلك إلى يومنا».

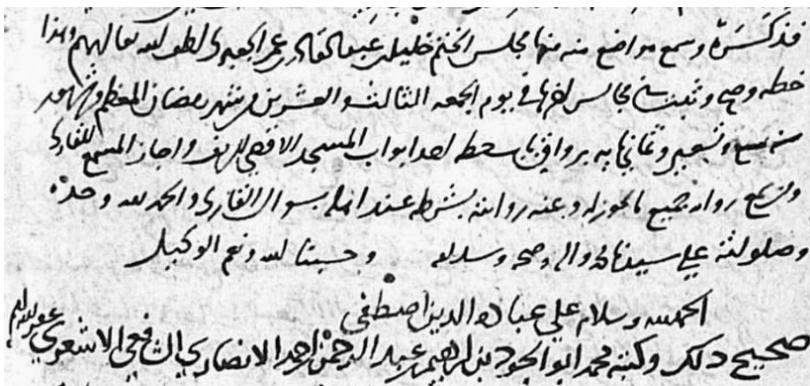
قال الباحث: بيّض العليمي لوفاة شمس الدين أبي الجود؛ لأنه انتهى من تاريخه إلى عام (٩٠١ هـ)، وبسبب هذا رأينا كلَّ من ترجم لأبي الجود يؤرخ وفاته بأنه كان حيًّا سنة (٩٠١ هـ)، ومع التتبع لم نجد من ذكّر تاريخ وفاته في المصادر المطبوعة، لكن وقفتُ - بفضل الله ومَنّته - على حاشية نسخة مكتبة قليج علي باشا بتريشيا رقم (٧٢٩) من كتاب الأنس الجليل [لوحه (١٦٩/أ)] ما نصّه:

«توفيَّ الشيخ شهاب الدين أحمد الأنصاري في شهور سنة عشر وتسعمائة بدرج دمشق المحروس ودُفِنَ هناك، وتوفي أخوه الأكبر شمس الدين محمد في سنة اثنتي عشرة وتسعمائة بالقدس الشريف، ودُفِنَ بِمَآمِلًا - رحمهما الله تعالى -».

(٢) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٦/ب)].

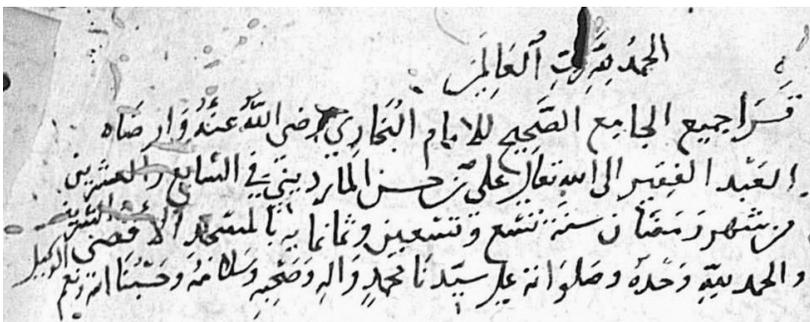
أهله بسؤال القاري، والحمد لله وحده»^(١).

وصورة النص السابق:



وبعد أربعة أيام من هذه القراءة؛ قرأ المارديني الصحيح كاملاً في المسجد الأقصى، وأثبت هذا بخطه على طرة الجزء الثاني منه^(٢).

وصورة نصه:



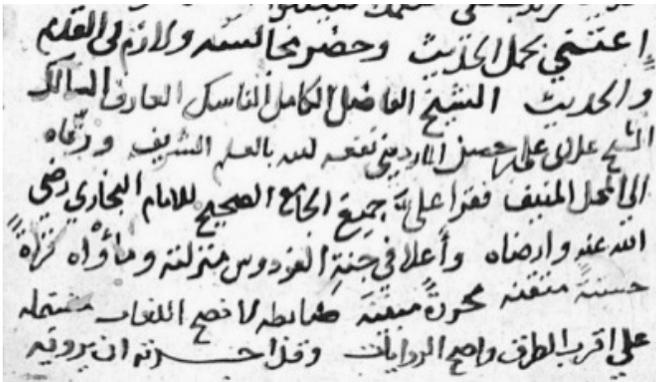
ثانياً: إجازة العلامة أبي المعالي برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن خليل بن أبي بكر بن محمد الحلبي المقدسي الشهير بابن القباقي الشافعي (ت ٩٢٢ هـ)^(٣) للعلاء المارديني.

(١) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٦ ب/ب)].
(٢) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٧) - [مخطوط (جزء ٢، ٢٦٩ ب/ب)].
(٣) هو الشيخ: أبو المعالي برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن خليل بن أبي بكر بن محمد الحلبي المقدسي الشهير بابن القباقي الشافعي.

جاء في أولها بعد البسملة والحمدلة:

«اعتنى بحمل الحديث، وحضّر مجالسه ولازم في القديم والحديث، الشيخ الفاضل الكامل الناسك العارف السالك الشيخ علاء الدين علي بن حسن المارديني - نفعه الله بالعلم الشريف ورقاه إلى المحلّ المنيف -؛ فقرأ عليّ جميع الجامع الصحيح للإمام البخاري - رضي الله عنه وأرضاه، وأعلا في جنة الفردوس منزله ومأواه - قراءةً حسنةً متقنةً محرّرةً مبيّنةً ضابطةً لأفصح اللغات، مشتملة على أقرب الطرق وأصحّ الروايات، وقد أجزّته أن يرويه عني وجميع ما يجوز لي وعني روايته بحقّ روايتي له»^(١).

وصورة النص السابق:



ترجم له العليمي في الأنس الجليل (١٨٠/٢)؛ قال: «الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام القدوة المحقق، أحد أعيان علماء بيت المقدس في العلم والقراءات، رجل عالم صالح، لم تُعلم له صبوة»، ثم قال: «اشتغل وحصل وفضل وتميز وصار من أعيان بيت المُقَدَّس وتصدر للإفتاء والتدريس، ونفع المُسلمين وهو سالك طريقتي السلف الصّالحين، وعبارته في الفُتُوى حَيَاة في الحُسن، والنَّس سَالِمُونَ من يده ولسانه، يتلّو كتاب الله بحُسن صَوْتٍ وطيب نَعْمَةٍ».

قال الباحث:

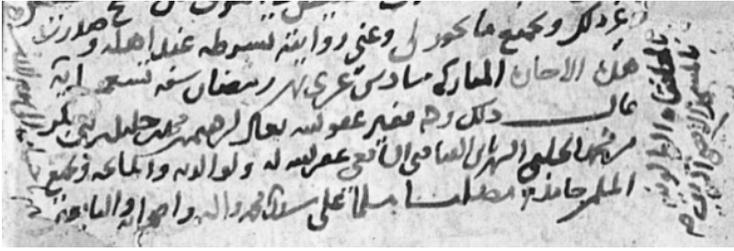
كل من ترجم له يذكر وفاته بعد (٩٠١ هـ)؛ بناءً على ترجمة العليمي له في الأنس الجليل الذي فرغ منه سنة (٩٠١ هـ)، وقال في ترجمته: «وهو حيٌّ يريزق إلى يومنا أبقاه الله تعالى ونفع به المسلمين». والصواب: أن تاريخ وفاته كان سنة (٩٢٢ هـ)، يدلّ عليه قول ابن طولون في كتابه مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ص (٣١٩) - في أحداث عام ٩٢٢ هـ -: «وفي يوم الجمعة، تاسعه [أي: من شهر ربيع الأول] بعد صلاحها بالجامع الأموي، نودي بالصلاة غائبة على رجل عالم بالقدس، يُقال له: (القباقبي)».

(١) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٧) - [مخطوط (جزء ٢، ٢٧٠/أ)].

وجاء في آخرها:

«وغير ذلك، وبجميع ما يجوز لي وعني روايته بشرطه عند أهله. وصَدَرَتْ هذه الإجازة المباركة سادس عشرين شهر رمضان سنة تسعمائة بِ (الخانقاة الطولونية)^(١) بالمسجد الأقصى. قال ذلك وكتبه فقير عفو الله تعالى: إبراهيم بن محمد بن خليل بن أبي بكر بن محمد الحلبي الشهير بالقباقي الشافعي غفر الله له»^(٢).

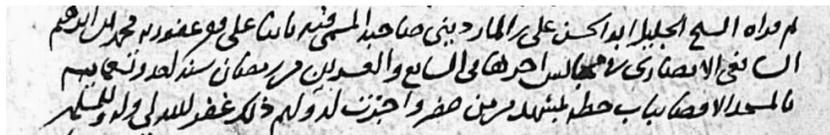
وصورة النص السابق:



ثالثًا: السماعات المثبتة على الجزء الرابع من هذه النسخة.

١. ثم قرأه الشيخ الجليل: أبو الحسن علي بن المارديني صاحبه المسمى فيه ثانيًا على فقير عفو ربه: محمد بن إبراهيم الشافعي الأنصاري في مجالس، آخرها في السابع والعشرين من رمضان سنة أحد وتسعمائة بالمسجد الأقصى بباب حطة بمشهد من حضر، وأجزت له ولهم ذلك.

غفر الله لي وله وللمسلمين^(٣).



(١) (المدرسة الطولونية): بداخل المسجد على الرواق الشمالي، يصعد إليها من السلم المتوصل منه الى منارة باب الأسباط، وهي التي أنشأها شهاب الدين أحمد ابن الناصر محمد الطولوني الظاهري في زمن الملك الظاهر برقوق، على يد مملوكه أقبغا قبل الثمانمائة. انظر: الأنس الجليل للعلمي (٤٠/٢).

(٢) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٧) - [مخطوط (جزء ٢، ٢٧١/أ)].

(٣) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/أ)].

٢. ثم قرأه ثالثاً عليّ في سنة اثنين وتسعمائة بالمسجد الأقصى الشريف بباب حطة المبارك.

وكتبه: محمد بن إبراهيم الأنصاري متلقّظاً له بإجازته ولمن سمع شيئاً منه، والحمد لله وحده^(١).

لم يراه ثالثاً عليّ في سنة اربع م بالمسجد الاقصى الشريف بباب حطه المبارك
وكه محمد بن ابراهيم الانصاري متلقظاً له باجازته ولمن سمع شيئاً منه والحمد لله

٣. الحمد لله رب العالمين.

بلغ قراءة من أول (الصحيح) إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في سنة ثلاثٍ وتسعمائة برباط الماردانية في العشر الثالث من شهر رمضان المعظم قدره.

والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه^(٢).

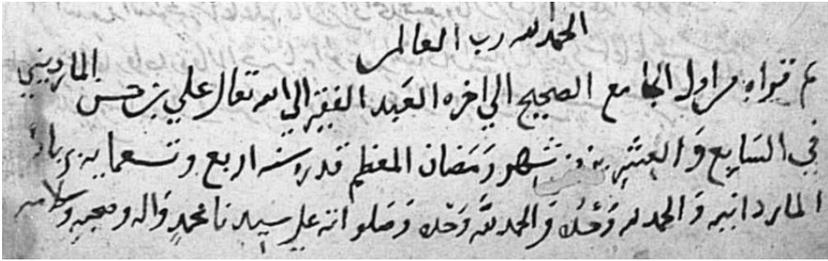
الحمد لله رب العالمين
بلغ قراءة من أول الصحيح إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى علي بن حسن
المارديني في سنة ثلاث وتسعمائة برباط الماردانية في العشر الثالث من شهر رمضان المعظم قدره والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

٤. الحمد لله رب العالمين.

ثم قرأه من أول الجامع الصحيح إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم قدره سنة أربعٍ وتسعمائة برباط الماردانية.

والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه^(٣).

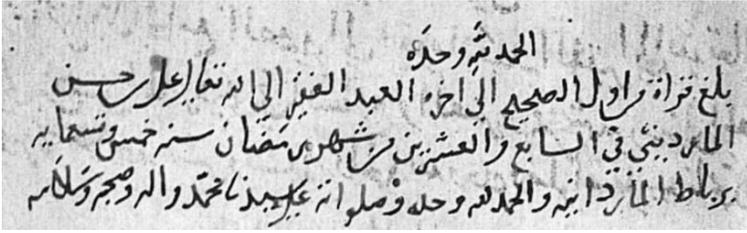
(١) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/أ)].
(٢) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/أ)].
(٣) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/أ)].



٥. الحمد لله وحده.

بلغ قراءةً من أول (الصحيح) إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وتسعمائة برباط الماردانية.

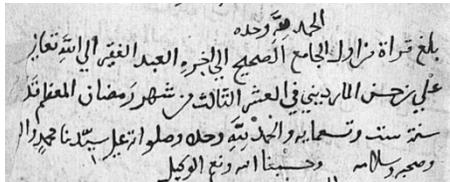
والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه^(١).



٦. الحمد لله وحده.

بلغ قراءةً من أول الجامع الصحيح إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في العشر الثالث من شهر رمضان المعظم قدره سنة ست وتسعمائة.

والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه، وحسبنا الله ونعم الوكيل^(٢).



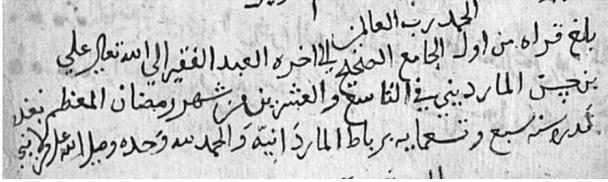
(١) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/ب)].

(٢) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/ب)].

٧. الحمد لله رب العالمين.

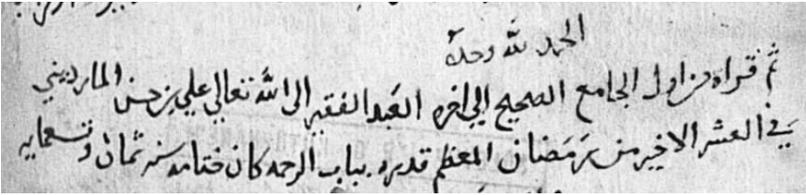
بلغ قراءة من أول الجامع الصحيح إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم قدره سنة سبع وتسعمائة برباط الماردانية.

والحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده^(١).



٨. الحمد لله وحده.

ثم قرأه من أول الجامع الصحيح إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في العشر الأخير من رمضان المعظم قدره بباب الرحمة، كان ختامه سنة ثمان وتسعمائة^(٢).

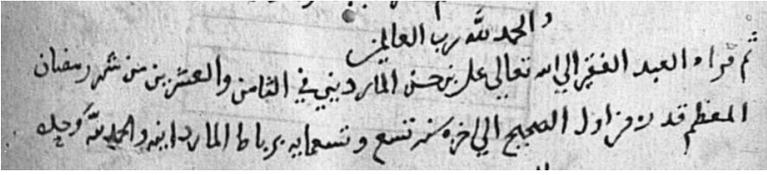


٩. الحمد لله رب العالمين.

ثم قرأه العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في الثامن والعشرين من شهر رمضان المعظم قدره من أول (الصحيح) إلى آخره سنة تسع وتسعمائة برباط الماردانية.

والحمد لله وحده^(٣).

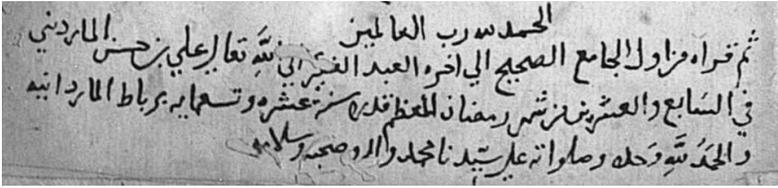
(١) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/ب)].
(٢) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/ب)].
(٣) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/ب)].



١٠. الحمد لله رب العالمين.

ثم قرأه من أول الجامع الصحيح إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم قدره سنة عشرة وتسعمائة برباط الماردانية.

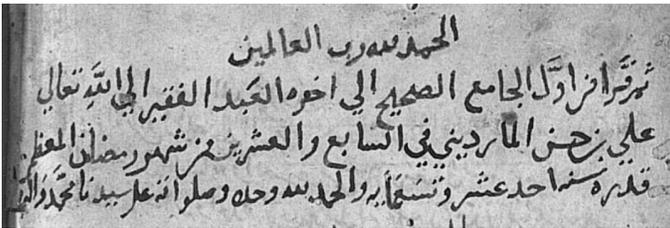
والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه^(١).



١١. الحمد لله رب العالمين.

ثم قرأه من أول الجامع الصحيح إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم قدره سنة أحد عشر وتسعمائة.

والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله^(٢).



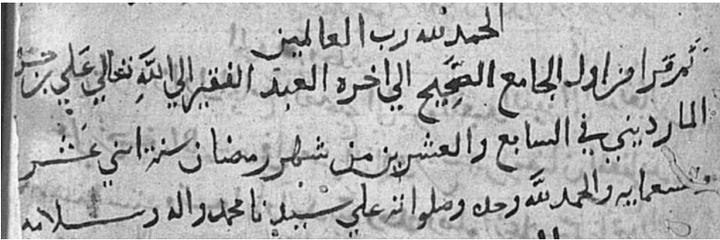
(١) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٧/ب)].

(٢) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٨/أ)].

١٢. الحمد لله رب العالمين.

ثم قرأ من أول الجامع الصحيح إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة اثني عشر وتسعمائة.

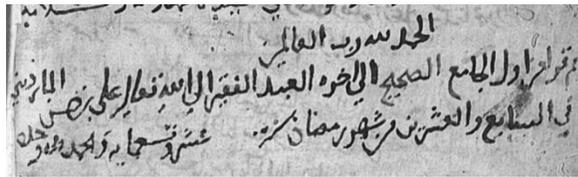
والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلامه^(١).



١٣. الحمد لله رب العالمين.

ثم قرأ من أول الجامع الصحيح إلى آخره العبد الفقير إلى الله تعالى: علي بن حسن المارديني في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة [ثلاث] عشر وتسعمائة.

والحمد لله وحده^(٢).



(١) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٨/أ)].
(٢) صحيح البخاري - نسخة داماد إبراهيم باشا رقم (٢٦٩) - [مخطوط (جزء ٤، ٢٦٨/أ)].

الخاتمة:

في ختام بحثنا هذا، نذكر أهم النتائج والتوصيات التي خلص إليها الباحث في هذا البحث، موزعة على النحو الآتي:

أولاً: النتائج.

١. تعد نسخة الإمام الوُسْطَائِيِّ المنسوخة عام (٦٣٣ هـ) من نسخ صحيح البخاري النفيسة؛ لأنها منسوخة عن نسخة منسوخة عن نسخة الإمام الكبير رضي الدين الصغاني رحمه الله.

٢. زادت نفاسة هذه النسخة عدة أمور:

- كون ناسخها من العلماء الكبار الراسخين أصحاب الرحلة في طلب العلم.
- لقاء ناسخها الحافظ ابن حجر وإطلاعها على شرحه فتح الباري؛ ما حدا الأول إلى تحشية هذه النسخة من فوائد هذا الشرح على حاشية نسخته الخطية.

٣. ترجع نفاسة نسخة الصغاني إلى إتقان ناسخها وتفننه واعتناؤه بتصحيح متنها وضبط حديثها على ما يسر الله له الوقوف عليه من نسخ الصحيح المتقنة ورواياته الموثوقة، في طليعتها نسخة مقروءة على الإمام الفرزباني - تلميذ الإمام البخاري وراوي صحيحه المشهور - وعليها خطه.

٤. آلت نسخة الوُسْطَائِيِّ إلى أحد العلماء الذي - نزلوا بيت المقدس واستقروا بها - وهو الشيخ: علاء الدين علي بن الحسن المارديني ثم المقدسي.

٥. يعدُّ المارديني من علماء الحديث في بيت المقدس، واشتهر بنسخه للمخطوطات، وتملكه لها.

٦. أهل (ماردين) لهم تعلق كبير في بيت المقدس والمسجد الأقصى، وبلغ عشقهم لـ القدس والأقصى أن أنشأوا فيه رباطاً خاصاً لمن ينزل القدس من أهل ماردين، يقال له: الرباط المارديني.

٧. أول ظهورٍ كان لاسم المارديني - حسب ما وقف عليه الباحث - على

نسخة نسخها المارديني من كتاب «طبقات القراء» للذهبي عام (٨٦٠ هـ).

٨. قرأ المارديني صحيح البخاري من هذه النسخة على الشيخين الجليلين:

- الشيخ العلامة شمس الدين أبو الجود محمد بن برهان الدين إبراهيم الخليلي المقدسي الأنصاري الشافعي (ت ٩١٢ هـ)، في مجالس آخرها في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم من شهور سنة تسع وتسعين وثمانمائة برواق باب حطة أحد أبواب المسجد الأقصى الشريف.

- الشيخ العلامة أبو المعالي برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن خليل بن أبي بكر بن محمد الحلبي المقدسي الشهير بابن القباقي الشافعي (ت ٩٢٢ هـ)، سادس عشرين شهر رمضان سنة تسعمائة بـ (الخانقاه الطولونية) بالمسجد الأقصى.

- أثبت المارديني جهوده المباركة في قراءة صحيح البخاري في بيت المقدس على مدار أربعة عشر عامًا تواليًا في العشر الأواخر من رمضان، يوضحه الجدول الآتي:

م	التاريخ	المكان
١	(٢٣) رمضان عام (٨٩٩ هـ)	رواق باب حطة في المسجد الأقصى
٢	(٢٧) رمضان عام (٨٩٩ هـ)	المسجد الأقصى
٣	(٢٦) رمضان عام (٩٠٠ هـ)	الخانقاه الطولونية في المسجد الأقصى
٤	(٢٧) رمضان عام (٩٠١ هـ)	رواق باب حطة في المسجد الأقصى
٥	عام (٩٠٢ هـ)	رواق باب حطة في المسجد الأقصى
٦	العشر الثالث من رمضان عام (٩٠٣ هـ)	رباط الماردانية في بيت المقدس
٧	(٢٧) رمضان عام (٩٠٤ هـ)	رباط الماردانية في بيت المقدس
٨	(٢٧) رمضان عام (٩٠٥ هـ)	رباط الماردانية في بيت المقدس
٩	العشر الثالث من رمضان عام (٩٠٦ هـ)	بيت المقدس

رباط الماردانية في بيت المقدس	(٢٩) رمضان عام (٩٠٧ هـ)	١٠
باب الرحمة في المسجد الأقصى	العشر الأخير من رمضان عام (٩٠٨ هـ)	١١
رباط الماردانية في بيت المقدس	(٢٨) رمضان عام (٩٠٩ هـ)	١٢
رباط الماردانية في بيت المقدس	(٢٧) رمضان عام (٩١٠ هـ)	١٣
بيت المقدس	(٢٧) رمضان عام (٩١١ هـ)	١٤
بيت المقدس	(٢٧) رمضان عام (٩١٢ هـ)	١٥
بيت المقدس	(٢٧) رمضان عام (٩١٣ هـ)	١٦

ثانيًا: التوصيات.

١. يوصي الباحث بزيادة التتبع والاستقراء لكل النسخ الخطية لصحيح الإمام البخاري، واستخراج النسخ الخطية المنسوخة أو المسموعة أو المقروءة في فلسطين، وعقد دراسات بحثية حولها.
٢. عُد مؤتمر علمي عن عناية أهل فلسطين بصحيح الإمام البخاري عبر العصور.

المصادر والمراجع

- الأعلام، خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ)، دار العلم للملايين، لبنان، الطبعة الخامسة عشر، عام (٢٠٠٢م).
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين العليمي (ت ٩٢٨ هـ)، تحقيق: عدنان تبانة وآخر، مكتبة دنديس، عمان.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، عام (٢٠٠٣م).
- ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢ هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت،
- ذيل لبّ اللباب في تحرير الأنساب، شهاب الدين ابن العجمي (ت ١٠٨٦ هـ)، تحقيق: شادي آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، اليمن، الطبعة الأولى، عام (٢٠١١م).
- صحيح البخاري - مخطوط/ نسخة داماد إبراهيم باشا بتركيا: رقم (٢٦٦-٢٦٧-٢٦٩).
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢ هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- العبر في خبر من غير، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، عام (١٩٨٤ هـ).
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢ هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، عام (١٩٩٨م).
- عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران، إبراهيم البقاعي (ت ٨٨٥ هـ)، تحقيق: حسن حبشي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، عام (٢٠٠١-٢٠٠٩م).

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، تصحيح: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، عام (١٣٩٧ هـ).
- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة، عام (٢٠٠٥ م).
- نظم العقيان في أعيان الأعيان، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق: فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت.
- نيل الأمل في ذيل الدول، زين الدين الملطي (ت ٩٢٠ هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، عام (٢٠٠٢ م).
- توضيح المشتبه، لابن ناصر الدين (ت ٨٤٢ هـ)، تحقيق: محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٣ م).
- الدرر الكامنة، لابن حجر (ت ٨٥٢ هـ)، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الثانية، (١٩٧٢ م).
- ذيل التقييد، للفاسي (ت ٨٣٢ هـ)، تحقيق: كمال الحوت، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٩٩٠ م).
- الذيل على العبر، للولي العراقي (ت ٨٢٦ هـ)، تحقيق: صالح عباس، مؤسسة الرسالة، لبنان، الطبعة الأولى، (١٩٨٩ م).
- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)، تحقيق: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٨٦ م).
- لحظ الألاحظ، لابن فهد المكي (ت ٨٧١ هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (١٩٩٨ م).
- هدية العارفين، للبغدادي (ت ١٣٩٩ هـ)، دار إحياء التراث العربي، لبنان.

Editorial Advisory Board

Prof. Dr. Ahmed Al-Raisouni - Morocco
Prof. Dr. Ali Al-Qara Daghi- Qatar
Prof. Dr. Abdul Hakim Al-Saadi- Qatar
Prof. Dr. Mohamed Othman Shbeir - Jordan
Prof. Dr. Ahmet Ağırakça - Turkey
Prof. Dr. Saleh Al-Reqib - Palestine

Journal's mail:

almirqatmagazine@gmail.com

Başakşehir Mah, Hürriyet Bulvarı, No:121F, Kent neriva Sit,
B blok121f/Istanbul.

Al-Mirqat Journal



ISSN: 2651-5407

For Islamic Studies and Research
A scientific journal issued by the Association of Palestinian
Scholars Abroad

Second Issue 1442 AH / 2021 AD

Editor

Prof. Dr. Abdul-Jabbar Saeed
Head of Quran and Sunnah Department, Faculty of Sharia,
University of Qatar.

Managing Editor

Dr. Majdi Qwaider

Editorial Board's Members: -

Dr. Salah Abdel Fettah Al-Halidi, Faculty of Sharia
Prof. Dr. Ayman Saleh: Faculty of Sharia, Qatar University
Prof. Dr. Abdel Moez Hreiz: Faculty of Sharia, University of Jordan
Dr. Mohammed Al-Shib: Faculty of Sharia, Qatar University
Dr. Munther Zeitoun: University of Applied Sciences
Dr. Mohamed Melhem: Faculty of Sharia, Academy Başakşehir